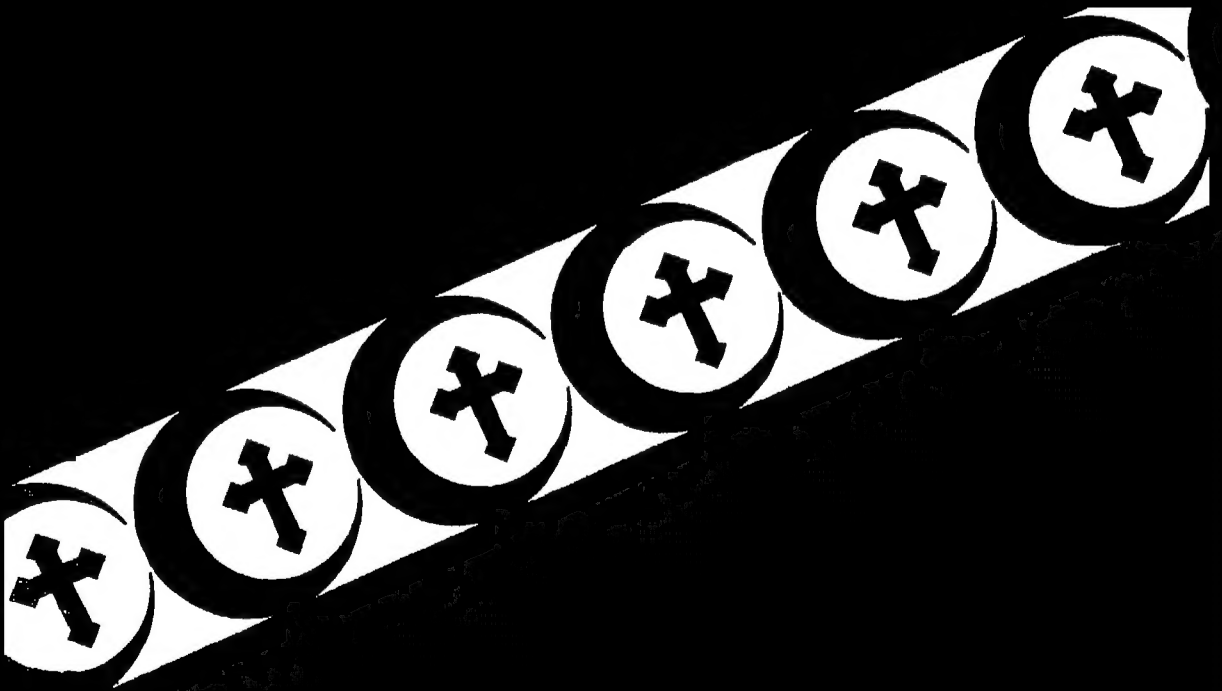


د. مصطفى الفقى

الأقطار

فك السياسة المصرية
مكرم عبيد ودوره فى الحركة الوطنية



دار الشروق

الأقطار

فك السياسة المصرية

الطبعة الثانية

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

دار الشروق

القاهرة: ١٦ شارع حزام الخي - هاتف: ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨
بريكا، شروق - تليفون SHROK UN 93091
بيروت - ص ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
بريكا، دمشق - تليفون RHOROK 20175 LE

د. مصطفى الفقى

الأقطار

فكر السياسة المصرية

مكرم عبيد ودوره فى الحركة الوطنية

دار الشروق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

منذ عدة سنوات ، كنت أتحديث إلى سياسى بارز من ساسة ما قبل ٢٣ يولية ١٩٥٢ - وهو قبطى كان من كبار الوفدين مع مصطفى النحاس - كنت أستوضحه بعض الوقائع التى عايشها وشارك فيها ، ومنها مدى المساواة بين المسلمين والأقباط فى تولى بعض الوظائف الخاصة . وكنت فى حديثى أقتبس المواقف بمقياس مطلق للمساواة . فكان الرجل يهدئ من حماسى عن وجوب الالتزام العملى الصارم بالمبادئ المطلقة ، ويتكلم عن الأوضاع التاريخية ، والصياغات الفكرية والنفسية للجاعات ، ووجوب الرعاية والتفهم الودود لكل هذه المكونات والملاءمة بينها . وكان يلفت نظرى إلى أنه إن كان ثمة نقص فى مساواة القبط فى بعض الوظائف ، فثمة زيادة لحسابهم فى وظائف أخرى لا تقل أهمية ، وثمة أسباب يتعين فحصها ومراعاتها .

وضرب لى مثلاً بالشافعية ، وهم أصحاب المذهب الغالب بين المسلمين فى مصر ، وقد اختص الحنفية بوظائف القضاء الشرعى كلها دونهم . ومع ذلك لم نسمع شكاة من الشافعية ، ولا وصفوا أنفسهم أنهم يعانون اضطهادا وتفرقة . ولا يكون من الإنصاف وصف مصر بأنها تضطهد الشافعية لو أن الحنفيين يمتازون عليهم . وحسب الشافعية وغيرهم الكثير من وظائف الوعظ والإرشاد والتعليم .

وأدركت من حديث الرجل الكريم ، كيف يكون الموقف الفكرى والإنسانى لمن أسهم فى قيادة شعب كامل بمجموعه كلها ، على كثرة التصنيفات الاجتماعية والفكرية لهذه الجموع ، وكيف تكون النظرة الشاملة والمعالجة الودود البناءة لمشاكل أمة بأسرها ، وكيف تتمكن المداواة دون استئصال ، ويمكن العلاج دون البتر ، حفاظاً على الجسم كله ، كاملاً وحياً ومعافى .

هذا الموقف يظهر في شخصية مكرم عبيد ، الذى خصه الدكتور مصطفى الفقى بهذه الدراسة . والقارئ فى التاريخ المصرى ، يلحظ قلة الدراسات المتعلقة بالوحدة الوطنية ، حتى أن كتاباً ككتاب « جاك تاجر » ظل منفرداً بالساحة أكثر من عشرين سنة ، على ما فى هذا الكتاب من عوار . كما يلحظ القارئ للتاريخ قلة الدراسات المتعلقة بسير القادة الزعماء وخاصة رجال السياسة . ومن هنا تظهر الأهمية المزدوجة لدراسة الدكتور الفقى ، إذ جاءت تحتل مكانها فى هذين المجالين معا . وهى دراسة علمية وموثقة أعدها عقل مستقيم وقلب شغوف بوطنه ، وتناول فيها سيرة زعيم مصرى تبوأ مكاناً بارزاً فى صدارة الحركة الوطنية المصرية ضد الاستعمار سنوات طويلة فى مرحلة هامة . ومكرم عبيد أسماء المصريون المجاهد الكبير ، وكان سياسياً داعية ومنظماً ومحامياً ، وكان سكرتيراً لحزب الوفد ووزيراً للمالية ، وكان ينتخب عضواً بمجلس النواب ونقيباً للمحامين كلما رشح نفسه . ودراسة الدكتور الفقى ، فيها من الرصانة العلمية ما فيها من الاستقامة المنهجية ما فيها من التواضع الجرم لباحث يكدح فى جمع مادته واختبارها وتركيبها فى سياقها التاريخى ، تم لا يشير ولو باللمح لما اقتضته هذه السلسلة من كد وعناء . ويحد القارئ نفسه مع مكرم عبيد فى خضم السياسة المصرية على مدى ثلاثين عاماً . فيرى زعيماً يتعامل مع الأحداث والجموع بوصفه المصرى دون غيره . ويتعامل معه الأحداث ويتصدى له الرجال بهذا الوصف الغلاب دون غيره غالباً . والقارئ قد ينسى فى بعض فصول الكتاب أن مكرم قبطى ، أو قد يتذكر ذلك ثم يتنبه إلى أن قبطية مكرم لم تكن عنصراً مؤثراً فى سلسلة الأفعال السياسية وردودها ، المثبتة فى هذا الكتاب . هكذا كان مكرم ، وهكذا كانت استقامة المؤلف فى إثبات وقائع الشخصية المدروسة ، دون اعتساف فى التفسير ولا فى الاستدلال .

وليسمح لى الباحث المحترم ، أن أستغل استضافته لى فى تقديم هذا الكتاب لأشير إلى بعض النقاط . فمن أخطر ما واجه مكرم فى حياته الحزبية ، خلافه مع أحمد ماهر والنقراشى فى سنة ١٩٣٧ ، الذى أسفر عن انتصار النحاس ومكرم وخروج من سمو « بالسعديين » من الوفد . ويبدو لى أن واحداً من أهم أسباب الخلاف ، كان يتعلق بالخط السياسى الذى رأى كل من الطرفين اتباعه بعد إبرام معاهدة ١٩٣٦ . يلحظ ذلك على وجه الخصوص فى أقوال أحمد ماهر وخطبه .

إذ بدأ ماهر يروج لموقف سياسى مؤداه أن إبرام المعاهدة من شأنه أن ينهى سبب الخصومة السياسية التى كانت قد قامت بين فريق سعد زغلول وفريق على يكن فى سنة ١٩٢٢ ، التى أفضت إلى انشقاق من كونوا حزب الأحرار الدستوريين وقتها . وفى المقابل يظهر من مسلك مصطفى النحاس ومكرم عبيد فيما تلا ذلك من أعوام ، أن معاهدة ١٩٣٦ ، رغم دفاعها الكبير عنها ، لم يكن لها من التدايعات السياسية لديها ، مثل ماكان لها لدى أحمد ماهر ، لأن الوفد كان يتوقع من إبرام المعاهدة لا أن يخفض جناحه إزاء خصومه المحليين كالملك والأحرار ، ولكن أن يشدد عليهم النكير ، إذ تضمن له المعاهدة تهدئة مع الانجليز لفترة يتفرغ فيها لما يسميه معركة الدستورية التى يسعى فيها لاستيعاب سلطات الملك لصالح المؤسسة النيابية المنتخبة . كما كان يتوقع خلافاً بينه وبين الأحرار حول طريقة تنفيذ المعاهدة وإدارة السياسات فى هذه الفترة .

وفضلاً عن هذا السبب السياسى الذى انتصر به النحاس ومكرم على ماهر والنقراشى فى ١٩٣٧ ، فى معركتهم الحزبية فلم يستطع ماهر والنقراشى تحقيق هدفهما الأسمى وهو السيطرة على الوفد من دون مكرم والنحاس ، فضلاً عن ذلك ، فقد كان لدى مكرم سبب خاص يتعزز به فى حزب الوفد أكثر من ماهر إذ كان الأول يفوق الأخير فى قوة روابطه التنظيمية ، ووثوق اتصالاته بالحزب برئاسة ورجالاً . وكان بيت مكرم أشبه ما يكون واحداً من مقار حزب الوفد يؤمه الأعضاء نهراً وليلاً . وذلك على خلاف ماهر ، الذى كان رغم ذكائه السياسى غير المعتاد ورغم سابقة ممارسته أعمال الفدائيين ، كان قد صار أميل للاهتمام بحياته الخاصة وبمبتديات الصفوة ومجالسهم .

والأخطر فيما واجه مكرم فى حياته الحزبية ، هو خلافه مع مصطفى النحاس وانفصاله عن الوفد فى سنة ١٩٤٢ . وعلى عادة الدكتور الفقى فى هذا الكتاب ، يحتفل للحدث الهام ويوليه ما يستحقه من رعاية فى تقصى الأسباب والإحاطة بالعناصر ، ومن ذلك ما هو معروف وصحيح عن دور الملك وأحمد حسنين وغيرهما . ولكن الباحث يضيف إضافتين دللتا على ذكاء المعاشية لوقائع الموضوع واختيار مادته . إذ كان خروج ماهر والنقراشى من الوفد مما اختل به التوازن العضوى فى قيادة الوفد وتحت زعامة النحاس . وقامت الزعامة بتغذية ظهور توازن

جديد بين مكرم وأبي علم والطويل . وهذه ملاحظة دقيقة تتعلق بآليات العمل الزعامي والرئاسي وما يدرج عليه عادة من كفالة قدر من التوازن في المستوى الأدنى ، وألا يكون لجهة واحدة أو فرد واحد من شمول النفوذ ما يستوعب الدور الزعامي أو الرئاسي . ثم يشير الباحث إلى دور أمين عثمان في توسيع شقة الخلاف بين النحاس ومكرم . وإذا كانت صلة أمين عثمان بالسفير البريطاني معروفة ، فإن هذه الإشارة تثير في أذهاننا مدى الإسهام البريطاني في توسيع شقة الخلاف إضعافاً للوفد الذي حالفه البريطانيون أنفسهم في ٤ فبراير ١٩٤٢ ضد الملك .

على أنه رغم غواية الملك لمكرم في هذا الانشقاق ، حتى صار صنيع مكرم في السنين القليلة التالية أحد معاول هدم الوفد كله ، فالذي يذكر لهذا السياسي الكبير ، أنه فيما عدا هذا الصنيع ، لم يجد عن جوهر مواقفه الوطنية ولا عن الخط الوطني السياسي الذي كان يلتزمه إبان توليه أمانة الوفد . لقد شارك السعديين والأحرار في وزارة ١٩٤٤ ، ولكنه مالبت في ١٩٤٦ أن يخرج من الوزارة ومن الوفد الرسمي الذي كان قد شكل لمفاوضة الإنجليز ، رافضاً ما رضى به آخرون من مساومات تتعلق بالحلاء والدفاع المشترك . كما يذكر لمكرم ، وهو السياسي المصري القبطي ، أنه كان من أكثر قيادات الوفد تفهماً « للوضع العربي » لمصر منذ الثلاثينات . ومع التسليم طبعاً بالصيغة العلمانية للوفد ولمكرم ، فلعل مكرم كان يبدؤاً آخرين في قيادة الوفد مثل أحمد ماهر ، في إدراك أهمية المكون الإسلامي في الوطنية المصرية .

نقطة أخرى وأخيرة ، إذ يبدو لي من هذه الدراسة أن العلمانية هي الوعاء اللازم لتقرير المساواة بين المسلمين والأقباط في المواطنة ، وأن التناسب طردي في هذا المجال . وهي نظرة مستفادة مما جرى عليه جيل الوطنية المصرية لثورة ١٩١٩ . ولكن ثمة جانب آخر أرجو ألا يغفل عنه ، وهو أن هذه التجربة قد أفادت ومن شأنها أن تفيد في ضرب نطاق من العزلة على التيار السياسي الإسلامي ، الذي يرى في العلمانية ما يتنافى مع مبادئه وعقيدته . وهي نظرة تضع هذا التيار في حرج بين الهدف المنشود من تقرير المساواة بين المواطنين وإن اختلفت أديانهم ، وبين إسلاميته السياسية ، التي يستمد منها بعضاً من معاني الهوية والانتماء للجماعة وتاريخها ، معنى يتغذى بها انتاؤه لمصريته وعرويته .

وإن العلمانية التي توضع كجامع للمسلمين والأقباط تفصم جامعاً آخرًا بين تيار

الوطنية المصرية والعربية ، وبين التيار الإسلامى . وبها نكون فصمنا جماعتنا من حيث أردنا توحيدها . وتجربة الثلاثينيات وما بعدها شاهد على ذلك . وأتصور من جهة أخرى أن تحقيق المساواة والمشاركة بين المسلمين والأقباط ، يكون أوضح وأجمع عليه من الكافة عندما يرد مدعوماً باجتهادات المجتهدين فى الفكر الإسلامى وفقهه . لا أن يأتى فى ثوب العلمانية المحجود من هذا الفكر وتياره السياسى وعلى حسابه . وأن تنوع مدارس الفقه الإسلامى وغزارة تجاربه وتراثه ، هو أرحب من أن يضيق عن استيعاب هذه المنافع .

أهنئ الصديق الباحث على جهده القيم النافع . ونتوقع منه بإذن الله دوام التوفيق والعمل المثمر الحصب لأمته .

طارق البشرى

مقدمة الطبعة الثانية

كلمة :

تحتل الدراسات المتصلة بالوحدة الوطنية والاندماج القومى أهمية متزايدة على خريطة البحث فى العلوم الاجتماعية لأسباب تتصل بالاستقرار السياسى لعدد كبير من دول العالم الثالث ، ولدينا فى مصر درجة عالية من الانصهار القومى وتاريخ متميز فى الوحدة الوطنية ، ولقد أغرانى ذلك التصور بأن أبحث فى التاريخ السياسى للأقباط فى مصر الحديثة متخلداً من السياسى المصرى « مكرم عبيد » نموذجاً تمضى من خلاله الدراسة عبر مرحلة هامة من تاريخ مصر فى فترة ما بين الثورتين ١٩ - ١٩٥٢ .

وحيث صدر هذا الكتاب أصلاً باللغة الإنجليزية فقد رأيت أن أنقله إلى اللغة العربية حتى يصل إلى يد القارئ المصرى الذى يهيمه ذلك الموضوع بالدرجة الأولى ، وقد حذفت من الكتاب بعض الأجزاء ذات الطابع الأكاديمى التى قد لا تثير اهتمام غير المتخصصين فى مثل هذه الدراسات ، كما رأيت أيضاً ألا ضرورة لنشر قائمة المراجع والمصادر التى استعنت بها فى إعداد هذا الكتاب مكتفياً بذكر بعضها فى هوامشه .

ويهنئنى فى مقدمة الطبعة الثانية لهذا الكتاب أن أسجل امتنانى بالحفاوة التى استقبل بها القراء الطبعة الأولى من حيث الإقبال عليها وإشادة عديد من الباحثين الجادين بها ، أذكر منها على سبيل المثال الكاتب الصحفى الكبير أحمد بهاء الدين فى صحيفة الأهرام ، والمؤرخ المصرى الكبير الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى فى « ندوة الالتزام والموضوعية فى كتابة تاريخ مصر المعاصر ١٩ - ١٩٥٢ » بالإضافة إلى عشرات الأقلام فى الدوريات المصرية والعربية التى قدمت عرضاً للكتاب ونقلت لمادته العلمية .

ولا يفوتنى أن أشيد بالجهود التى بذلها الأستاذ طارق البشرى فى إعطاء دراسات الوحدة الوطنية المصرية دفعةً واضحةً فى السنوات الأخيرة على نحو أثرت به المكتبة العربية التى نقدم لها

هذا الكتاب في تواضع ليكون إضافة محدودة إلى جانب دراسات متعمقة سبقت إلى البحث في هذا الموضوع المتميز ، وقد تفضل المستشار طارق البشري فقدم لهذا الكتاب في سطور تعطيه قيمه أكثر لأنها جاءت من مؤرخ باحث اقتحم ميدان التاريخ السياسي من باب الشغف والهاوية فتفوق على كثيرين ممن تخصصوا فيه وافرغوا له .

بقيت هناك كلمة لا بد منها وهي إمتنانى العميق للدار الشروق على الجهد الصادق والإختيار المستنير لمطبوعاتها المختارة في شتى مجالات المعرفة والتي تمثل إضافة مرموقة لمكتبة الثقافة العربية .

د . مصطفى الفقى

مقدمة

تبلورت أهداف الحركة الوطنية المصرية الحديثة - على الرغم من الاختلافات بين الأحزاب السياسية والقوى الاجتماعية قبل عام ١٩٥٢ - في هدفين رئيسيين هما الاستقلال والدستور .

ونظرًا للتباين الشديد في وجهات نظر أولئك الذين تناولوا فترة ما بين الثورتين ١٩ - ١٩٥٢ بالدراسة فإننا سوف نتخذ تلك الفترة لتكون بمثابة الوعاء التاريخي الذى يتحرك فى إطاره موضوع هذا الكتاب ، إذ كانت الأحزاب السياسية نشطة وفعالة فى مسعاها من أجل الاستقلال والدستور ، وكذلك كانت ظروف الحياة السياسية فى مصر خلال تلك الفترة خاضعة للتأثير المتبادل ، والنفوذ المختلف للمحاور الرئيسية على مسرح الحياة السياسية فى مصر حينذاك ، وهى القصر الملكى وسلطة الاحتلال البريطانى والأحزاب السياسية ، وإن اختلفت أحجام شعبيتها وفعالية سياساتها .

وتميز بين المواقف الوطنية للحركة الشعبية المصرية فى ١٩١٩ وما بعدها دور الأقباط فيها واستمرار ذلك الدور من خلال موقعهم فى حزب الأغلبية ، حزب الوفد ، كتعبير عن إسهامهم الذى لم ينقطع فى الحركة الوطنية المصرية ، ويمثل بالنسبة لنا الدور السياسى لمكرم عبيد - من بين الزعماء الآخرين سواء الأقباط منهم أو المسلمين - جاذبية خاصة ومدعاة لاهتمام متميز إذ كان مكرم عبيد نموذجاً يمكن التركيز عليه لدراسة دور الأقباط فى الحركة الوطنية المصرية ، ومتابعة ذلك الدور من خلال المسيرة السياسية لمكرم عبيد ، الذى استمر نشاطه السياسى دون توقف على امتداد الفترة من ١٩١٩ إلى ١٩٥٢ . كما كان مكرم عبيد هو السكرتير العام لحزب الأغلبية لفترة امتدت قرابة خمسة عشر عامًا ، فقد بدأ دوره المرموق فى الحركة الوطنية كواحد من مؤيدى زعيم الثورة الشعبية فى ١٩١٩ ، سعد زغلول ، وقد اعتمد مكرم عبيد فى الوصول إلى مكانة خاصة ولون متميز بين السياسيين فى تلك الفترة على تمتعه بمعظم المؤهلات والمواهب التقليدية التى اتصف بها السياسيون المصريون فى وقته ، فكانت لديه القدرة - وهو الخطيب البارع والكااتب المجيد - على التأثير فى رأى العام وتحريك مشاعر الجماهير كما أبدى حذقا وبراعة عظيمين فى مناورات الحياة السياسية .

ويعتبر مكرم عبيد - في تكوين شخصيته ومسار حياته السياسية - تجسيدا حقيقياً لفكر ومشاعر وطموحات فرد ينتمى إلى أقلية دينية هي جزء لا يتجزء من وطن ينتمى إليه بالدرجة الأولى. ولعل ذلك يفسر اندفاعه وتطلعه للقيام بدور سياسى مؤثر على المستوى الوطنى كله ، كذلك فإن حياة مكرم عبيد السياسية تعد انعكاساً حقيقياً لواحد من إفرزات الفترة التى تمتعت فيها مصر بنصيب كبير من الأفكار الليبرالية والعلمانية، والتى أعطت للحركة الوطنية - خاصة فى سنواتها الأولى - شخصية متميزة باحتوائها للمسلمين والأقباط معا وتقديمها حلا عمليا وتجربة تاريخية فيما يتصل بقضية الأقليات عموماً ، لذلك فإن مكرم عبيد يمثل أحد الظواهر التى نشأت فى ظل المناخ الليبرالى العلمانى الذى عرفته مصر الحديثة .

وليس من شك فى أن التغيرات الكبيرة والتطور الراديكالى الذى طرأ على النظام السياسى ، وانعكس على الجوانب الاجتماعى منذ ولاية محمد على الكبير، وربما قبل ذلك ببضع سنين، وبالتحديد منذ وصول الحملة الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت ، إن هذه التطورات قد صنعت مناخاً سياسياً واجتماعياً هو بمثابة الميلاد الحقيقى لمصر الحديثة ، ولولا ذلك ما كان يمكن أن ينطلق التيار الوطنى الليبرالى الذى يعتبر مكرم عبيد واحداً من نتائجه وجوده. كذلك فإن مكرم عبيد أيضاً هو انعكاس صادق للروح القومية والحيوية التى دبت فى الحركة الوطنية بزعماء سعد زغلول ، ولقد تميزت روح تلك الفترة بوضوح فكر سياسى مصرى خالص متحرر من أية مؤثرات دينية وغير مرتبط بأية قوى خارجية وملتمز باستقلال مصر الكامل. وعلى ذلك فإنه يمكن القول أن سعد زغلول قد سعى إلى إيجاد حشد ضخم من أبناء مصر المؤهلين لقيادة الحركة الوطنية - بغض النظر عن جذورهم الاجتماعية ، أو انتماءاتهم الطائفية - مكتفياً بإيمانهم بأمة مصرية واحدة تسعى إلى تحقيق الاستقلال والوصول إلى حكم الدستور. وبذلك تختلف الروح الزغلولية فى جوهرها عن فكر الحزب الوطنى وحزب الأمة اللذين سبقاه، لأن الأول قام على أساس التسليم بالارتباط بين مصر المستقلة والحليفة أمير المؤمنين لذلك لقي فى الأساس تشجيعاً من عاصمة الخلافة العثمانية بينما كان الثانى تعبيراً سياسياً عن صفوة من المصريين وملوك الأراضى ذوى الملكيات الزراعية المتوسطة بالإضافة إلى بعض المثقفين، والذين حصلوا درجات علمية من الخارج من أبناء العائلات الريفية وأعيان البلاد .

وقد جذبت التوجهات الوطنية الخالصة التى انتهجها سعد زغلول الأقلية القبطية إليه ومكنتها - ربما لأول مرة - من أن تصبح عنصراً فعالاً فى الحياة العامة المصرية والمشاركة فى صنع الأحداث السياسية لتلك الفترة .

ويهمنى أن أوضح أن الاهتمام بالجانب الدينى فى هذا الكتاب لا ينصرف إلى المعتقدات الروحية، ولكنه يهتم بها فقط من حيث هى أسلوب حياة، ونموذج ثقافة يؤدى إلى تركيب فكرى معين، وخلفية بذاتها تبدو واضحة فى تفاعلها واستجابتها وردود فعلها للآراء المختلفة والأحداث المتعددة، كما أنها تتدخل فى تحديد شكل العلاقة بين الفرد ومجتمعه فى مواجهة السلطة القائمة.

وهكذا فإن هذه الدراسة سوف تبحث فى عدة عناصر بعضها سياسى والبعض الآخر اجتماعى أودينى، كما أن هذا البحث لا يعتبر تاريخاً للأحداث على الرغم من أن التاريخ هو الذى يقدم خلفية الحقائق ومادة الأحداث.

إنها محاولة لتتبع دور الأقباط فى الحياة السياسية المصرية من خلال متابعة السياسى المصرى القبطى مكرم عبيد عبر مسيرة من العمل الوطنى والحزبى تمتد لقراءة ثلاثين عاما. كما أنها تسعى لدراسة دوره البارز فى الحركة الوطنية والذى اقترن بطموح فردى عظيم والتزم بالظروف المحيطة به وتجاوز حدود طائفته ليكون تعبيرا عن الوجود الشعبى للأقباط فى الحركة الوطنية المصرية الحديثة.

الفصل الأول

الأقباط : نظرة عبر التاريخ

الفصل الأول

الاقبساط: نظرة عبر التاريخ

نشأ تعبير « القبطى » من الكلمة العربية « قبط » التى هى بدورها مجرد مصطلح مختصر للكلمة اليونانية ايجيبتوس (المصرى) Agyptios .

لذلك ، فإن تعبير « الكنيسة القبطية » يعنى « الكنيسة المصرية » . وهو ينطبق على الكنيسة التى قام بإنشائها - طبقا للتقاليد والنواميس - القديس مارك المبشر - st. Mark The Evangelist فى الإسكندرية ، حيث استشهد فى ٢٥ ابريل سنة ٦٣ ميلادية ، وقد مضت قرابة المائة عام أو نحو ذلك ، وحتى عصر البطريك ديمتريوس ، سنة ١٨٩ ميلادية . ولا نكاد نعرف عن أولئك الذين شغلوا عرش القديس مارك ، سوى أسمائهم ^(١) .

وفى القرن الخامس ، لعبت الكنيسة المصرية - فى ظل القديس سريال st. CYRIL بطريك الإسكندرية - دورًا هامًا فى المجادلات التى شغلت الكنيسة فى ذلك الوقت ^(٢) .

وقد دارت تلك المجادلات - بصفة خاصة - حول الخلاف بين الأرثوذكس والكاثوليك ، إذ بينما الأرثوذكس يؤمنون بأن الروح البشرية (الإنسانية) للمسيح مندمجة مع طبيعته وجوهره المقدس ، يؤمن الكاثوليك ، بأن المسيح كان يمتلك الروح الإنسانية بينما كان على الأرض ، وأنه دخل جوهره المقدس فقط ، عندما صعد إلى السماء ، بعد أن تم صلبه ^(٣) .

وكان القديس ديوسكوروس - بطريك الإسكندرية - هو الذى قاد الأساقفة المحتشدين لاحتخاذ قرار حرمان القديس ليو - بابا روما - وعزل القديس فليفيان من الكرسي الأسقفى فى القسطنطينية ^(٤) .

(1) O.H. Khs. Burmester, *The Egyptian Coptic Church*, cairo, 1967, p 1

(2) Ibid., p. 2.

(٣) سلامة موسى (توبة سلامة موسى) - القاهرة ١٩٥٧ - ص ٩٦

(4) K.M. French, *The Modern Orthodox Church*, London, 1957 - p. 32

وبعد ذلك بعامين ، أثبت مسألة طبيعة المسيح مرة أخرى في المجمع المسكوني الذي عقد سنة ٤٥١ ميلادية . ودافعت الكنيسة المصرية ، تحت زعامة بطريركها ، القديس «سريال» عن الفيزيائية الواحدة المحسدة لكلمة الله ، معطية لتعبير «الفيزيائي» ، معناه الأولى الأساسى (الطبيعة) . بينا الكرسي الأسقفى (الأبرشية) القسطنطينية ، أقرت بالعقيدة التي أعلنها القديس ليو ، بابا روما . أى ، أن «الله الحقيقى ولد بالطبيعة الكاملة والمثالية لإنسان طبيعى ، مثالى فى طبيعته الخاصة (ألوهيته) ، ومثالى فى طبيعتنا (البشرية الإنسانية)»^(٥) .

وكان الانشقاق بين الكنيسة المصرية والكنيستين اليونانية واللاتينية كاملا فى ذلك الوقت ، وأيدت وتمسكت الكنيسة المصرية ، الوفة المخلصة لما آمنت بأنه تعاليم القديس سريال ، فيما يتعلق بطبيعة يسوع المسيح^(٦) .

وهكذا ظهرت إلى الوجود مجموعتان من البابوات وطاركة الإسكندرية. إحداهما تمثل الكنيسة المصرية القائلة بأن للمسيح طبيعة واحدة . والأخرى ، الكنيسة الأورثوذكسية اليونانية فى مصر التي تم تقليصها - بعد الفتح الإسلامى لمصر- إلى كنيسة غير ذات أهمية . وكان بطاركتها يقيمون ، بصورة طبيعية ، فى القسطنطينية ، وكان يمثلهم فى مصر patriarchal-Vicaro^(٧) .

ومن ذلك الوقت وحتى الفتح الإسلامى لمصر ، كانت البلاد مبهرجا للمدابع دموية ، وإراقة دماء ، ونزاع واضطهاد ، ناتج عن السياسة المعوجة وطفانيان أباطرة القسطنطينية ، الذين حاولوا فرض النظرية اللاهوتية الخاصة بالمجمع المسكونى ، بالقوة على تابعيهم غير اليونانيين ، الذين كانوا مؤمنين بصلاية ، بأن للمسيح طبيعة واحدة ، بهدف أن يضمّنوا بذلك وحدة الإمبراطورية وبقصد استمالة المسيحيين المصريين واسترضائهم ، أقدم الامبراطور هيراكليوس فى سنة ٦٣١ ميلادية ، على تعيين سايروس ليكون بطريرك الإسكندرية وكان سايروس قد اعتنق مبدأ التوحيد وآمن به ، لكنه عندما لم يمكنه استمالة المسيحيين المصريين واستهوائهم بسبب مسألة التوحيد ، باشر حملة اضطهاد عنيفة ضارية ، كان لها نتائج مصرية بالنسبة لوحدة الإمبراطورية^(٨) .

وفى عام ٦٤٠ ميلادية ، فتح عمرو بن العاص مصر وألحق الهزيمة بقوات الإمبراطورية فى

(5) O.H. Khs- Burmester, Op. cit, p. 3.

(6) Ibid., p.4.

(7) H.I. Bell, Egypt from Alexander the Great to the Arab Conquest, Oxford, 1948, p. 115.

(8) Ibid., p. 131.

معركة هيلوبوليس ، وفي السنة التالية استسلمت قلعة بابل ، وعندما لم تصل مساعدة من القسطنطينية ، جلت القوات الإمبراطورية عن الإسكندرية بعد عقد معاهدة ، وأبحرت عن المدينة في ١٧ سبتمبر سنة ٦٤٢ ميلادية .

والكنيسة القبطية ، تعتبر تجميعاً زمنياً حياً للأشكال القديمة للنصرانية^(٩) ، مما يؤيد ويدعم فكرة أن الكنيسة القبطية ، كنيسة أصيلة ذات طابع كلاسيكي ، والجانب الروحي للأقباط يظهر في تعاليم العقيدة الأرثوذكسية . فنذ البداية والأقباط الأرثوذكس يتمسكون بمذهب الوحدة الطبيعية والتوحيد ، أى ، طبيعة وجوهر واحد وإرادة واحدة للسيد المسيح ، ويؤمن قانون العقيدة القبطية بالثالوث المقدس Trinity ، لكن التوحيد غير المقسم هو السائد والمهيمن في عقيدتهم ، وتلك أمور قد يتم اعتبارها مسائل ثانوية غير ذات أهمية الآن ، لكنها تسببت في العصور القديمة في نشوب حروب ، وموجات اضطهاد فيما بين الجماعات المختلفة . وتعتبر الكنيسة القبطية في الجانب المحافظ للكنيسة المسيحية ككل . وتشتهر بشخصيتها المتحفظة ، مع النفور الواضح من التغيير .

ومنذ الفتح العربي لمصر المسيحية ، وسكان مصر يتكونون من عنصرين رئيسيين : المسلمون والأقباط ، ويشكل الأخيرون الآن حوالى ١٠٪ من المجموع الكلى للسكان ، ويوجد هناك - بالطبع - أقليات صغيرة جداً من المسيحيين غير الأقباط واليهود ، ودراسة تاريخ مصر المسلمة منذ الفتح العربي توضح أن سياسة الطبقة المسلمة الحاكمة تجاه الأقباط لم تكن مستقرة ، وبالتالى كانت السياسات والاتجاهات والقرارات معرضة للتغيير ، في أحوال كثيرة ، طبقاً للطبيعة الشخصية والمزاج السياسى للحاكم ،^(١٠) وقد حكمت مصر بحاكم كان يتم تعيينه في البداية من الخلفاء الراشدين بعد الفتح الإسلامى حتى عام ٦٦١ ، ثم عن طريق الخلفاء الأمويين حتى عام ٧٥٠ ، ثم بواسطة الخلفاء العباسيين بعد ذلك . ثم الخلفاء الفاطميين الذين أقاموا نظام حكم مباشر لحوالى قرنين من الزمان (٩٦٩ - ١١٦٩) .

وقد خضعت معاملة أهل الذمة في مصر - قبل الفاطميين - للتقلبات السياسية والاقتصادية التي مرت بها الدولة ، وكانت معاملة بعض الحكام للأقليات خشنه وقاسية إلى أن حدثت التغيرات

(9) H. Shenouda, Who are the Copts? Cairo, 1965 pp. 22 - 23.

(١٠) جاك تاجر ، أقباط ومسلمون ، القاهرة ١٩٥١ ، ص ٦٣ .

الواضحة تحت حكم الفاطميين الشيعة ، لأنهم ، كانوا - إلى حد بعيد - مستقلين عن الدولة السنية في بغداد ، حيث نشأت بينها علاقة منافسة سياسية ودينية ، ولم يكن في إمكان الفاطميين - طبقا لذلك - الاعتماد على تأييد المسلمين السنيين في مصر ، مما يفسر النفوذ المتزايد للعناصر غير المسلمة في العصر الفاطمي .

وعين الحكام الفاطميون عددا من غير المسلمين لتولى مناصب هامة في الدولة ، ومستشارين ووزراء ، وهذه الفترة من تاريخ مصر الإسلامية حافلة بالأحداث المتعلقة بمعاملة الدولة لأهل الذمة ، كما أنها شهدت تطورات كثيرة في هذا المجال ، وكان لكل حاكم فاطمي سياسته الخاصة في التعامل مع الأقليات ، ففي حين كان كثير من الخلفاء متسامحين جدا ، وواسع الأفق بصورة كبيرة ، كان الآخرون شديدي التعصب ومتحيزين ، يتخذون إجراءات عنيفة وقاسية ضد الأقليات بدون أى سبب قوى ومقنع ، ومثال ذلك الحاكم بأمر الله في بعض أطوار حكمه .

ومع ذلك ، فهناك نقطة هامة ، تبرز من أية دراسة عن الأقليات في تاريخ مصر الإسلامية ، فمعاملة الحكام لهم ، كانت تحكمها - في الدرجة الأولى - حاجة هؤلاء الحكام للأموال بسبب نفقاتهم المتزايدة ، ومن أجل الحصول على ذلك ، اضطروا إلى تنفيذ سياساتهم لجمع الضرائب أو « الجزية » ، ولم تقاس الأقليات غير المسلمة ، في الأساس ، بسبب التحيز الديني فقط ، ولكن من الضغوط المالية كذلك ، وكان الفاطميون في مصر يطمحون لتوسيع نطاق دولتهم ودعم هيبتهم ، ويهتمون ببناء المساجد والقصور ، والعيش بأسلوب مسرف ، لجعل القاهرة مركز جذب للمسلمين بدلا من بغداد ، عاصمة الدولة العباسية ، وكانوا في حاجة دائمة للمال ، وبالتالي يحتاجون إلى نظام إداري قوى لجمع الضرائب ، وتطوير وتنمية المصادر المالية للدولة ، وأثبت الأقباط أنهم قادرون على تولى تلك المهام ، وعلى استعداد للوفاء بها بكفاءة ، وعندما فقد الفاطميون كل الأمل في جذب السنيين إلى جانبهم ، وتأكدوا من إمكانية الاعتماد على الأقباط والتعويل عليهم ، وقدرتهم في تدوين الحسابات ، ووسائل جباية الضرائب ، أظهروا امتنانهم لهم بالتسامح تجاههم ، وتحسين أسلوب التعامل معهم^(١١) .

ويبرز غموض بعض النقاط المتعلقة بوضع الأقباط في الدولة الفاطمية ، من بعض الشائعات المسجلة في التاريخ القبطي ، ومثال ذلك ما يشاع من أن الخليفة الفاطمي الأول ، المعز لدين

(١١) حاك تاجر - المرجع السابق - ص ١٥١ .

الله ، ارتد عن الإسلام واعتنق المسيحية ، وتخلّى عن العرش قبل وفاته ، وأن الحاكم بأمر الله ، الذى يشاع أيضا أن أمه قبطية ، اختفى بعد أن أمضى الشهور الأخيرة من حياته مع الأساقفة ، وأنه كان يعيد بناء الأديرة والكنائس^(١٢) وباختصار ، يعتبر وضع الأقباط تحت حكم الخلفاء الفاطميين نقطة تحول فى تاريخهم .

وأثناء الحروب الصليبية ، أظهر الأقباط ، تحت حكم العباسيين ، قليلا من الحماس للأوروبيين ، بل لإنهم - على العكس من ذلك - اعتبروا هزيمة الصليبيين عقابا من الرب بسبب هرطقة الكنيسة الغربية^(١٣) . بل إنهم رفضوا ادعاء الصليبيين بأنهم إنما كانوا يحاولون حماية الأقليات المسيحية ، والأقباط من بينهم^(١٤) وقد كان الأقباط مرتبطين - بصورة طبيعية - ومتعلقين بشدة بأصلهم وجذورهم القديمة طوال تقلبات التاريخ الإسلامى ، ولم يفكروا فى الفرار من البلاد ، على الرغم من العنف الطارئ والمعاملة الجائرة التى عاملهم بها بعض الحكام حين كانت سطوة الحاكم المستبد تشمل المصريين جميعا أقباطا ومسلمين .

وكان وضع الأقباط - أثناء الحروب الصليبية - حرجا بسبب الخاصية الدينية للصدام ، والاشتباه فى الولاء والشكوك التى سادت الدولة الإسلامية تجاه الأقليات فى تلك الفترة ، وعلى الرغم من حقيقة أن الكنيسة القبطية لا تربطها صلات دينية قوية بالكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، وأن الأقباط لم يرحبوا بالصليبيين ، فإن بعض الأقباط قد راودتهم فكرة التعاون مع الصليبيين لإعادة إحياء دولة مسيحية فى مصر ، وقد خلفت الحرب الصليبية وراءها حساسية تاريخية بين الإسلام والمسيحية على الرغم من أنها كانت بداية الصلة الثقافية والانفتاح الحضارى بين الشرق والغرب .

ولم يتمتع الأقباط - تحت حكم المماليك (١٢٥٠ - ١٥١٧) - فى الحياة العامة بالامتيازات التى كانوا يتمتعون بها أثناء العصر الفاطمى ، وبالتالى فإنه يمكن أن نقرر بأن أحوالهم قد تدهورت ، وأنها لم تكن مستقرة وهادئة أثناء القرون الستة التى سبقت حملة نابليون ، ولكن لم تقع أحداث هامة - فيما عدا سياسة العزلة التى فرضها عدد من الحكام على الأقباط لإقصائهم عن الحياة العامة - ولقصر نشاطهم على مجال جمع الضرائب والنشاطات المالية وأعمال الحسابات

(١٢) جاك تاجر - المرجع السابق - ص - ١٥٢ (للطائفة الدرزية تسير مختلف لنهاية الحاكم بأمر الله) .

(١٣) جاك تاجر - المرجع السابق - ص ١٧١

(١٤) انظر أيضا حديث الأنبا شنودة - رئيس الكنيسة القبطية (الأهرام - ٩ فبراير ١٩٧٧) .

بسبب شهرتهم الخاصة في المهام المالية وبعض المناصب التنفيذية .
وأصبحت مصر ، سنة ١٥١٧ ، ولاية خاضعة للإمبراطورية العثمانية تحت حكم السلطان سليم الأول الذي بعث إلى استانبول بعدة آلاف من أمهر المصريين في كل المهن والحرف ، كان من بينهم عدد كبير من الأقباط^(١٥) وكانت أحوال الأقباط تحت الحكم العثماني خاضعة للسياسات المتنوعة لمندوبي السلطان في القاهرة ، فقد كانوا - على سبيل المثال - مطمئنين في ظل حاكم قوى هو على بك الكبير ، لكن حكاما آخرين قد طالبوا بمزيد من الأموال بإصدار قوانين ضرائبية جديدة خلقت معاناة عامة لدى الشعب المصري ، نال الأقباط جزءا منها بحكم تميز وضعهم المادى بالنسبة لباقي المصريين في ذلك الوقت. ويمكن ذكر عدد من الشخصيات البارزة من بين الأقباط الذين لعبوا دورا في الحياة العامة ، قبل ظهور مصر الحديثة ، مثل المعلم رزق الذي كان رئيسا للكنيسة الأقباط تحت حكم على بك الكبير ، وقد خلفه - بعد وفاته - المعلم إبراهيم الجوهري^(١٦) .

وقد تميز موقف الأقباط من الحملة الفرنسية برد فعل متحفظ تجاه سياسة نابليون ، فقد وصل إلى مصر ، مرددا الادعاء أنه قد قدم لمساعدة المسلمين ضد المماليك وتخليصهم من ظلمهم ، لأنه يحترم الإسلام كدين ، وكحقيقة تاريخية ، وقد اتهم الأقباط الفرنسيين بأنهم كانوا يبعثون التخلص منهم ، بالكف عن الاعتماد عليهم في جمع الضرائب ، ويبرر الكتاب الأقباط - الذين عالجوا ودرسوا تلك الفترة - نقدهم لسياسة نابليون ، مثلما يشكو ميخائيل في كتابه قائلا :
« لقد جاء نابليون في ١٧٩٨ إلى مصر غازيا ومعلننا نفسه في الوقت ذاته حاميا للإسلام مدافعا عنه »^(١٧) .

وبعد ثورة القاهرة ضد الفرنسيين ، تغير موقف الفرنسيين من الأقباط ، كمحاولة منهم لكسبهم إلى جانبهم ، وعندما طلب ثوار القاهرة الأمن والسلام ، وافق كليبر على طلبهم ، لكنه قرر فرض ضريبة إضافية على جميع السكان ، باستثناء الأقباط والسكان غير المسلمين الآخرين^(١٨). وهناك نقطة هامة ، لم يتم حتى الآن دراستها بصورة مرضية : وهي التي تتعلق

(١٥) ابن لباس - (بدائع الزهور في وقائع الدهور) - القاهرة - ١٣١١ هـ ، مجلد ٣ ، ص ١٤٩ .

(١٦) الجبرتي أورد ذكر وفاة المعلم الجوهري ، وعبر عن تقديره له ، ووصف جنازته في ١٧٩٧ في كتابه (عجائب الآثار في التراجم والأخبار) الذي نشر في القاهرة ، ١٣٢٢ هـ .

(17) K. Mikhail, *Copts and Muslims under British Control*, London, 1911, p. 10.

(١٨) نفولا ترك (تاريخ الحملة الفرنسية) - القاهرة - بدون تاريخ - ص ٨٩ ، ٩٠ .

بالتعاون العسكرى بين الأقباط والغزاة الفرنسيين ، والمعروفه باسم « حركة الجنرال يعقوب » أو الفيلق القبطى ، حيث تعاونت مجموعة من شباب الأقباط بقيادة المعلم يعقوب مع الفرنسيين إلى حد أن اتخذوا لأنفسهم زيا عسكريا مماثلا للزى العسكرى الفرنسى^(١٩). ولكن معظم الأقباط عارضوا سياسة الجنرال يعقوب ، وأدانوها فى مناسبات كثيرة ، كما أن الجنرال يعقوب لم يكن على علاقات طيبة مع البطيركية القبطية حتى لقد أشيع أنه دخل يوما الكنيسة ممتطيا جواده شاهرا سيفه^(٢٠). ومن ناحية أخرى ، يرى عدد من الكتاب الأقباط فى حركة الجنرال يعقوب ، أسلوبا وطنيا من نوع خاص ، وينظرون إلى محاولة يعقوب باعتبارها المحاولة المصرية الأولى من أجل تحقيق الاستقلال عن السيادة التركية^(٢١).

ويعتبر القرن التاسع عشر ، ومحىء الحملة الفرنسية إلى مصر مرحلة انتقال من أوضاع القرون الوسطى فى الفكر والسياسة إلى بداية دولة عصرية فى مجال الزراعة والصناعة والإدارة الحديثة ، وفى مجال التعليم أيضا بحيث يمكن اعتبارها المولد الحقيقى للقومية المصرية ، وتحديد شخصية المجتمع المصرى الحديث. ولما كان محمد على يسعى إلى الاستقلال عن الامبراطورية العثمانية فقد أولى الشخصية المصرية اهتمامه ، وشجع إرهابات القومية المصرية التى كانت فى الواقع ميلاد الدولة العلمانية فى مصر الحديثة ، وبقدر ماحاول محمد على الاعتماد على العنصر المصرى فى مشروعات وخطط دولته من أجل خلق الدولة العصرية ، فقد تأثرت سياسته تجاه الأقباط بصورة متوازية ، مثال ذلك أنه لم يرفض قط أى طلب من أجل بناء كنيسة جديدة^(٢٢) ، وكان أول حاكم ينعم بلقب بك على قبطى ، كما أنه منح الأقباط - علاوة على ذلك - جميع التسهيلات الضرورية للحج إلى الأراضى المقدسة .

وعندما تولى سعيد باشا السلطة فى البلاد ، اعتمد سياسة تقوم على الاعتماد أكثر على العنصر المصرى ، وخاصة « الفلاحين » ، وهى لهم فرص تولى مناصب فى الحكومة والترقى بالجيش ،

(١٩) الحبرى - (مرجع سابق) - المجلد ٣ ، ص ١٦٢ .

(٢٠) طارق البشرى ، « أحمد والمسيح » - مقالات فى مجلة الكاتب ، العدد ١٠٧ - القاهرة - ١٩٧٠ (انظر أيضا حاك تاجر - المصدر نفسه ، ص ٢٢١)

(٢١) سلامة موسى ، فى مقال له بمجريدة « مصر » ، ٢٦ نوفمبر ١٩٤٦ . لويس عوض ، فى محاضراته بمعهد الدراسات الدبلوماسية - القاهرة ١٩٦٩ ، ولزيد من التفاصيل عن الفيلق القبطى بقيادة يعقوب انظر :

O.F.A. Meinardus, christian Egypt, Faithand Life, Cairo, 1968, pp. 14-16.

(٢٢) جاك تاجر ، مرجع سابق ، ص ٢٣٢ .

وكان يرغب في الحد من المشاركة التركية في جميع المجالات ، وأزاح - في النهاية - العقبة الأخيرة لتوحيد المجتمع المصرى وتحقيق تكامله ، عندما قرر السماح للأقباط بالخدمة العسكرية في الجيش المصرى ، وألغى - في الوقت نفسه - في سنة ١٨٥٥ ضريبة « الحزبة » على غير المسلمين (٢٣) .

وكان المواطنون الأقباط ، من ناحيتهم ، يعيدون تشكيل منظماتهم وهيئاتهم ويرفعون من أحوالهم بإنشاء المدارس الحديثة ، كنتيجة لمشروع إصلاح الطائفة القبطية الذى يرتبط بالبطريرك سريال الرابع (١٨٥٤ - ١٨٦١) ، الملقب بأنه « أب الإصلاح » ، وقد كان لحركة الإصلاح التى قادها على أنها محاولة لرفع مستوى تعليم رجال الدين الأقباط عموما جذورها في عصر ساقى ، ففى سنة ١٨٤٣ ، قام عدد قليل من مبعوثى جمعية الكنيسة التبشيرية Church Missionary Society التى كان لها نشاط فعال في مصر ، بتحويل معهد لاهوتى تعليمى ، أنشئ سنة ١٨٣٣ ، إلى معهد قبطى .

ونظم البطريرك سريال الرابع البطريركية وقسمها إلى إدارتين : تهتم إحداهما بالأوقاف القبطية ، والأخرى بالمسائل الدينية والروحية ، وأدى سريال بإنشائه مدرسة مجاورة للكاتدرائية ، أعظم خدمة وأكثرها بقاء ودواما للأقباط . فقد كان لدى الأقباط - قبل ذلك الوقت - نظام تعليم بدائى ، يقوم على المدارس الريفية الصغيرة المشابهة « للكتاتيب » . فكانت مدرسة سريال (مدرسة الأقباط الكبرى) أول مدرسة تؤدي دورها على أصول وأسس تربوية سليمة (٢٤) .

وجذبت المدرسة عددا متزايدا باستمرار من التلاميذ ، ووجد سريال أنه من الضروري لإنشاء مدرسة مماثلة في منطقة قبطية هي « حارة السقاين » ، وتخرج من هاتين المدرستين الكثيرون ، وهم الذين كان عليهم أن يلعبوا دورا هاما في المجتمع القبطى ، والمجتمع المصرى ككل مثل بطرس غالى باشا رئيس الوزراء ، والسياسى المؤرخ ، ميخائيل عبد السيد ، مؤسس الصحيفة القبطية « الوطن » . كما أنشأ (سريال) أيضا مدارس للفتيات القبطيات (٢٥) . وتطلب هذا النشاط التعليمى - بفروعه الدينية والمدنية - استخدام الكتب ، وكانت المعرفة - حتى ذلك الوقت - حبيسة مخطوطات مكتوبة بخط اليد بالية وملينة بالأخطاء ، فعالج (سريال) هذا الوضع بأن

(٢٣) جاك تاجر مرجع سابق ، ص ٢٣٨ .

(24) S.M. Seikaly, The Copts Under British Rule, 1882 - 1914, Unpublished thesis, London University, 1967, p. 35.

(٢٥) ايريس المصرى ، « تاريخ الكنيسة القبطية » ، ١٥١٧ - ١٨٧٠ ، جلد ٤ ، القاهرة ، ١٩٧٥ ، ص ٣٤٣ .

استورد أول مطبعة مصرية خالصة ، وتم الترحيب بها بإقامة حفل استقبال ديني رسمي ، لكن البطريك لم يتمكن من توجيه الاستفادة بها طويلا بسبب وفاته بعد ذلك بقليل ، وترتبط الوفاة المفاجئة للبطريك سريال في أذهان الكتاب الأقباط ، باستياء سعيد باشا من العلاقة الوثيقة التي كانت تربط ما بين البطريك ورؤساء الكنائس اليونانية والأرمنية الأرثوذكسية ، ولسعيه من أجل تحقيق الوحدة بين الأقباط والفروع المختلفة للكنيسة الأرثوذكسية ، ثم تصوير سريال على أنه كان يوى وضع الكنيسة القبطية تحت الحاية الأجنبية ، والروسية بالتحديد ، والقول الشائع أن سعيد باشا ، قد استاء من ذلك الاتجاه وأمر بقتل سريال بالسم^(٢٦) .

وقدم إسماعيل باشا - الذى كان يحمره هدفه لجعل مصر الحديثة قطعة من أوروبا - تأييده ودعمه المالى للمدارس القبطية . وعين عددا من القضاة الأقباط في المحاكم . وأعطى الأقباط سنة ١٨٦٦ الحق في أن يصبحوا أعضاء في مجلس شورى النواب ، أول برلمان مصرى ، ومنذ ذلك الوقت طهر إلى الوجود ما يمكن أن يسمى بالأمة المصرية ، بالمفهوم الحديث . لتشرق وتميز بين المصريين المسلمين والأقباط ، من ناحية ، والأجانب الآخرين مثل الأتراك والأرمن من ناحية أخرى^(٢٧) . وأنعم إسماعيل باشا - على سبيل المثال - بلقب الباشوية ، على أول مسيحي يحملها وهو الأرمني نوبار^(٢٨) .

وبعد وفاة سريال بعدة سنوات ، ساد الفساد مجال النشاطات التعليمية القبطية ، وعند وفاة خليفته ديميتريوس ، آلت أمور الطائفة القبطية إلى النائب الأسقى العام ، وقامت مجموعة من الأقباط بتكوين «جمعية إصلاح» لتابعة الإصلاح الطائفي ، ومن أجل تحقيق إشراف أفضل على المسائل التي تهم الأقباط . وقدمت الجمعية مذكرة إلى الأسقف مارك أسقف الإسكندرية تطالبه فيها بقيام الكنيسة بمساعدة الفقراء ، وتقديم المعونة والدعم للتعليم القبطي ، وأبدى رجال الدين المسيحي (الكليروس) الذين كانوا لا يواجهون أى تحد في ذلك الوقت . قلقا شديدا من هذا الاعتراض ، واحتجوا ضده لدى الحكومة ، ويبدو أن الحكومة كانت تشعر بقلق - إلى حد ما - من إنشاء الجمعية . إلا أن هذا لم يؤثر في الأعضاء الذين طالبوا بإنشاء (مجلس ملى) للمساعدة في تدبير وإدارة الشؤون المدنية للأقباط .

(26) S.M. Seikaly, op. cit. p. 37.

(٢٧) صبحى وحيد ، في أصول المسألة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٠ - ص ٢٢٧ .

(٢٨) جاك تاجر ، ص ٢٢٧ ، ص ٢٤٢ .

وساند الأسقف مارك بتأييد واستحسان من بعض رجال الدين الاقتراح والتمس من الحكومة - طبقا لذلك - التعاون لإنشاء المجلس. وقام بكتابة الالتماس شخصية قبطية صاعدة هي بطرس غالى^(٢٩) وتضمنت وثيقة الالتماس ، توسلا للخديوى إسماعيل الذى وصفته بأنه راعى ونصير التقدم والحضارة ، بأن يوافق على إنشاء المجلس الملى ، الذى سوف يساعد رجال الدين فى دفع عجلة الإصلاح فى المجتمع القبطى ، وفى ١٥ فبراير ١٨٧٤ صدر مرسوم خديوى يقضى بإنشاء هذا المجلس الذى تم تكوينه من إثني عشر عضوا منتخبين ومثلهم معينين .

ووقفت الكنيسة القبطية فى وجه النشاطات التبشيرية البروتستانتية التى مارسها الأمريكيون والبريطانيون بإقدامها على إنشاء مزيد من المدارس المصرية القبطية ، وقد واجهت مصر الحديثة موجتين من البعثات المسيحية الأجنبية فى القرن التاسع عشر أولها كانت من بريطانيا بعد هزيمة نابليون ١٨٢١ ، والأخرى من الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٨٥٤ ، وقد نجح الأمريكيون فى استمالة عدد قليل من الأقباط وأشأوا منهم كنيسة مسيحية صغيرة ، وقد واجهت هاتين البعثتين معارضة عنيفة من الكنيسة القبطية التى دافعت بغيرة وحرص عن شخصيتها المتميزة^(٣٠) ، ويمكن تبرير موقف الكنيسة القبطية ضد المبشرين المسيحيين الأجانب فى ضوء الاقتناع والإيمان الراسخين لدى الأقباط بأنهم شعب فريد يمتلك تاريخا خاصا ، ومع ذلك ، فإن أكثر العوامل أهمية فى تعزيز وتقوية الانطباع الدافى للأقباط ، كان اكتشاف الماضى ، فقد أدى تطور اكتشاف مصر الفرعونية وعملية إلقاء الضوء على روعة الحضارة المصرية القديمة إلى تجميع شمل الأقباط كى يعثروا على هويتهم الحقيقية كمصريين ذوى تاريخ طويل .

وتتوفر لدينا عن الحياة القبطية - أثناء القرن التاسع عشر - تفاصيل كثيرة تتركز جميعها حول حقيقة أن عملية إضفاء العصرية على الحياة فى مصر ، وتحديث الدولة ، والتى بدأت أثناء الحملة الفرنسية ، تمت وتطورت فى عهد محمد على وخلفائه . أثرت بصورة عظيمة على حياة الأقباط ودورهم فى مصر . ومن ذلك أن محمد على عين بعضهم مثل المعلم جرجس الجوهري والمعلم غالى ، فى مناصب حكومية رفيعة ، ومنحهم سعيد باشا حق الالتحاق بالخدمة العسكرية ، وأصدر «اللائحة السعيدية» الشهيرة التى أعطت للفلاحين حق امتلاك الأراضى .

(29) S.M. Seikaly, op. cit, p. 42.

(٣٠) د. وليم سلبان «الكنيسة المصرية تواجه الاستعمار الصهيونية» ، القاهرة ١٩٦٩ . ص ٢٣ - ٣٢ .

وتظهر دراسات تاريخ ملكية الأراضي في مصر الحديثة أن الأقباط كان لهم وضع خاص في ذلك المجال منذ عهد محمد علي . ففي أوائل عام ١٨٤٦ امتلك باسيلوس بك ابن المعلم غالى . عددا من الضياع في الدلتا ، كانت مساحة إحداها ألقي فدان من الأراضي ، وفي عام ١٨٧٠ ورد في بعض الكتابات ذكر مالك أراضي قبلي كبير اسمه بطرس أغا . كان يمتلك أكثر من ألقي فدان بالقرب من جرجا . وكان يرعى خيولا وماشية وأغناما على نطاق واسع .^(٣١) واستثمر عدد من الأقباط الأثرياء من مصر العليا رموس أمواهم في الأراضي والمزارع في الدلتا . وهي المنطقة المتطورة المتقدمة في ذلك الوقت ، فامتلك تاجر قبلي هو جرجس اسطفانوس - من مصر العليا - على سبيل المثال ، أكثر من ألقي فدان بالقرب من مدينة أجا . وبعض المناطق الأخرى ، وقام بتركيب كثير من مضخات الري على ترعة المنصورة ، واشترى محلجا للقطن ، ومصرة لقصب السكر ، وبنى قصرا تحيطه حديقة في قريته^(٣٢) . وكان عدد من الأقباط من مالكي مضخات الري في مصر السفلى (الوجه البحري) خصوصا في المنوفية والدقهلية (حوالي ٩٪ في كل منها) . وعدد أقل إلى حد ما في الغربية (٤.٢٪) . وفي عام ١٨٩١ كان عدد قليل من العائلات القبطية التي تمتلك ضياعا في مصر العليا يأتون في المرتبة الرابعة بين أكثر الجماعات أهمية بالنسبة لمساحة أملاكها من الأراضي (بعد الدولة . وعائلة محمد علي . وطبقة كبار الموظفين) ويركز عدد من الكتب التي صدرت في بداية القرن الحالى على أهمية الأقباط بصفتهم كبار ملاك أراضي في مصر العليا^(٣٣) . وبالإضافة إلى ملكية الأراضي القبطية كأفراد توجد أيضا الأوقاف القبطية .

وحيث أن نظام الوقف الإسلامى يسمح لأبناء الطوائف الدينية الأخرى الذين يعيشون في دول مسلمة (أهل الذمة) بتحديد أوقاف على أغراض يحدونها . ووفقا لذلك قامت بعض الأقليات المسيحية بإنشاء أوقاف لصالح معاهدهم الدينية ، فتم وقف مساحات كبيرة لمساعدة البطريركية الأرمنية . وأخرى للكاتوليك اليونانيين ، إلا أن المنح والأوقاف الضخمة الكبيرة كانت تخص الطائفة المسيحية الرئيسية وهي الأقباط الأرثوذكس^(٣٤) .

وقد ورد في تقرير قدمه «المجلس الملى العام للأقباط الأرثوذكس» عام ١٩٠٦ ، أن كنائسهم

(31) G. Baer, A History of Landownership in Modern Egypt. 1800 - 1950, Oxford, 1962, p. 63.

(32) Ibid, p.63.

(33) Ibid, p. 37.

(34) Ibid, p. 37.

(35) Ibid, p. 179.

وأديرتهم كانت تمتلك حوالى ١٥ ألف فدان من الأراضى ، وأن المساحة الكلية للأوقاف القبطية التى كانت تخص الأديرة والبطريركية ، بلغت ٣٢ ألف و ١٢٤ فداناً ، وأنه لمن الصعب بمكان التوصل إلى تقييم دقيق فيما يتعلق بتطور الأوقاف القبطية ، فقد كان هناك صراع مرير تدور رحاه طوال ثمانين عاماً بين رجال الدين الأقباط . والرهبان . والمجلس الملى ، حول موضوع إدارة الأوقاف القبطية ، وكان أحد الأهداف الواضحة التى من أجلها أنشئ المجلس الملى عام ١٨٧٤ هو أخذ مسئولية إدارة الأوقاف من رجال الدين ، الذين كانوا ما يزالون يديرون شئونه حتى ذلك الوقت (٣٦) .

وقد كان للملكية الأراضى القبطية تأثيرها على دورهم وأهميتهم الاجتماعية فى مصر الحديثة ، وبعد ذلك بفترة من الوقت ، عين الخديوى إسماعيل أقباطاً فى السلك القضائى ، وفتح أمامهم الطريق ليصبحوا أعضاء فى البرلمان ، وقد ساعدت تلك التطورات الأقباط - ربما لأول مرة - منذ الفتح الإسلامى العربى . لدخول الحياة العامة ، وأن يصبح لهم دور فعال على مسرح الحياة السياسية . ويمكن القول أن محمد على وخلفاءه قد خلصوا الأقباط من بعض مظاهر الماضى ، وهبأوا لهم فرصتهم الأولى لإبراز دورهم فى الحياة العامة (٣٧) .

ويتعين هنا تأكيد عامل هام يتعلق بتقييم الأقباط فى القرن التاسع عشر ، ألا وهو نمو التعليم القبطى ، فقد كان للكنيسة القبطية حركة موازية لحركة الإصلاح التعليمى فى الدولة منذ عصر محمد على والتى كان من أبرز روادها رفاعة رافع الطهطاوى وعلى باشا مبارك ، وكانا قد تأثرا بالحضارة الغربية . وكانا يعتقدان بأن تقدم مصر يكمن فى طريق واحد ، هو تطوير نظام التعليم . وفهم نظام الحياة الأوروبية ، وقد ولد رفاعة الطهطاوى سنة ١٨٠١ ودرس فى الأزهر - وهو الأساس التعليمى المألوف للمفكرين المصريين من أجل تحصيل الثقافة والمعرفة حتى نهاية القرن التاسع عشر - ثم اختير الطهطاوى «إماماً» لأول بعثة تعليمية إلى فرنسا سنة ١٨٢٦ ، وعاد إلى مصر وهو متأثر بطريقة الحياة المتقدمة فى أوروبا ، وبالطابع العصرى فى جميع المجالات . ووصف انطباعاته فى كتابه الشهير «تخليص الأبريز فى تلخيص باريز» (٣٨) ، وأنشأ مدرسة للغات

(36) Ibid, pp. 179 - 180.

(37) K.H. Howrani, Minorities in the Arab World, Oxford, 1947, p. 45.

(٣٨) انظر: الشيال . رفاعة الطهطاوى (١٨٠١ - ١٨٧٣) القاهرة . ١٩٥٨ . ص ٢٥ .

الأجنبية «مدرسة الألسن» ، وأولى اهتماما خاصا لحركة ترجمة الكتب الأوروبية إلى العربية^(٣٩) .

ويعرف على مبارك بأنه أبو التعلم ، وقد ولد في سنة ١٨٢٤ وسافر إلى فرنسا في بعثة تعليمية سنة ١٨٤٤ ، وبعد عودته إلى مصر ، أنشأ «مدرسة المهندسخانة» كما تولى تنفيذ برنامج التعليم في أيام عباس باشا ، وفتح مدارس كثيرة بمستويات عدة ، وفي مجال تخصصات مختلفة ، ونشر كتابه الشهير «الخطط التوفيقية» ، كدائرة معارف محلية ، وأصبح ناظرا للمعارف سنة ١٨٨٨ ، منتزعا تلك الفرصة لمواصلة مجهوداته من أجل الإصلاح التعليمي^(٤٠) والطهطاوى ومبارك ، هما رائدا إضفاء الطابع العصري على مصر في القرن التاسع عشر ، ويمثلان جيلا أكبر بالنسبة لمحمد عبده وجماعته ، وكانت مساهمتها – بدون أدنى شك – ذات قيمة عظيمة لكل من المسلمين والأقباط في إبراز الشخصية الثقافية لمصر الحديثة ، وتعتبر المشاركة السياسية والاجتماعية للأقباط في الحياة العامة بمثابة إعلان لمولد الدولة العلمانية في مصر ، وقد درس في المدارس القبطية جيل من الأقباط والمسلمين ، كان من بينهم مجموعة من السياسيين وزعماء الرأي العام المصري ومنهم اثنان من رؤساء الوزارات تخرجوا من المدارس القبطية هما عبد الخالق ثروت ، وحسين رشدى .

وقد ترقب الأقباط وصول قوات الاحتلال البريطاني بحذر ، وفي صيف سنة ١٨٨٢ ، أنزل البريطانيون قواتهم في الإسكندرية ، ومالبثوا بعد ذلك أن ألحقوا الهزيمة بالقوات المصرية بقيادة عرابي ، في معركة التل الكبير ، ورحب بعض الأقباط – الذين توقعوا قدوم عهد جديد من الحرية – بقدوم البريطانيين الذين يتشبهون لأمة مسيحية. وأدى الاضطراب الاقتصادي وعدم الاستقرار والفوضى – تحت حكم إسماعيل وتوفيق – وإعلان بعض الدعاة المسلمين أن الإسلام في مصر يهدده الخطر بسبب تزايد المشاركة القبطية في المناصب الحكومية ، إلى جعل الأقباط يتخذون موقفا وديا تجاه وصول البريطانيين^(٤١) .

وأظهر الإحصاء الرسمي للسكان لسنة ١٨٩٧ ، أنه كان يوجد في مصر ٦٠٨ ألف قبطي في

(٣٩) انظر حسين فوزى النجار : رعاة الطهطاوى ، رائد فكر وأمام نهضة القاهرة . ص ١٥٤ .

(٤٠) حسين فوزى النجار . «على مبارك» . أبو التعلم . القاهرة . ١٩٦٧ ص ٨٨

(41) A.J. Arberry, Religion in The Middle East, Cambridge, 1969, Vol. 1, Chapter 8, p. 433 .

ذلك الوقت . قليلون منهم كانوا كاثوليك ، وعدد أقل من البروتستانت . لكن العدد الأكبر كان ينتمي إلى الكنيسة القبطية الأرثوذكسية^(٤٢) .

ولم يشعر الأقباط بارتياح لفترة طويلة بعد الاحتلال البريطاني ، وكان السبب الرئيسي هو الموقف المخيب للآمال الذي اتخذته البريطانيون ، وخاصة كرومر ، تجاه الأقباط – قبل ثورة ١٩١٩ – بصفة خاصة ، وكانت الفترة ١٨٨٢ حتى حوالي ١٩١٩ ، فترة حاسمة في العلاقات بين المسلمين والأقباط . وكان هذا راجعاً إلى عاملين رئيسيين : – الطابع الإسلامي للحركة الوطنية المصرية ، بقيادة الحزب الوطني . بعد إخفاق عرابي ، عند نهاية القرن بصفة خاصة ، فقد اعتقد الزعماء الوطنيون المصريون أن سياسة إعادة السيادة التركية إلى مصر إلى ما كانت عليه في السابق يعد سلاحاً في متناول أيديهم ضد البريطانيين^(٤٣) . ويرى بعض المؤرخين أن الحزب الوطني لم يكن يعمل – في الواقع – من أجل إنشاء دولة إسلامية شاملة ، ولا كان يرغب كذلك في إعادة السيادة التركية إلى ما كانت عليه في مصر – على الرغم من التأييد التركي لمصطفى كامل – بل حاول الحزب فقط استغلال العلاقة مع تركيا في الكفاح ضد البريطانيين .

أما العامل الثاني – فكان التنافس الذي نشب بين المسلمين والأقباط حول التعيينات لمناصب الدولة ، وخاصة عند بدء الاحتلال البريطاني ، ويشير قرياقوص ميخائيل – الممثل البارز للأقباط في لندن حتى وفاته سنة ١٩٥٦ – هذه النقطة قائلاً : إن الظلم الذي لحق بالأقباط يعتبر مسألة جديدة على مصر الحديثة . حيث يذكر في كتابه أنه يقال في كثير من الأوساط أن الأقباط توقعوا المحاباة من البريطانيين – بحكم انتماء كليهما للمسيحية – والحقيقة أن الأقباط – كما يستطرد قرياقوص ميخائيل – لم يتظفروا أية معاملة خاصة من بريطانيا بسبب الدين ، وأن كل ما توقعوه هو العدل والمساواة مع غيرهم من المصريين ، والواقع الذي حدث أنهم – أي الأقباط – قد فقدوا كثيراً من المواقع التي

(٤٢) تشير إحصاءات السكان إلى ثبات هذه النسبة تقريباً حتى سنة ١٩٤٧ ، كان سكان مصر يتكونون من ١٧٣,٩٩٧,٩٤٦ مسلم (٩١,٤٦٪) ، و ١,١٨٦,٣٥٣ قبطي أرثوذكسي ، و ٨٦,٩١٨ قبطي بروتستانتي ، و ٧٢,٧٦٤ قبطي كاثوليكي روماني ، و ٨٩,٠٦٢ أرثوذكسي آخرون ، و ٥٠,٢٠٠ كاثوليك رومان آخرون ، و ١٦,٣٣٨ بروتستانت آخرون ، و ١,٥٤٧ آخرون غير معروفين .

The Statesman's Year Book (Statistical and Historical Annual of The States of World for The Year 1969/1970) p. 1450.

(٤٣) طارق البشري ، مرجع سابق ، رقم ١٠٧ – القاهرة – فبراير ، ١٩٧٠ .

كانوا يمثلونها في الإدارة الحكومية مع قدوم الانجليز في ١٨٨٢^(٤٤) .

ولعل تقييم لورد كرومر للأقباط هام وذو مغزى ، إذ يقول في كتابه : « إن القبطى قد أصبح من فقه رأسه إلى أنحص قلمه في عاداته ولغته وروحه كالمسلم تماما »^(٤٥) وقد نشر لورد كرومر آراءه بالتفصيل بعد ذلك عن موقف الأقباط تجاه البريطانيين ، « حيث شعروا - الأقباط - بخطر المنافسة مع المسيحيين الشوام الذين يلقون تأييدا من الإدارة البريطانية في القاهرة »^(٤٦) .

ولا يمكن إنكار مساهمة السوريين في دعم وتقوية النزعة والاتجاه الثقافى في مصر الحديثة ، فقد ساعدوا في صياغة الليبرالية العلمانية في مصر ، ومن الممكن أن نورد بعض الأمثلة على دورهم النشط الفعّال في المجالات والميادين المختلفة ، مثل الإنتاج الأدبى العربى ، والصحافة ، والحركة المسرحية ، وكتب جورجى زيدان ، مؤسس دار الهلال ، روايات تاريخية كثيرة مشهورة ، تتعلق بالعصر الإسلامى ، وأصدر فرح أنطون مجلة « الجمعية » ، كنافذة على الحياة الغربية ، وكان يعقوب صروف رئيس تحرير « المقطم » ، يهتم بالدراسات العلمية التى كان يسطها للقارئ العربى ، وأولى أمين معلوف مزيدا من الاهتمام لعلم اللغة ، وهناك عديد من السوريين الذين كانوا روادا في مصر الحديثة خصوصا في مجالات الكتابة والصحافة والمسرح^(٤٧) ، وكان معظمهم مسيحيين من لبنان ، حيث لم يكن ميلاد الليبرالية العلمانية في مصر نتاج تكوين الأحزاب السياسية المصرية في مطلع هذا القرن فقط ، ولكن أيضا كان لدور السوريين - وأغلبهم من المسيحيين - تأثيره في دعم ذلك التيار^(٤٨) كذلك كانت الدوريات التى أصدرها الكتّاب الشوام مصدرا للإشعاع الفكرى والأسلوب العلمى ، ونذكر في ذلك المجال - على سبيل المثال - مجلتي الهلال والمقتطف^(٤٩) .

وكان الأقباط - في هذه الظروف السياسية والاقتصادية - مشغولين في التفكير مليا في مستقبلهم بدلا من حاضريهم ، خاصة وأنهم كانوا قلقين على مشاركتهم في الحكومة المصرية ، وفي سنة ١٩٠١ ، بعث سير الدون جورست - المندوب السامى البريطانى ، بتقرير إلى حكومته يعلن

(44) K. Mikhaill, op. cit., p. 20.

(45) Cromer, *Modern Egypt*, Vol. 11, Cairo, 1908, p. 203.

(46) *Ibid*, p. 209.

(٤٧) سلامة موسى ، مرجع سابق ، ص ٢١٧ - ٢٢٠ .

(48) P.J. Vatikiotus, *The Modern History of Egypt*, London, 1969, p. 205.

(49) J.M. Ahmed, *The Intellectual Origins of Egyptian Nationalism*, Oxford, 1960, p. 32.

فيه أن الأقباط - الذين يمثلون أقل من عشر العدد الكلى للسكان - يشغلون ٤٥,٣٢ ٪ من المناصب . وأنهم يتقاضون ٤٠ ٪ من مجموع المرتبات ، بينما المسلمون يتقاضون ٤٤ ٪ ، و ٦ ٪ يتقاضاه الآخرون^(٥٠) . ويعكس ذلك التقرير موقف جورست تجاه الأقباط لأنه كان دائما ما يتهم بأنه « يظهر تعاطفا أكبر تجاه المسلمين »^(٥١) .

وأية دراسة للأرقام الخاصة بتوزيع الثروة في مصر عند نهاية القرن التاسع عشر ، سوف تكشف النقاب عن عامل هام ذى مغزى في تقييم الحياة القبطية في ذلك الوقت . فقد كانوا يملكون خمس الأراضي الزراعية والمباني ، بالإضافة إلى ما كانوا يملكونه في البنوك^(٥٢) ، ومع أنهم كانوا يمثلون ٦ ٪ من سكان مصر . فقد كانوا يدفعون ١٦ ٪ من ضرائب الأراضي الزراعية^(٥٣) . مما يعنى أنهم كانوا يتمتعون بوضع اجتماعى أفضل نسبيا من بقية المصريين ، كما أن هذا يفسرويه ر - في الوقت نفسه - النهضة والارتقاء في مستوى تعليمهم .

وقد بدا الخديوى عباس حلمى - أثناء الأيام الأولى لحكمه - وكأنه الزعيم الذى كان الوطنيون يتطلعون إليه ، فقد شجع القيادات الوطنية ، وأبدى اهتماما بالمتقنين المصريين خصوصا الشبان منهم ، وقد أثارت صلات الخديوى بالحركة الوطنية شكوى كرومر ، إذ كان مقتنعا بأن عباس قد يشجع الوطنيين لأغراضه الخاصة ، وأن ذلك يعتبر منه تصرفا غير شرعى^(٥٤) . وتغير موقف عباس تجاه الوطنيين كلية بعد ذلك خصوصا عندما أصبحت له حرية التصرف في أراضي الأوقاف ، على الرغم من معارضة الشيخ محمد عبده ، واتجه الخديوى إلى التقرب من المندوب السامى البريطانى الحدييد سير الدون جورست^(٥٥) . ولاحظ الأخير أن نمو الروح الوطنية قد تسبب في معاداة كرومر للمسلمين المصريين . مما أجبره على السعى إلى تأييد الجاليات الأوروبية والمسيحيين المحليين^(٥٦) .

(٥٠) جاك تاجر ، مرجع سابق ص ٢٤٨ .

(51) Gorst's Papers, Autobiographical Note, p. 121.

(٥٢) طارق البشرى ، مرجع سابق ، الكاتب . عدد ١٠٧ . القاهرة . ١٩٧٠ .

(53) C. Issawi, Egypt, An Economic and Social Analysis, Oxford, 1947, p. 34.

(54) A.L. Al-Sayyid, Egypt and Cromer, London, 1968, pp. 145 - 148.

(٥٥) سلامة موسى . المصدر نفسه ، ص ٦٦

(56) W. Kazziha, The Evolution of the Egyptian Political Elite, 1907 - 1921, Unpublished thesis, Uneversity of London, 1970, p. 101.

وفى كتابه أوضح «ويمان» المفتش العام للآثار المصرية القديمة لدى الحكومة المصرية وجهة نظره فى سياسة الحكومة تجاه الأقباط فى ذلك الوقت قائلا : «لما كانت غالبية الشعب المصرى من المسلمين ، ولما كان الاحتلال الذى تعمل ضده الحركة الوطنية ، مسيحياً ، فقد أصبح من الضرورى - سياسياً - بالنسبة للوطنيين ، استخدام واستغلال هذا الاختلاف الدينى كأحد البنود الرئيسية لبرنامجهم القومى وأهدافهم السياسية ، فى الوقت الذى كان فيه السياسيون يرغبون فى أن ينقلوا إلى أوروبا الانطباع بأنهم مثقفون بصورة عالية مما يجعلهم غير متعصبين - فإنهم كانوا يستخدمون الحساس الإسلامى المتأصل بصورة مستمرة كوسيلة للارتقاء بالأمة ، وحين أصبح عدد المعلمين والمثقفين المصريين من الأقباط كبيراً نسبياً ، أصبح على قيادة الحزب الوطنى أن تقرر ما إذا كان يجب أن تتخلص من الطابع الدينى الذى التصق بالحزب بدمج «الوطنيين» الأقباط معهم من ناحية ، أو ما إذا كان يتعين عليهم من ناحية أخرى ، الاحتفاظ بمصدر القوة الهام للحساس الدينى والاستغناء عن خدمات هذه الأقلية التى لا يستهان بها من المسيحيين المحليين^(٥٧) .

ولابد لأية محاولة لدراسة ما نطلق عليه الفترة الحرجة فى العلاقات بين المسلمين والأقباط فى مصر بين ١٩٠٨ - ١٩١١ ، أن تتطرق أيضاً إلى دور الصحافة القبطية . وكانت صحيفتا «الوطن» و«مصر» هما الصحيفتان القبطيتان الرئيسيتان ، وقد أنشأ صحيفة (الوطن) ميخائيل عبد السيد عام ١٨٧٨ م ، وهو قبطى تخرج من مدرسة الأقباط ، ثم درس فى الأزهر الشريف ، وقد بدأت صحيفته صدورها بتوجيه النقد إلى جمال الدين الأفغانى ، ونزعتة الدينية^(٥٨) .

وتوقفت «الوطن» عن الصدور إلى أن عادت مرة أخرى تحت إدارة ورئاسة تحرير جندى إبراهيم . سنة ١٩٠١ . وفى سنة ١٨٩٥ . أصدر تادروس المتقبادى صحيفة «مصر» ، ولقى تشجيعاً ودعماً من بطرس غالى باشا الذى لم يكن على علاقة طيبة مع عبد السيد رئيس تحرير «الوطن» . ولعبت صحيفة «مصر» دوراً رئيسياً فى الدعاية للمؤتمر القبطى سنة ١٩١١ وكانت لسان حال التيار القبطى المتعصب إذ كان ميخائيل قرياقوص - الممثل القبطى الدائم فى لندن - مراسلها هناك^(٥٩) وقد تبادلت الصحيفتان القبطيتان الانتقاد إلى أن التقيتا حول قضية مشتركة

(57) A.B. Weigall, A History of events in Egypt from 1798 - 1914, London, 1915, pp. 213 - 214.

(٥٨) أنور الحدى ، تاريخ الصحافة السياسية ، القاهرة . بدون تاريخ ، ص - ١٥٢

(٥٩) المرجع السابق - ص ١٥٠

تتعلق بالمؤتمر القبطى . وبدأت صحيفة «مصر» من سنة ١٩١٨ ، تتخذ جانب سعد زغلول ورفاقه^(٦٠) .

وكان هناك - من ناحية أخرى - «المؤيد» و«اللواء» وهما صحيفتان رئيسيتان كانت تستفزهما بعض المقالات فى الصحيفتين القبطيتين . وبدأت معارك صحفية من منطلق دينى . ولفهم خلفية تلك الصحف ذات الطابع الإسلامى عن طريق محرريها وخاصة الشيخ على يوسف - رئيس تحرير «المؤيد» والشيخ عبد العزيز جاويش - رئيس تحرير «اللواء» فإنه يتعين مناقشة دورهما فى إطار حركة الإصلاح الإسلامى .

فى ظل الاحتلال البريطانى وجد الفكر الاجتماعى والسياسى نفسه يواجهها بمشكلات جديدة . وكانت الطبقة الوسطى النامية بسرعة تشعر بالضيق والخروج من المواجهة القائمة بين الإسلام ، دينهم ، ونظام الحياة الغربية وأنماطه العصرية ، ويرجع الفضل إلى جبال الدين الأفغانى فى ظهور الاتجاهات التقلمية الإسلامية، حيث كون هو ومحمد عبده - فى مفاهيمها بباريس - جماعة وطنية إسلامية هى «العروة الوثقى» ، وشرعا فى نشر المجلة الدورية التى تحمل الاسم نفسه ، وتم التعبير عن روح الإسلام سياسيا بصورة واضحة لا لبس فيها على أساس أن الرابطة الدينية بين المسلمين أقوى من أية رابطة عنصرية أو لغوية أخرى، وفى الوقت نفسه، كان الدور القيادى الرئيسى الذى يمكن أن تلعبه مصر فى العالم الإسلامى مؤكدا ، فأثار الأفغانى تيار الإصلاح فى الأمة الإسلامية بإعلانه بأن كل تقدم يمكن التوفيق بينه وبين الإسلام ، بل ويمكن اكتشافه من تاريخ الإسلام ذاته ، فالأمة الإسلامية يتعين توحيدها تحت حكم خليفة لا تكون لقوميتها وأصله أهمية ، طالما كان فى مقدوره أن يحكم شعوب الأمة ويدافع عنها، وكان الأفغانى يتمتع بنفوذ وقدر تأثيرية عظيمة فى كل مكان فى العالم الإسلامى، وبصفة خاصة فى مصر، حيث سيطرت شخصيته القوية على الطلاب والمشايع فى الأزهر الذين توجهوا بأنفسهم إلى المدن والقرى المصرية ، لينشروا رسالته المتصلة بإحياء روح الإسلام الحقيقية وإيقاظ ما يمكن أن تطلق عليه القومية الإسلامية ، واعتبر البسطاء - فى وادى النيل - الإسلام هويتهم ، وأنه ليس ملكا لليونانيين أو الشركس أو الأجانب المسيحيين الآخرين الذين كانوا متحالفين فى نظر بعضهم مع الطبقة الحاكمة الظالمة المستبدة^(٦١) .

(٦٠) المرجع السابق - ص ١٥١

(61) T. Little, *Modern Egypt*, London, 1967, p. 56.

وكانت رغبة الشيخ محمد عبده الصادقة تتركز في إصلاح جامعة الأزهر. ولما كانت هذه الجامعة هي المركز الأول للتعليم الإسلامي في العالم كله، فقد كان يعتقد أنه إذا تم إصلاحها، فإن حال المسلمين سوف يتم إصلاحه أيضا. وأعلن أنه يرغب في تحويل الأزهر إلى منارة لهداية العالم الإسلامي. لا في المسائل الدينية فقط، بل في القضايا الدينية كذلك، كي تشبه أعظم جامعات أوروبا. وعندما اعتلى الخديوي عباس العرش، تقدم إليه محمد عبده بخطته لإصلاح الأزهر، ونجح في إقناعه بأهمية اقتراحه، وفي سنة ١٨٩٥. قرر الخديوي تعيين محمد عبده، كممثل للحكومة في اللجنة الإدارية للأزهر، التي كانت تتولى مهمة إصلاح أحوال تلك الجامعة العريقة، إلا أن الإصلاحات الفكرية في الأزهر، التي كانت أمل الشيخ عبده ورجاءه لم تتحقق أو توثق ثمارها، ذلك أن العلماء اعتبروا إصلاحات محمد عبده بالغة الثورية، لأنه كان يبغي توسيع نطاق المناهج الدراسية، وتحسين وسائل التدريس وفقا لمفهوم عصري، وأصبح الخديوي معارضا لمحمد عبده - تدريجيا - وأوقف محاولاته للإصلاح. ونشأ أحد أسباب نفور الخديوي من محمد عبده، وسخطه عليه نتيجة للمكائد التي حاكها الشيخ على يوسف ومصطفى كامل، اللذان أثارا الخديوي وألباه ضد محمد عبده^(٦٢) وقد ذكر محمد عبده:

«إنهم يظنون أن القضاء على محاولتي لإصلاح الأزهر تعني أنه قد أصبح مرتعا خصبا لهم يفعلون به ما يشاءون، على العكس فإنني قد تركت فيه شعلة لن تتمد أبدا»^(٦٣).

وكان الشيخ على يوسف. والشيخ عبد العزيز جاويش مرتبطين تمام الارتباط بما حدث من رد فعل إسلامي تجاه الإصلاح. وحددت جريدة «المؤيد» أهدافها بأنها قائمة على نشر الأفكار المفيدة والآراء الصحيحة الدقيقة^(٦٤) وأصبح عبد العزيز جاويش - وهو من أصل تونسي، لكنه ولد في الإسكندرية - زعيم الصحافة الوطنية المتطرفة في مصر- رئيس تحرير جريدة «اللواء» بعد وفاة مصطفى كامل سنة ١٩٠٨. وقد تلقى تعليمه في الأزهر، وكان ذا أثر كبير فيما بعد في إنشاء جمعية الشبان المسلمين^(٦٥) وكان للشيخ على يوسف، خلفية مماثلة، لكن بمزيد من الخبرة السياسية، وبصلات طيبة وعلاقات خاصة بالخديوي عباس، وتمتعت «المؤيد» بأعلى أرقام في

(62) A.L. Al-Sayyid, *op. cit.*, p. 149.

(٦٣) محمد رشيد رضا. تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، مجلد ٣، القاهرة، ١٩٤٧، ص- ٥٢.

(64) J.M. Ahmed, *op. cit* p 31.

(65) C. Wendell, *The Evolution of the Egyptian National, Image*, California, 1972, p. 142.

التوزيع في بداية القرن العشرين ، وأصبح يطلق عليها «تايمز المشرق»^(٦٦) وتضاعفت حدة المواجهة بين الصحف المسلمة والقبطية بحلول عام ١٩٠٨ بصحفتي «مصر» و«الوطن» في جانب ، وصحفتي «المؤيد» و«اللواء» في الجانب الآخر. وفي ٢٢ مايو ١٩٠٨ نشرت صحيفة «مصر» مقالا هاجمت فيه أولئك الذين قدموا إلى مصر منذ الفتح الإسلامي ، سواء كانوا أتراكا أو فرنسيين أو بريطانيين وهاجمت مبدأ الإسلام الشاملة ، انطلاقا من أن الدين لا يمكن أن يقوم وحده كعنصر منفرد في صياغة الأمة وإعدادها .

ثم ورد مقال آخر في صحيفة «الوطن» في عددها الصادر بتاريخ ١٥ يونيو ١٩٠٨ هاجم الوجود الإسلامي في مصر ، وهو مقال رد عليه الشيخ عبد العزيز جاويش ، وهاجمه في مقال نشره في صحيفته الخاصة «اللواء» تحت عنوان «الإسلام غريب في بلاده» ، الذي يعد بداية لحوار عاصف بين الصحافة الإسلامية والقبطية^(٦٧) . ويذكر عبد اللطيف حمزة أن الصحافة القبطية استفزت المسلمين وأثارته ، وهاجمت سجلهم وتاريخهم في مصر^(٦٨) . بينما يصبر سلامه موسى على أن الشيخ جاويش كان مستولا عن بداية الحوار الطائفي المتعصب في الصحافة المصرية^(٦٩) .

وفي ذلك الوقت ، ترك مصطفى فهمي باشا ، رئاسة الوزارة بعد ثلاثة عشر عاما . وفي ١٣ نوفمبر ١٩٠٨ تم تعيين بطرس غالى باشا ، رئيسا للوزراء ، وهو اختار لقي ترحيبا من الصحافة القبطية ، لأنه أول اختيار لقبطي يتولى هذا المنصب ، وقدم بطرس غالى إسهاما كبيرا في تنظيم الطائفة ودعم وحدتها مع المسلمين ، إذ قام في سنة ١٨٨١ - على سبيل المثال - بإنشاء «الجمعية الخيرية القبطية» ، ودعا كلاً من الشيخ محمد عبده ، وعبد الله النديم «خطيب الحركة العربية» لحضور حفل الافتتاح حيث ألقيا خطابين رائعين . يؤكدان وحدة الأمة المصرية ، أقباطا ومسلمين . وعندما طرد الخديوى عباس الشيخ سليم البشرى - شيخ الأزهر - قام بطرس غالى بزيارة الأخير وأعلن تأييده له^(٧٠) .

(٦٦) عبد اللطيف حمزة . قصة الصحافة العربية في مصر ، بغداد ، ١٩٦٧ - ص ١٠

(٦٧) حاك تاجر ، مرجع سابق ، ص - ٢٤٩ .

(٦٨) عبد اللطيف حمزة ، مرجع سابق ، ص - ١١٤

(٦٩) سلامة موسى ، مرجع سابق ، ص - ٦٧ .

(٧٠) د . بهات أحمد فؤاد ، أعيدوا كتابة التاريخ ، القاهرة ، ١٩٧٤ ، ص - ٨٩ .

وتظهر دراسة خلفية الحياة السياسية عند بداية القرن العشرين في مصر أن مساهمة مصطفى كامل في الحركة الوطنية المصرية هي أبرز عناصرها التي تضمنت محاولته احتواء كل من المسلمين والأقباط في حزبه ، فضمت اللجنة التنفيذية لحزبه شخصيتين قبطيتين هما ويصا واصف ، ومرقص حنا ، كما أعلن مصطفى كامل في إحدى خطبه أن المسلمين والأقباط شعب واحد ، تربطهم وتوثق فيما بينهم كل الوشائج ، وأنه لا يوجد أى سبب أو مبرر للفصل بينهم ، ولكن ظل الأقباط - من ناحية أخرى - متحفزين تجاه برنامج الحزب الوطنى ، الذى كان يقرب بحق السلطان العثمانى فى حكم مصر ، وكانوا أيضا قلقين للعلاقة بين مصطفى كامل والسلطان ، ومن المحاولة العثمانية لاستغلال نشاط مصطفى كامل ضد الاحتلال البريطانى فى مصر^(٧١) ، ويسجل سلامة موسى - فى مذكراته عن الفترة ما بين ١٩٠٣ و ١٩٠٧ - أنه على الرغم من أن الشباب القبطى كان يشتري صحيفة (الواء) ، فإن كثيرا من الأقباط لم ينضموا إلى الحزب الوطنى بسبب صبغته الدينية^(٧٢) .

وأثناء هذه الفترة اكتسبت مسألة التمثيل القبطى فى الحزب الوطنى أهمية سياسية أكبر نتيجة لاستقالة ويصا واصف من الهيئة التنفيذية للحزب الوطنى فى ٦ أغسطس ١٩٠٨ بعد وفاة مصطفى كامل ، إذ أن الزعيم الجديد للحزب « محمد فريد » قد فقد تأييد الأقباط - إلى حد كبير - لأنه اتخذ موقفا متشددا وصلبا من تعيين بطرس غالى رئيسا للوزراء ولم يبد تأثرا عند اغتياله ، وظلت العلاقة بين الحزب الوطنى والأقباط مضطربة غير مستقرة بسبب صبغته الإسلامية ، والنفوذ العثمانى فى الحزب . وفى هذا الجو المتوتر ، أعلن أخنوخ فانوس فى ٢ سبتمبر ١٩٠٨ مشروع إنشاء «حزب مصر» كرد فعل قبطى على بروز الشخصية الإسلامية للسياسة المصرية فى ذلك الوقت^(٧٣) ، كما أدى اختيار بطرس غالى - فى السنة نفسها - كرئيس للوزراء إلى تفاقم الوضع بين المسلمين والأقباط ، وبحق لنا أن نتساءل عما إذا كان قد تم وضع النتائج المحتملة لهذا الاختيار فى الاعتبار أم لا ؟ أو أن تعيين بطرس غالى قد تم لأنه تصادف أن كان واحدا من أقدر الرجال لشغل المنصب فى ذلك الوقت .

(٧١) جاك تاجر ، مرجع سابق ، ص - ٢٥١ .

(٧٢) الكاتب المصرى ، القاهرة ، يوليو ، ١٩٤٦

(٧٣) لبيب يونان ، الحياة الحزبية فى مصر ١٨٨٢ - ١٩١٤ ، القاهرة ، ١٩٧٠ ص - ٤٢

ولقد أقدم عضو متطرف في الحزب الوطني هو إبراهيم الورداني على اغتيال بطرس غالي في فبراير ١٩١٠ ، ويؤكد - شاهد عيان - لتلك الأيام في مصر في كتاب له أن المأساة قد أثارت مشاعر المعتمد البريطاني سيرالدون جورست الذي كان يراقب الصراع بابتسامة ساخرة إلى حد ما ، وأن وجهة نظره الأكيدة بشأنها كانت أن القاتل لابد وأن ينال عقوبة الموت ، على الرغم من الحملة القوية التي كانت تدافع عنه وتحاول إنقاذه من عقوبة الإعدام^(٧٤) .

وهكذا أصبحت مصر مقسمة - في ذلك الوقت - إلى ثلاث جهات متميزة وواضحة المعالم : الاحتلال ومؤيدوه ، والحدوي وأنصاره ، ثم الوطنيون الذين كانوا أنفسهم منقسمين تماما^(٧٥) ، وشهدت الأيام الأولى لعام ١٩١١ ، محاولة من جانب واصف غالي - ابن رئيس الوزراء الذي اغتيل - لتحقيق مصالحة وطنية بين العناصر المتطرفة من الأقباط والمسلمين ، ففي يناير أصدر ريبانا إعلان فيه أنه سوف يتغاضى عن الإساءات التي وجهت ضد ذكرى والده لصالح التآلف ، وتعبيرا وإظهارا للأخوة بين الأقباط والمسلمين وكان رد الفعل القبطي - على البيان - صدور انتقادات ضده ، ورفض تام له ، لأنه لم يكن يعكس رأيا عاما قبطيا^(٧٦) .

وبعد صدور بيان غالي الابن بعدة أيام ، نشرت صحيفة «التايمز» في عددها الصادر بتاريخ ٢٦ يناير ١٩١١ ، برقية لوكالة رويتر صادرة من القاهرة ، تتحدث عن جولة المتابعة الشاملة التي قام بها جورست في أقاليم مصر^(٧٧) ، وكان نص البرقية : «زار سيرالدون جورست ، الأقاليم التي يوجد فيها الأقباط ، وحقق تماما في مسألة المظالم والشكاوى القبطية المزعومة ، لكنه اكتشف أنه لا توجد خارج القاهرة أية شكاوى ذات بال ، وأعلن أن المسلمين والأقباط يعيشون معا بهدوء واطمئنان بصفة عامة ، إذا ما تركوا وشأنهم ، وأن أسوأ خدمة يمكن أن نقدمها للأقباط هي أن تكون معاملتهم كجماعة أو طائفة منفصلة ، ثم أكد سيرالدون جورست ، أن المصالح التربوية والتعليمية القبطية تحظى بعناية مناسبة من المجالس المحلية » : وكانت حملة الاحتجاج القبطية في القاهرة منسقة ، مع الاحتجاج القبطي في الوجه القبلي ، ودحض (توفيق دوس) تلميحات

(74) A.B. Weigall, op. cite., p 215.

S. Seikaly, "Prime Minister and Assassins: Butros Ghali and Wardani" Middle Eastern Studies, Vol, 13, No. 1, January 1977, pp. 122 - 123. .

(75) Ibid, p. 216.

(76) The Egyptian Gazette, January 27, 1911.

(77) K. Mikhail, op. cit., p. 21 and S.M. Seikaly, op. cit., p 228

جورست ، بأن الأقباط كانوا يرغبون في أن تتم معاملتهم كجاعة أو طائفة منفصلة ، وأصر على أنهم كانوا يطالبون فقط بأن يتم احترام مبدأ المساواة^(٧٨) .

والواضح أن «جورست» كان يعتقد أن موقف الأقباط لم يكن خطيرا مثلما كانوا يدعون ، وقد رفض دعاواهم المثيرة للعاطفة حول المستقبل ، واعتبر أن ادعاءاتهم تفتقر إلى أساس واقعي ، ولكن جاء رد الفعل في لندن تجاه ادعاءات الأقباط مغايرا لآراء «جورست» ولم يكن تأييد الأقباط مقصورا على الصحافة البريطانية ، بل شاركت الكنيسة الانجليزية في التعبير عن التضامن مع الأخوة في المسيحية ، واستقبل أسقف لندن المندوب القبطي قريبا قوص ميخائل ، وأعلن عن تعاطفه مع المطالب القبطية^(٧٩) ، والواقع أن الدعاوى القبطية كانت سابقة على حادث اغتيال بطرس غالى ، نظرا لأن زعماءهم كانوا قد تقدموا بالتماس مكتوب إلى مصطفى فهمى رئيس الوزراء - حينذاك - وإلى لورد كرومر المعتمد البريطانى يطالبون فيه بالمساواة الكاملة عند الاختيار للمناصب، الحكومية ، ويغلق المحاكم أيام الآحاد ، وتعيين أعضاء أقباط في رابطة المحامين "Bar Association" وتثبيت تدريس الديانة المسيحية في المدارس الأميرية ، ووافقت الحكومة على المطلب الثانى والثالث من تلك المطالب ، وأحالت المطلب الأول للمناقشة ، وجدير بالذكر أنه يوجد عامل هام يرتبط بذلك الجدل بين المسلمين والأقباط ، ألا وهو التردى الذى كانت تتسم به الحركة الوطنية في تلك الفترة خصوصا بعد صدمة دنشواى وجوا الإحباط الذى ساد صفوف الوطنيين ، فقد خمد التأييد الفرنسى لمصطفى كامل والحركة الوطنية المصرية بعد الانفاقية الانجليزية- الفرنسية سنة ١٩٠٤ ، فكان المناخ السياسى في مصر مهيأ لمثل تلك الخلافات والتزاعات في ظل الضعف المؤقت الذى دب في الحركة الوطنية المصرية آنذاك .

وفي تلك الظروف الصعبة انعقد المؤتمر القبطى في مدينة «أسيوط» وجرت مناقشة مطالبهم وشكاياتهم في خمس نقاط رئيسية . الأولى : عاجلت مسألة أن الأقباط قد أرغموا على انتهاك وصايا دينهم ، باضطرارهم العمل في أيام الآحاد ، ولما كانت المكاتب الحكومية والمدارس الأميرية تعمل ولا تغلق أبوابها أيام الآحاد ، فقد كان من المستحيل - بالنسبة للموظفين أو تلاميذ المدارس - أن يأخذوا يوم الأحد يوم عطلة تبعا لدينهم المسيحى ، لذلك طالب المؤتمر القبطى بأن^٢

(78) S.M. Seikaly, op. cit., p. 230

(79) Ibid, p. 238

يتم إعفاء موظفي الحكومة من مهامهم والتلاميذ من دراستهم في يوم الراحة المسيحية ، والنقطة الثانية كانت تتعلق بعدد من المناصب والوظائف الحكومية القاصرة على المسلمين دون سواهم ، وكان هناك شعور عام - لدى الأقباط - بأن ترقياتهم لا تتم وفقا لقدراتهم وجدارتهم ، وكانت النقطة الثالثة مرتبطة بالنظام الانتخابي في مصر ، لأن الأقباط لم يكن لهم ممثلون في المجالس المحلية ، وطالبوا بنظام يضمن حقوق الأقليات عموما . وكانت النقطة الرابعة متعلقة بالمطالبة بفرص متساوية للاستفادة من التسهيلات التعليمية التي كانت توفرها المجالس المحلية الجديدة ، وكانت الحكومة المصرية قد فوضت المجلس المحلي لفرض ضريبة خاصة معادلة لـ ٥٪ من الضريبة العامة على الأديان للأغراض التعليمية التربوية بصورة أساسية ، وكان الأقباط يدفعون ١٦٪ من تلك الضرائب ، وساد لديهم شعور بأنهم لابد وأن يتوقعوا - مقابل ذلك - بعض التحسينات في وسائل تعليم أطفالهم في ظل النظام الجديد ، ولم يكن في مقدور أطفالهم الالتحاق بالكتاتيب أو المدارس الابتدائية التي كانت تلقى دعما ماليا من الضرائب الخاصة ، لأن وزارة التعليم أعلنت رسميا أن تلك الكتاتيب ، وكذلك المدارس العادية ، كانت معاهد ذات طابع إسلامي ، وكانت النقطة الخامسة هي مطالبة الأقباط بأن تتوجه المعونات الحكومية للمعاهد المحتاجة للمساعدة بدون تفرقة بسبب العقيدة ، وتم بحث تلك الموضوعات بالتسلسل ، واختتم المؤتمر جلساته بتصويت إجماعي يعبر عن ولاء المجتمعين لسمو خديوى مصر ، وهو ما تم إرساله برقيا على الفور ، وجرى تشكيل لجنة عامة من ممثلين للأقاليم المختلفة كي تجتمع عند الضرورة لإدارة الأمور والتصرف فيما قد يظهر من مشكلات ، وانتخب جورج بك ويصا - رئيسا و خليل بك إبراهيم والدكتور أخنوخ - نائبين للرئيس ، واندراوس باشا - أمينا للصندوق^(٨١) .

وكان الباعث على إرسال برقية المؤتمر إلى الخديوى عباس الثانى ، هو تصور أن الخديوى كان يحقق - شخصيا - فى الشكايات والتظلمات القبطية ، وأنه قد أبدى تأييده لانعقاد المؤتمر^(٨٢) ، إلا أن «جورست» أدرك نوايا الخديوى بسرعة ، وطلب منه أن لا يستقبل أى وفد قبطي^(٨٣) .

وكانت أصدااء المؤتمر القبطى كثيرة وبعيدة المدى ، وعارضت «الجريدة» صحيفة حزب الأمة ، المؤتمر بقوة وعنف ، لكن عندما تردد ناظر الداخلية فى السماح بعقد المؤتمر ، اتخذ الحزبان

(80) K. Mikhail, op. cit., pp. 28 - 30.

(81) S.M. Seikaly, op. cit., p. 288.

(82) Ibid., p.290.

السياسيان الرئيسيان (الحزب الوطنى ، وحزب الأمة) موقفا معارضا للحكومة ، دعما منها حرية التعبير بغض النظر عن عدم تأييدهما لفكرة عقد المؤتمر ، والملاحظ أن حزب الأمة الذى كان يضم صفوة المفكرين من ملاك الأراضى والشريحة العليا من الطبقة المتوسطة وكان دون صبغة دينية واضحة ، كان يتسم بموقف معتدل من الأقباط ، بالمقارنة ببعض العناصر المتطرفة فى الحزب الوطنى ، وكان أكثر رذود فعل المؤتمر أهمية ، هو موقف كثير من الأقباط الذين كانوا معارضين لفكرة عقد المؤتمر ذاته ، وكان من بينهم واصف غالى ، وويصا واصف ، كذلك فإن الذين اشتركوا فى المؤتمر كانوا أقلية بين الأقباط ، إذ كانوا يشكلون فقط ١٢ ألف من بين ٧٠٠ ألف ، وهو العدد الإجمالى للأقباط فى مصر حينذاك^(٨٣) وعلى الرغم من حقيقة أن أسقف أسيوط ، قد أبدى تأييده للمؤتمر ، فإن البطريك سريال الخامس رئيس الكنيسة القبطية لم يكن متحمسا للاشتراك فيه^(٨٤) ، وبعد افتتاح المؤتمر القبطى بيوم واحد ، دعا مواطن من الإسكندرية ، اسمه محمد فهمى الناضورى ، إلى انعقاد مؤتمر إسلامى^(٨٥) .

عقدت اللجنة التحضيرية للمؤتمر الإسلامى أول جلساتها فى منزل «على شعراوى» ، وفى الجلسة الافتتاحية للمؤتمر فى ٢٩ إبريل ١٩١١ ، فى مصر الجديدة ، قدم رياض باشا ، الذى نصب رئيسا للمؤتمر ، خطابا هادئا لخص فيه أهداف المؤتمر ، بأنها «مناقشة» مطالب الأقباط^(٨٦) . وكان الاتجاه الرئيسى فى المؤتمر هو الإصرار على الوحدة الوطنية . والمساواة بين طائفتى الأمة ، ويقرر جاك تاجر - فى كتابه - أن المؤتمر الإسلامى لقي تشجيعا من «جورست»^(٨٧) ويفسر صيقلى ذلك فى رسالته أن المؤتمر حظى بموافقة وتصديق دار المعتمد البريطانى فى القاهرة^(٨٨) .

واستقبل الحزبان السياسيان الرئيسيان (الوطنى ، والأمة) فكرة المؤتمر الإسلامى ، دون حماس شديد وذلك من وجهة نظر سياسية ، بينما تحمس له حزب «الإصلاح الدستورى» الذى كونه

(٨٣) المؤيد ، ١١ مايو ١٩١١ .

(٨٤) طارق البشرى ، مرجع سابق ، رقم ١٠٩ ، القاهرة ١٩٧٠ .

(٨٥) المقطم ، ٧ مارس ١٩١١ .

(٨٦) المرجع السابق ، ٢٢ مارس ١٩١١ .

(٨٧) حاك تاجر ، المرجع نفسه ، ص - ٢٥٢ .

(88) S.M. Seikaly, op. cit., pp. 290 - 293.

الشيخ على يوسف ، كأداة للخديوى عباس الثانى ، وهو حزب لم يكن يهتم كثيرا بالجانب السياسى للمسألة ، ورأى أن المؤتمر الإسلامى كان له غرض واضح ، وهو حماية الشخصية الإسلامية للدولة (٨٩) .

وعكس الوضع الكلى للأقباط فى تلك الفترة شعورا عاما ، بأنه على الرغم من تعاطف البريطانيين مع الأقباط ، فقد كان لدى كرومر ، وجورست انطبعا بأن الأقباط يتمتعون بأكثر مما يستحقونه فى الحياة المصرية ، وأنهم كانوا يتوقعون الحصول على امتيازات عن طريق البريطانيين (٩٠) ، فلقد حقق التعليم القبطى تقدما ، وحظى باهتمام ورعاية خاصة ، وأُتيحت لكثير من الطلبة الأقباط فرصة إتمام دراساتهم العليا فى الخارج ، وكان من بينهم مكرم عبيد ، الذى نتخذه هنا كنموذج للدراسة فى إطار دور الأقباط فى الحركة الوطنية المصرية كلها .

* * *

(89) Ibid., p. 293 .

(90) K. Mikhail, op. cit., p. 38 .

الفصل الثاني

مكرم عبيد
والمدخل إلى
الحركة الوطنية المصرية

الفصل الثاني

مكرم عبيد والمدخل إلى الحركة الوطنية المصرية

ليس أمرًا يسيرًا العثور في التاريخ الحديث للأقباط على شخصية تعكس الدور الوطنى فى الحياة السياسية المصرية أفضل من مكرم عبيد، لما تميز به من قدرة وتأثير، وقد ولد مكرم عبيد فى أكتوبر ١٨٨٩ بمدينة قنا ، من أسرة نشأت أصلا فى أسيوط . وكان جده الأكبر - عن أبيه - قد تزوج من ابنة المعلم جرجس الجوهري^(١) ، وانتقلت الأسرة إلى قنا عندما آثر محمد على باشا إبراهيم الجوهري على أخيه جرجس ، ومكرم عبيد - الأب - هو واحد من أحد عشر أخا وأختا ، وكان يمتلك حوالى ثلاثين فداناً من الأراضى الزراعية ، لكنه ما لبث أن تحول بعد ذلك إلى مجال آخر كمقاوم لبناء وأشغال عامة ، ونفذ هو وشقيق له أعمال الإنشاءات فى خط السكة الحديدية بين نجع حمادى والأقصر ، وعند إتمام هذا المشروع قلده والى « الوسام المجيدى » ، وأنعم عليه بلقب الباكوية من الدرجة الثانية^(٢) . واشترى مكرم عبيد - الأب - بعد ذلك تسعة فدان من أراضى الخاصة الملكية « الدائرة السنية » ، بالقرب من قنا ، وتوفى فى ديسمبر ١٩٢٥ .

وقد أكمل وليم مكرم عبيد تعليمه الابتدائى فى مدرسة أميرية بقنا حوالى عام ١٩٠٠^(٣) . وبعد أن كان قد أمضى فترة قصيرة فى مدرسة التوفيقية الثانوية بالقاهرة ، نصح بعض الأصدقاء والده بأن يلحقه بالمدرسة الأمريكية فى أسيوط التى كان يديرها ويشرف عليها المبشرون الأمريكيون .

(١) المستشار المالى لمحمد على باشا . وقد أورد الجبهى ذكره عدة مرات فى كتابه (عنايت الآثار فى التراحم والأخبار) - القاهرة - ١٣٢٢ هجرية .

(٢) بعض هذه المعلومات مستقاة من مقالة مع السيد فكرى مكرم عبيد فى ١٤ فبراير ١٩٧٥

(٣) كان الكاتب الكبير عباس محمود العقاد من بين زملاء عبيد فى تلك المدرسة ، وقد أشار العقاد إلى هذا فى المقدمة التى كتبها لمجموعة خطب عبيد وعنوانها « الكرميات » .

ثم اقترح أخنوخ فانوس - وهو محام قبضى مشهور - على والد عبيد أن يبعث بوليم ، وكان طالباً ذكياً ومجدداً ، إلى جامعة أكسفورد ليمدرسته هناك^(٤) ، ووصل ولیم إلى هناك سنة ١٩٠٥ ، وهو فى السادسة عشر من عمره ، ويعتبر ولیم مكرم عبيد واحداً من أبرز الطلاب الذين درسوا فى « نيوكوليدج » بأكسفورد ، وقد ذكر عميدها يوماً - فى مناسبة اجتماعية - أن الكلية لم تعرف من قبل طالباً أصغر فى العمر من ولیم مكرم عبيد ، باستثناء ولیم بيت - السياسى البريطانى المشهور - ولم يكن عبيد قد بلغ السابعة عشرة من عمره فى ذلك الوقت ، كما يقال أيضاً إن العميد قد امتدح التقدم الرائع الذى أحرزه ولیم مكرم عبيد فى اللغة الإنجليزية ، وداعبه قائلاً « إنه سوف يسلك نفس الطريق الذى سلكه ولیم شكسبير ويتبع نفس خطواته^(٥) » ، ولا تحوى سجلات « نيوكوليدج » بأكسفورد عن الطالب ولیم عبيد أكثر من أنه درس هناك فيما بين ١٩٠٥ و ١٩٠٨ ، وأنه حصل على المرتبة الثانية فى القانون^(٦).

ولم يعد عبيد إلى مصر مباشرة بعد حصوله على الدرجة العلمية فى القانون من أكسفورد سنة ١٩٠٨ ، لكنه التحق فى طريق العودة بجامعة « ليون » بفرنسا ، ليكمل دراساته أعلى فى القانون هناك ، وقد أثار اهتمامه بها دراسات علم الآثار المصرية ، وأمضى عامين تقريباً فى فرنسا حيث التقى بزميل مصرى هو (عمر مصطفى) الذى كان يدرس فى نفس الفرع من المعرفة وكانا يتراسلان ببعض الكلمات من الهيروغليفية على سبيل الدعابة والمزاح ، فقد كان لها اهتمام مشترك بدراسة الآثار المصرية^(٧).

لكن ولیم مكرم عبيد قد أثارته فى فرنسا أيضاً الاتجاهات الفكرية الجديدة هناك ، وأعجب بالفكر الاشتراكى ، كما أبدى اهتماماً أيضاً بالاتجاهات غير الدينية ، وجدير بالذكر أن الملك فؤاد كان ينظر إلى مجموعة من السياسيين المصريين الشباب ومنهم ولیم مكرم عبيد وآخرين مثل الدكتور محمد حسين هيكل ، والدكتور محمود عزمى ، على أنهم مؤيدون للنظام الجمهورى ، ومتأثرون

(٤) تمتعت جامعة أكسفورد بشهرة كبيرة فى ذلك الوقت بين العائلات المعروفة فى مصر . وقد تخرج محمد محمود باشا ابن محمود سليمان باشا . رعيم حزب الأمة وواحد من أبرز أقطاب الصعيد من تلك الجامعة قبل ولیم مكرم عبيد بعدة أعوام .

(٥) من معلومات المقابلة مع السيد/فكرى مكرم عبيد .

(٦) من حطاب ورد إلينا من « نيوكوليدج » فى أكسفورد ومؤرخ ٢٨ فبراير ١٩٧٥ .

(٧) من معلومات المقابلة مع السيد/فكرى مكرم عبيد .

« بالاشتراكيين الفرنسيين » لأنهم كانوا قد درسوا وتعلموا في فرنسا ، وتأثروا بالثقافة السياسية والفكر الاجتماعى هناك^(٨) .

وتبدو تلك الجذور المبكرة لثقافة عبيد ذات أهمية على ضوء مستقبله بعد ذلك ، خاصة عندما أصبح معروفا كسياسى وطنى ذى اتجاهات علمانية ، ويجدر أن نشير هنا إلى أن مكرم عبيد - الأب - كان قد تحول إلى البروتستانتية حوالى ١٩٠٠ محدثا بذلك انقساماً فى الأسرة بين أولئك الذين ظلوا أقباطاً من ناحية والذين تحولوا إلى المذهب الجديد من ناحية أخرى ، إلا أن ولیم مكرم عبيد قد بقى على أرثوذكسيته طوال حياته^(٩) . وهذا الالتزام والإخلاص يقدم مؤشراً لطموح عبيد الشخصى المبكر ، إذ أدرك أن طموحه السياسى يفرض عليه الالتزام بالكنيسة الوطنية المصرية ، بينما البروتستانتية مرتبطة فى الأصل بكنيسة أجنبية ، وكانت تعتبر - فى ذلك الوقت لدى العائلات القبطية - كظاهرة مستوردة ، وتؤكد شخصية عبيد وحياته العملية طموحه السياسى المستمر ، وكذلك دافعه لكى يلعب دوراً فعالاً فى مجال السياسة المصرية بدون أى اعتبار كبير للعامل الدينى ، والملاحظ عند دراسة خلفيته الاجتماعية أن عبيد لم يكن سليل « الارستقراطية » القبطية الحقيقية ، لأن الوضع الاجتماعى لعائلته لم يحس على نفس مستوى العائلات الثرية المعروفة والتي تملكّت بأرض زراعية واسعة من الدائرة السنية ، والتي تحمل أسماء مثل غالى وحنا ودوس^(١٠) .

وكى نتعمق فى بحث الدور السياسى الوطنى لمكرم عبيد ، يصبح من الضرورى إلقاء نظرة سريعة على مراحل تطور الحياة السياسية المصرية والحركة الوطنية التي كانت بداياتها الحقيقية قد ظهرت منذ حوالى قرن تقريباً ، فعندما وصل عرابى إلى طليعة الحياة السياسية المصرية كزعيم للضباط الوطنيين التفت القوى الشعبية حوله كرمز للمواجهة ضد استبداد الخديوى والعناصر الأجنبية فى الحكم ، وعلى الرغم من أن الخطوات الأولى لزعامة عرابى فى الجيش كانت ذات طابع فئوى ، إلا أنه حين اتسع نطاقها اكتسب عرابى سمات الزعيم الوطنى الحقيقى^(١١) ولقد اتخذت مجموعة الوطنيين من ثورة عرابى إشارة بدء لعمل فكرى جسور وهو الإصلاح الدينى والاجتماعى وإحياء حضارة

(٨) المصدر السابق نفسه .

(٩) المصدر السابق نفسه .

(١٠) هذه النقطة كانت موضع مناقشة فى مقابلة مع الاستاذ محمد حسين هيكل فى ١٠ سبتمبر ١٩٧٥ .

(11) A.L. Al-Sayyid, op. cit., p.9.

إسلامية إيجابية تتفاعل مع التطورات الحديثة في كافة المجالات ، وإن كان من غير المنطقي محاولة تقييم مجهودات جمال الدين الأفغانى أو محمد عبده أو رفاقها داخل الإطار الوطنى المحلى للثورة العراقية^(١٢) ومع ذلك فلم يكن جمال الدين الأفغانى أو محمد عبده وتلاميذهما بعيدين عن محاولة إثارة الروح الوطنية كخطوة لتحقيق الهدف الشامل وهو بعث الأمة الإسلامية الواحدة حتى يصبح في إمكان المسلمين أن يحققوا ذاتهم وبرزوا هويتهم دون الاعتماد على الدول الأوربية أو التقيد بها على أساس أن الدين الإسلامى - بسبب قوته الروحية - قادر على التكيف مع الأحوال المتغيرة لكل عصر^(١٣).

واعتبر الأفغانى ومحمد عبده الارتباط بين نهضة البروتستانتية ، وبرز شخصية الدول الأوربية الحديثة كحافز مشابه ومواز لآرائهم الداعية للإصلاح من أجل المسلمين^(١٤).

كما اعتبر محمد عبده - بدوره - البرنامج الإصلاحى للأزهر ، وإيجاد توافق بين الإسلام والحياة المصرية الحديثة كخطوة ضرورية للتحرر والتقدم^(١٥) ، وقد بدت الصورة أمام محمد عبده أن المسلمين منقسمون إلى طوائف وشيع كل منها يدعى أنه الصادق ذو الرأى الصحيح والمعتقد القويم ، كما شعر بأن الدين الإسلامى - كما يفهمه أصحاب المذاهب - قد أصبح نظاما متسعا ومعتقداً ، لدرجة أنه أصبح من الصعب على أى فرد - خاصة إذا كان غير مثقف - إدراك جوهر الإسلام ، وكانت فكرة محمد عبده الخاصة بالوحدة الدينية والمبادئ الأخلاقية المشتركة داخل الجماعات الإسلامية ككل أو داخل كل دولة بمفردها تقوم على مبدأ التعاون المتبادل للحد من الشر وتعزيز الخير^(١٦) ، ولقد تمكن محمد عبده من إبراز النظام المدنى الإسلامى وأكد أن الحكومة الإسلامية الحقيقية تحوى الفضائل والفعاليات المعترف بها بصورة شاملة في العالم الحديث ، كما أن النظرية الإسلامية تتفق مع القانون الطبيعى إلى حد بعيد^(١٧).

ولقد وفد محمد رشيد رضا - الفقيه السورى ، الذى توفى سنة ١٩٣٥ - إلى القاهرة حيث جعل من نفسه أكثر تابعى محمد عبده قربا له والتصاقا به ، وكرس معظم حياته العلمية بوصفه المترجم

(12) I.&S. Lacouture, *Egypt in Transition*, London, 1958, p. 74.

(13) C.C. Adams *Islam and Modernism in Egypt*, London, 1933, p. 13. See also Chapter 1, Note 61.

(14) C. Wendell. *op. cit.*, p. 172.

(١٥) الأزهر ، تاريخه وتطوره القاهرة - ١٩٦٤ ص ٢٥٢ ، وانظر أيضاً الفصل الأول هامش (٦٣) .

(16) C.C. Adams, *op. cit.*, London, 1933, p. 172.

(17) M.H. Kerr, *Islamic Reform*, California, 1966, p. 150.

الرئيسى لسيرة محمد عبده ، ومؤسس صحيفة « المنار » ورئيس تحريرها وقد كتب فيها مقالات كثيرة ، وناقش عددا من القضايا ذات الأهمية^(١٨) ، وقد ساد التيار الإصلاحى كتابات المفكرين المسلمين ، ومارس تأثيره على الحركة الوطنية فى تلك الفترة ، وعلى الأخص بالنسبة لأولئك الزعماء السياسيين الذين تأثروا بتعاليم محمد عبده وتعلمدوا على يديه .

.. وقد تكون العودة قليلا إلى الوراء ذات مغزى ، فى سنة ١٨٧٩ ، كَوْن الضباط الفلاحون Fellow Officers جمعية لمقاومة النفوذ الأجنبى فى مصر وأطلقوا عليها اسم « الحزب الوطنى » وهو الذى عرف بعد ذلك باسم « الحزب الوطنى الأول » لتمييزه عن « حزب مصطفى كامل » فيما بعد ، وعندما تمكن الاحتلال الأجنبى من مصر وسحق ثورة عرابى وسجن زعماءها أو نفاهم ، بدا أن المقاومة الوطنية للتدخل الأجنبى فى مصر أوشكت على التوقف ، وكما هو الحال فى دول كثيرة ، فقد خمدت الحركة باعتقال زعمائها أو إلقائهم فى السجون ،^(١٩) وبينما كانت الحركة الوطنية فى مصر - أثناء عصر عرابى - ذات طابع دينى ووطنى وعاطفى وتهدف إلى إثارة الفلاحين المظلومين المضطهدين للمقاومة والكفاح ، كانت الحركة الوطنية المصرية - فى بداية القرن العشرين - حركة فكرية يقودها سياسيون مفكرون ينتمون إلى أعيان الريف والمدن الصغيرة ، وقد تأثر معظمهم بالحياة الأوروبية والحضارة الغربية ، وبدا ذلك مجرد تحول من الإثارة الدينية إلى العمل السياسى المنظم ،^(٢٠) وقد تركزت المشاعر العدائية ضد الاحتلال أثناء السنوات الأولى للقرن العشرين ، وتمثلت فى انتقاد سياسات بريطانيا العظمى تجاه مصر ، وتفاعل الشعور الدينى مع الطموحات الاقتصادية الوطنية لدى المثقفين المصريين ليدعم الحملة المعادية لبريطانيا^(٢١) .

وكان أروع إسهام لمصطفى كامل فى الحركة الوطنية ، هو إصراره - منذ أيامه الأولى كخطيب ومدافع عن قضية مصر أمام أوروبا والعالم المتحضر - على الضرورة الأساسية للوحدة بين جميع من يسمون أنفسهم مصريين ، واتباع أحمد لطفى السيد الخطوات نفسها طوال حياته سواء الأكاديمية أو السياسية الطويلة والمتنوعة ، وبدت الأمة المصرية - كما برزت من خطاب مصطفى كامل - قوية ومؤثرة وتتشابه أحاديث أحمد لطفى السيد مع اتجاهات مصطفى كامل ، على الرغم من

(١٨) لمزيد من الدراسة انظر كتاب محمد رشيد رضا (الخلافة والإمامة العظمى) القاهرة . ١٩٢٣ .

(19) I.M. Landau, *Parliaments and Parties in Egypt*, Tel Aviv, 1953, p. 104

(20) *Ibid*, p. 135.

(21) *Ibid*, p. 136

أنها كانت في كثير من وجوها تنزع تجاه التطرف والصرامة التي كان لطفي السيد يتفادها أو يدينونها بجذر ،^(٢٢) ففي أثناء فترة الخلافات الداخلية ذات الطابع الطائفي والتي نتجت عن اغتيال بطرس غالي باشا ، كتب لطفي السيد : إن وقت ظهور الأخوة قد حان ، ويبقى على الأغلبية المسلمة أن تمد يد الإخلاص والتضامن لإخوتهم لخدمة أرض أجدادهم المشتركة ،^(٢٣) كما كان لطفي السيد تعبيرا للفكر الليبرالي في مصر الحديثة ونجسيدا للروح العلمية في الحياة السياسية .

وقد ظهر إلى الوجود - قبل عام ١٩٠٧ - عدد صغير من الجماعات السياسية ، ولكن في الربع الأخير من تلك السنة ، ظهرت ثلاثة أحزاب رئيسية قدر لها السيطرة على الحياة السياسية أثناء تلك الفترة التي امتدت إلى وقت نشوب الحرب العالمية الأولى ، وكانت تلك الأحزاب الثلاثة هي : حزب الأمة ، وحزب الإصلاح الدستوري ، والحزب الوطني . ومع ذلك فإنه لم يكن من الممكن لتلك الجماعات السياسية أن تقوم ما لم يكن هناك بالفعل قدر كبير من الأفكار السياسية السائدة . ولقد تجمع عدد من المتأثرين بفكر الإمام المستنير محمد عبده وأصدروا العدد الأول من (الجريدة) في ٩ مارس ١٩٠٧ ، ولم يكن على الصحيفة الجديدة أن تنتظر طويلا قبل أن تنال عليها الانتقادات القاسية ، فقد اتهم رئيس تحريرها (لطفي السيد) بأنه متمرّد وثائر ضد السلطان ، كما وجهت التهم إليه وإلى رفاقه بأنهم مدافعون عن السياسة البريطانية ،^(٢٤) وكان هذا ادعاء تردد كثيرا ضد جماعة محمد عبده لأن معظمهم كان يعمل في الإدارة البريطانية ، ومع ذلك فقد اشتهرت (الجريدة) بسرعة لاعتدالها وورصانها ، وفي غضون عدة أشهر قرر - الذين أسسوها - تشكيل حزب سياسي تكون (الجريدة) لسان حاله ، والناطقة باسمه ، وألقى حسن باشا عبد الرازق ، نائب رئيس الجمعية التأسيسية للحزب ، خطابا حدد فيه سياسته ، إذا أعلن أن الهدف الرئيسي للحزب هو تكوين شخصية مصرية ، وبلورة خصائص سياسية مميزة لها ، وكان الحزب يعتقد أن أي تقدم يتم إحرازه ، أو أي درجة من الاستقلال يتم تحقيقها ، من الممكن ألا تكون ذات قيمة دائمة ما لم يتم إقامتها على أساس الشعور بالوحدة والتضامن ، وهما أمران كانت

(٢٢) انظر على سبيل المثال على كامل ، مصطفى كامل باشا في أربعة ولاتين ربيعا ، القاهرة - ١٩٠٨ .

وعبد الرحمن الرامي ، مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية ، القاهرة - ١٩٣٩ .

(٢٣) الجريدة - ٦ مايو - ١٩١١ .

(24) J.M. Ahmed, op. cit, p.69.

وصبحي وحيد - مرجع سابق ، ص - ٢٤٥ .

مصر في حاجة ملحة إليهما ، وقد تكوّن الحزب من أفراد ينتمون إلى عائلات لها جذور عميقة في تربة مصر ، فكانت لهم مصالح واهتمامات حقيقية في مستقبل البلاد ، وكان الحزب يركز اهتماماته بصفة خاصة على مشكلات الريف ، وينبه إلى مخاطر افتقاد الأمن في القرى ، وأعلن قادة الحزب أنهم سوف يحاولون إصلاح جهاز العدالة ، كما أن حاجات سكان الريف قد تجاوزت نظام الري السائد ، مما يجعل تنفيذ مشروعات جديدة وكبيرة أمراً ضرورياً ، إلى جانب أهمية التوسع في التعليم ، كما يتعين أيضاً على المدارس العليا أن تعد مزيداً من الرجال القادرين على تولى مهام الخدمة المدنية ، وكانت آخر نقطة في برنامج الحزب - والتي أصبحت أهم النقاط فيما بعد- هي : توسيع نطاق سلطات المجالس المحلية ، والجمعية التشريعية ، تمهيداً لدعم الإدارة الوطنية ، ولم تبد هذه الأهداف بالنسبة للوطنيين عموماً مختلفة كثيراً عن السياسة المعلنة لبريطانيا^(٢٥) ، إذ كانت تحتوي على جميع عناصر الإجراءات التدريجية ، وبدأ لهم أنها تعني أن حزب الأمة كان يثق في بريطانيا ، وأنه سوف يتعاون معها في تهيئة الدولة المصرية لنيل الاستقلال ، كما لفت نظر عدد من الوطنيين إلى العلاقات الشخصية الوثيقة التي كانت تربط ما بين بعض أعضاء الحزب ، وعدد من كبار المسئولين البريطانيين ، في وقت كانت فيه العلاقات بين البلدين - بصفة عامة - أكثر توتراً من أي وقت مضى^(٢٦) ، كما أن الخديوي نظر أيضاً إلى مولد الحزب بعين الريبة والشك ، فقد كان يمثل - في نظره - تحالفاً بين مجموعة من المثقفين وعلية القوم بالأقاليم ، كما أن عدداً كبيراً من الذين كان لهم دور في تكوينه ، كانوا ينتمون إلى عائلات مصرية لعبت دوراً في دعم حركة عرابي منذ جيل مضى .

وكانوا معارضين - من حيث المبدأ - لاستمرار دور للخديوي ، تماماً مثلما كانوا معارضين لانعدام أي نوع من الرقابة على سلطة البريطانيين ، وكانوا يرغبون في أن يلعبوا دور « القوة الثالثة » لمراقبة القوتين الآخرين^(٢٧) . وقد جذب اعتدال الحزب عدداً من زعماء الأقباط ووجهائهم ، مثل فخرى بك عبد النور ، وسينوت بك حنا ، الذين أصبحوا بعد ذلك من زعامات حزب الوفد المصري^(٢٨) .

(25) J.M. Ahmed, op. cit, p.70

(٢٦) عباس العقاد « قصة الأحزاب » - أخبار اليوم - القاهرة . ٦ نوفمبر ١٩٤٦

(٢٧) حسين فوزي النجار - أحمد لطفى السيد - القاهرة - ١٩٧٥ - ص - ٢٠٠

(28) J.M. Ahmed, op. cit, p 71 .

... وقد ظهر الحزب الوطني إلى الوجود - رسميًا - بعد إنشاء حزب الأمة بوقت قصير ، إلا أن الحزب كان موجودًا بالفعل ، طوال عدة سنوات متمثلاً في مؤيدى جهود مصطفى كامل ، فقد كان الزعيم الوطني الشاب ، لا يؤمن بإنشاء حزب بصورة رسمية ، لأنه كان يعتقد أن إنشاء الأحزاب يؤدي إلى تقسيم وتفتيت الأمة ، إلا أنه ما أن تم إنشاء حزب الأمة حتى كتب إلى صديقه ورفيقه - محمد فريد - يبلغه بأن الحزب الوطني ، الذي تحمل العبء الرئيسي للكفاح ضد الاحتلال طوال ثلاثة عشر عامًا ، يتعين إنشاؤه رسميًا ، كما انتقد حزب الأمة لسياسته القائمة على الفلسفة التدريجية ، وتم عقد اجتماع كبير في ٢٢ أكتوبر ١٩٠٧ ، بالإسكندرية ، وألقى مصطفى كامل أطول خطبه ، وأكثرها تأثيرًا ، في جمهور يزد على ستة آلاف شخص ، تكونوا أساسًا من سكان المدينة خصوصًا الطلاب ، إلى جانب عدد قليل من علية القوم الذين جذبهم إليه حماسه وجديته ، ويحدد الخطاب - في نواح كثيرة - مرحلة هامة في تطور المفاهيم والأهداف السياسية لمصطفى كامل ، ولم يكن البرنامج الذي دافع عنه يختلف كثيرًا عن برنامج حزب الأمة في المبادئ الأساسية ، لكنه اعترف - ربما للمرة الأولى - بأن مصر يمكنها أن تتطلع لا إلى تركيا ولا إلى فرنسا من أجل خلاصها ، بل إلى جهودها الذاتية وحدها ، وفي ديسمبر من العام نفسه ، تبنت اللجنة التنفيذية للحزب الوطني برنامجًا يدعو إلى ربط الشعب بإنجازات الحكومة ، والتأكيد على أن الروابط والصلات بين المسلمين والأقباط يتعين تقويتها ودعمها^(٢٩) .

... أما الحزب الثالث وهو حزب « الإصلاح الدستوري » فقد كان مثل الحزب الوطني ، يدور محوره حول رجل واحد هو الشيخ علي يوسف ، وقد مارس على يوسف أنشطة مختلفة في حياته ، لكن أهمها كان رئاسته لتحرير صحيفة « المؤيد » طوال ثلاثة وعشرين عامًا ، ابتداء من أول صدور لها في عام ١٨٨٩ حتى اعتزاله المجال السياسي والصحفي سنة ١٩١٢ . وقد ظل طوال حياته المهنية والحزبية ، كرئيس تحرير وكشخصية عامة ، وقيًا ومخلصًا للخديوي ، وحين اختلف مصطفى كامل والخديوي ، وانقطعت العلاقات بينهما بعد توقيع الاتفاقية الإنجليزية - الفرنسية عام ١٩٠٤ ، اقترب الخديوي أكثر من علي يوسف ، الذي لم تكن عواطفه الإسلامية مؤيده للأتراك ، لكنه - مع ذلك - بدا أنه يخدم أهداف الخديوي ، وعندما تكون حزب الأمة ،

(29) Ibid, p.77.

وانطلق مصطفى كامل للعمل من أجل إنشاء حزبه السياسى ، صاغ على يوسف ومن خلفه الحديوى وبمساعدة عدد من الوجهاء وعلية القوم وكبار المسئولين ، برنامج حزبه وكان أول هدف أعلن له هو تأييد ودعم السلطات الحديوية فى نطاق الحدود والقيود التى أرستها فرمانات التى أجازها السلطان ، وإجبار بريطانيا على الوفاء بوعودها الخاصة بالجللاء ، كما أعلن الحزب أيضا أنه يناضل من أجل إنشاء هيئة نيابية مصرية لتضع التشريعات المتصلة بجميع المسائل التى تخص المصالح المصرية ، ومن أجل تعليم مجافى شامل ، مع جعل اللغة العربية هى لغة التدريس ، ومن أجل إحلال مصريين محل الموظفين الأجانب ، ومن أجل توحيد النظام القضائى ، كما أعلن البرنامج فى مقدمته ، أنه يتعين الفصل بين الدين والسياسة فى كل الأنشطة الحزبية . وفى خطابه فى الاجتماع العام الأول للحزب ، أعلن على يوسف أن حزبه يتفق مع مصطفى كامل فى ضرورة تحقيق الجللاء ، لكنه يختلف معه فى الوسائل التى يتعين استخدامها لذلك ، إذ أن الإقناع وسيلة أكثر فعالية من القوة .^(٣٠)

.. وبعد وفاة مصطفى كامل سنة ١٩٠٨ ، فقدت الحركة الوطنية المصرية حيويتها ، كما خمدت الحماس الوطنى ، وكانت الأعوام العشرة التى أعقبت وفاة مصطفى كامل حتى عام ١٩١٨ بمثابة مرحلة انتظار وترقب ، وهى أيضا سنوات العلاقات الحساسة بين المسلمين والأقباط^(٣١) ، ويمكن اعتبار تلك الأعوام بمثابة الفترة التحضيرية لثورة ١٩١٩ ، وهى ذاتها الأعوام العشرة التى مهدت الطريق لقيام الوفد كحزب ، والذى توجد أكثر من قصة واحدة تتعلق بمولده ، ونشأته ، إحداها مصدرها الأمير عمر طوسون الذى يزعم أنه هو الذى فكر فى فكرة إنشاء الوفد فى الأسابيع الأولى من عام ١٩١٨^(٣٢) ، وفى مذكراته ، يورد سعد زغلول نفسه ، أن فكرة الوفد بدرت فى ذهنه فى نفس الوقت الذى بدرت فيها فى ذهن آخرين ، لكنه اتخذ الخطوة العملية ، بدعوة زملائه للاشتراك فيه^(٣٣) .

وفكرة مماثلة بدرت فى ذهن رئيس الوزراء فى ذلك الوقت - حسين رشدى باشا - الذى كان

(30) Ibid, p.81 .

(31) See., Seikaly, op. cit., p p. 226 - 230.

(٣٢) محمد زايد - من عرابى إلى عبد الناصر - الحركة الوطنية الحديثة بروت - ١٩٧٣ - ص - ٩٧ .
(٣٣) انظر . عبد الحائق لاشين - «سعد زغلول» (دراسة حول زغلول حتى عام ١٩١٤) - مع ملحق عن مذكراته - القاهرة - ١٩٧١ .

يتيماً لزيارة لندن على رأس وفد مصرى لمناقشة المطالب الوطنية مع البريطانيين^(٣٤) ، وفي ١٣ نوفمبر ١٩١٨ ، توجه سعد زغلول ، وعبد العزيز فهمى ، وعلى شعراوى إلى مقر المندوب السامى حيث قابلوا سير ريجينالد وينجات ، للمطالبة باستقلال مصر ، ويعتبر ذلك الاجتماع البداية التاريخية لقيام حزب الوفد ، وقد تركزت مطالبهم - فى ذلك اللقاء - على أساس الطبيعة المؤقتة للحماية البريطانية فى مصر ، وقال سعد زغلول لوينجات: إن « المجلترأ أقوى الدول العظمى ، وأكثرها ليبرالية ، وباسم مبادئ الحرية التى ترشدها وتهديها ، نطالب بأن نصبح . أصدقاءها » وقد عمل المندوب السامى البريطانى - بجلدر - لكسب الوقت ، لكنه أوصى وزارة الخارجية ببدء المحادثات ، وبالسماح بوفد يعرض قضيته فى مؤتمر سلام كان على وشك أن يعقد فى باريس ، وذلك كوسيلة لاستكشاف عدد من المشكلات السياسية ، وأجابت لندن - بعنف وحدة - وقررت اتخاذ « موقف حازم » ، واحتج سعد زغلول ، ونظم عدة لإجتماعات ، كما بعث ببرقية إلى مؤتمر باريس ، وفى ٨ مارس ١٩١٩ فى رئيس الوفد وثلاثة من أنصاره وهم ، محمد محمود ، وإسماعيل صدقى ، وحمد الباسل ، إلى جزيرة مالطة ، ولكن أدركت المجلترأ أن الأمة المصرية الحديثة قد ولدت بالفعل^(٣٥) .

وفى صباح ٩ مارس اندلعت الاضرابات والمظاهرات وأعمال التخريب فى جميع أنحاء البلاد من الأقصر إلى الإسكندرية ، وكانت القوة والجاهزية الرئيسية للوفد ، تكمن فى شخصية سعد زغلول ، الزعيم الشعبى الذى نشأ فى الريف ، وهو ابن فلاح مصرى من الوجه البحرى ، حفظ القرآن وتشرب الثقافة التقليدية فى الأزهر قبل أن يتعلم الفرنسية وهو فى الأربعين من عمره وقد اشترك فى الثورة العرابية سنة ١٨٨٢ ، بينما كان قاضياً شاباً جنباً إلى جنب مع أستاذه محمد عبده ، فبالإضافة إلى رجل مثل محمد محمود - المثقف المصرى خريج أكسفورد - والذى كانت ثروة أسرته ومكانة والده مرموقة فى صعيد مصر ، كان هناك رجل آخر هو أحمد لطفى السيد ، أحد مريدى الإمام محمد عبده ، وواصف غالى ، سليل عائلة قبطية معروفة ، ومصطفى النحاس ، وحافظ عفيفى - اللذان يمثلان شباب الحزب الوطنى من المتحمسين لمصطفى كامل ، لقد كان هؤلاء وآخرون يمثلون سوريا الجيل الجديد من قيادات الحركة الوطنية وساسة الأحزاب ، أما سعد

(٣٤) محمود زايد مرجع سابق - ص - ٩٩

(35) I & S. Lacouture, op. cit., pp. 86 -87.

زغلول وهو النتائج الحقيقي لسنوات المخاض الفكرى والتعمرس السياسى فلم يلبث - بعد انتخابه لزعامة الوفد - أن بدأ يجمع ما بين أسلوب مصطفى كامل ، الوطنى المتصلب ، وأفكار الإمام محمد عبده ، الداعية المصلح ونصير الحريات ، وقد اجتاز الوفد بزعامة سعد زغلول كل المصاعب والتحديات ، وقد عانى زغلول من السجن والنفى ، لكنه أصبح فى النهاية زعيم الوفد بلا منازع ، وقد أعطته الجماهير تأييداً كاسحاً وحاسماً قوياً ، وبعد ثلاث سنوات فقط من اختياره لزعامة الحزب ، أصبح قوياً بصورة كافية مكنته من طرد عدد من زملائه الأول الذين أدت طبيعتهم الشخصية وخلفيتهم الفكرية وروابطهم العائلية إلى ابتعادهم عن الاتصال بالجماهير أو التلاحم معها ، فطرد أحمد لطفى السيد ، المنظر واسع العلم والمعرفة ، ومحمد محمود ، المصلح المتحفظ إلى حد التزمّت ، وعلى يكن ، الأستقراطى التركى المصرى ، وغيرهم لأنهم كانوا يشكلون أغلبية فى اللجنة التنفيذية للحزب ، فقد كان على سعد زغلول أن يعلن سخطه عليهم كمبرر لسقوطهم فى أعين الجماهير ، إلا أن ما فقدته بخروجهم كسبه فى الأعضاء الجدد ، ومنهم مكرم عبيد - الحمّامى الشاب الذى صعد - فيما بعد إلى منصب سكرتير الحزب الذى يتطلع إليه الكثيرون ، وهو المنصب الذى صاغ مستقبله طوال عقدين من الزمان تقريباً . ويرجع أصله - مثل مصطفى النحاس الذى تولى زعامة الحزب بعد سعد زغلول - إلى أسرة ريفية من الطبقة المتوسطة⁽³⁶⁾ ، ولقد اكتشف سعد زغلول ، الذى كان يؤمن باحترام الدستور وسيادة القانون ، أنه فى سعيه للسلطة ينبغى أن يخاطب الجماهير بأسلوب يثير حماسها⁽³⁷⁾ .

ومثلما يتعين النظر إلى ثورة ١٩١٩ السياسية فى إطار نتائج الحرب العالمية الأولى ، كذلك فإن التغيرات الاجتماعية المصاحبة للثورة كانت تعكس التطورات الاقتصادية التى حدثت فى زمن الحرب ، فقد كشفت الحرب عن وجود ثغرات كبيرة فى الاقتصاد المصرى ، وأظهرت ما يعانى منه اقتصاد يعتمد أساساً على تصدير محصول واحد هو القطن ، وعلى التمويل الأوروبى الضخم لتسويق هذا المحصول ، وكان بنك مصر هو أهم المؤسسات الاقتصادية الجديدة التى تم إنشاؤها

(36) J M. Ahmed, op. cit, p p. 114-115.

(37) E. Kedourie, sa'ad Zaghloul and The British, St Antony's papers, Number 11. Middle Eastern Affairs, Number Two. Edited by A. Houcani, London, 1961, p 156.

بعد الحرب العالمية الأولى ، ويرجع الفضل في قيامه إلى طلعت حرب (٣٨) ، وبوصفه أحد الأعضاء المؤسسين في (الجريدة) صحيفة حزب الأمة ، فقد أكد طلعت حرب على وجوب أن تتضمن الصحيفة مقالات تعالج الشؤون الاقتصادية ، وكتب هو نفسه عديداً من تلك المقالات طالب في إحداها بالعمل على بناء قاعدة اقتصادية للاستقلال السياسي ، ومع أن البنك تم إنشاؤه برأس مال متواضع ، إلا أنه نال اهتماماً كبيراً من الصحافة المصرية ، واستخدم طلعت حرب بنك مصر كأداة للتطور الصناعي والبناء الاقتصادي ، وبدأ في عام ١٩١٣ ، استثمار قدر من فائض أرباح البنك في إنشاء الصناعات القومية ، وتوسع في هذا البرنامج في السنوات التي تلت ذلك (٣٩) ، وكان اتحاد الصناعات المصرية هو ثاني مؤسسة عكست اتجاهات جديدة في مجال الاقتصاد ، وقد شكلت هذه المؤسسة - التي أنشئت في ١٩٢٢ - القطاع الصناعي ذا الطابع العصري الحديث بدلا من مجموعات الحرفيين والصناع اليدويين المحليين التي كانت ما تزال هي السائدة في ذلك الوقت ، وكانت النقابة الزراعية المصرية العامة هي ثالث مؤسسة اقتصادية جديدة يتم إنشاؤها بعد الحرب ، وكانت تمثل مصالح كبار ملاك الأراضي في مصر ، ورغبتهم في إحراز سيطرة أكبر على تسويق القطن . وتعد تلك المؤسسات الاقتصادية الثلاث الجديدة من نتائج ثورة ١٩١٩ المصرية ، وعكست - مثلها مثل حركة سعد زغلول السياسية - اتجاهًا وطنيًا قويًا ، فكانت المطالبة بأن يكون البنك الجديد مصريًا صرفًا ، وبمساهمين مصريين فقط ، وبمجلس إدارة مصري ، مقدمة لأن يتولى بنك مصر مهمة خلق دعائم الاستقلال السياسي لمصر ، كما سعى اتحاد الصناعات المصرية - على الرغم من أنه كان خاضعًا لتحكم وسيطرة ما يمكن تسميته *Cosmopolitans of Egypt* أيضًا إلى خلق اقتصاد مصري أكثر تنوعًا بقطاع صناعي قوى ، وأثارت النقابة الزراعية المصرية العامة المشاعر ضد تحكم وسيطرة مجموعة صغيرة من التجار الأوروبيين في تسويق القطن المصري ، وكمنت تلك المطالب الوطنية الواضحة في الخيال القوى الخصب ، ولم يكن مؤيدو تلك المؤسسات الجديدة يحاولون خلق اقتصاد قومي مستقل

(٣٨) تخرج طلعت حرب من مدرسة الحقوق المصرية ، وبدأ حياته العملية كمترجم في الدائرة السنية ، ومارس أنشطة عديدة في المجالات الاقتصادية والسياسية ، ويعد بحق أب الاقتصاد القوي المصري الحديث

(39) R.L. Thignor, "The Egyptian Revolution of 1919: New Directions in the Egyptian Economy" Middle Eastern Studies, Vol. 12, No. 3, London, October, 1976, p. 58.

تمامًا ، بل كان هناك نوع من الادراك الواعى للحاجة إلى الاعتماد على قدر معين من المعونة الفنية ورموس الأموال الأجنبية ، وسعى الحس الوطنى فى الوقت نفسه إلى مقاومة اتجاهات كرومر الذى كان ينظر على ضوءها إلى مصر كدولة زراعية فقط ، تصدر القطن لتصنيعه خارجها ، وقد هيا التطور الصناعى ، ونظام التعريف الجمركية المعدلة لحماية للصناعات الوليدة ، وإنهاء الاعتماد على زراعة محصول واحد ، كما كان قيام تلك المؤسسات الجديدة بداية ازدهار للبورجوازية المصرية^(٤٠) ، وقد أدت تلك المؤسسات الجديدة إلى انتعاش عدد من عائلات القرن التاسع عشر فى مصر التى كانت محظوظة بدرجة تكفى لأن تصبح من ملاك الأراضي الكبار ، نتيجة للتغيرات التى حدثت فى قوانين الأرض وتوزيع الملكيات والضيايع الخاصة ، التى وزعها محمد على وخلفاؤه ، ويمكن اعتبار مكرم عبيد - بوصفه واحدًا من إفرافات ثورة ١٩١٩ - واحدًا من تلك الشخصيات التى تحمست لإنشاء المؤسسات الجديدة للاقتصاد القومى المصرى وهو الذى كرر - فى مناسبات عدة - القول بأن التطور الاقتصادى المصرى سوف يؤدى إلى إحداث تطور سياسى واجتماعى للأمة المصرية .

... وقد انضم مكرم عبيد إلى وزارة العدل فى ١٩١٣ كسكرتير للجريدة الرسمية (الوقائع المصرية) ثم عمل بعد ذلك سكرتيرًا خاصًا لهيئة المستشارين القانونيين البريطانيين للوزارة - من عام ١٩١٥ إلى عام ١٩١٨ - وقد حدث أن كتب مرة مذكرة اقترح فيها إنشاء نوع من التحالف بين مصر وبريطانيا ، وهو ما كان موضع اهتمام كبير فى ذلك الوقت^(٤١) ، واستقال من منصب السكرتارية فى عام ١٩١٩ ، واعتبر خطاب استقالته المفتوح - الذى نشر فى الصحف - على نطاق واسع ، أحد المقالات الوطنية الرائعة ، وقيل إن خطاب الاستقالة لفت انتباه سعد زغلول إليه للمرة الأولى ، ثم عين مكرم عبيد كمدرس فى مدرسة الحقوق الملكية حيث كان يلقى محاضرات فى قانون العقود Law of Contracts ، وكان محمد صلاح الدين ، وإبراهيم عبد الهادى ومحمد سليمان غنّام ، من بين طلبته ، وهم الذين أصبحوا - فيما بعد - أعضاء قياديين فى حزب الوفد ، لكنهم كانوا فى ذلك الوقت مجرد أعضاء فى لجنة الطلبة التابعة للحزب ، وقد طرد عبيد من مدرسة الحقوق فى أغسطس ١٩٢١ ، لأنه كان قد اشترك فى مأدبة تكريم لسعد زغلول ، وفى خطاب عام

(٤٠) المرجع السابق - ص - ٦٤ .

(٤١) من سجلات (المباحث العامة المصرية) القاهرة - ١٩٦١ .

ألقاه في سبتمبر ١٩٢١ ، أعلن صراحة أنه لن يحتفظ باسم « وليم » ، لأنه اسم أجنبي ، وأكد أنه يرغب من ذلك الوقت فصاعدًا ، في أن يعرف باسم مكرم عبيد ، وكان قد كتب - قبل ذلك بعامين في سنة ١٩١٩ - مذكرة عامة انتقد فيها سياسة سير والتربرونيات - المستشار البريطاني في وزارة العدل - وقد لفتت تلك المذكرة أنظار عدد من الوطنيين إليه ، وقد شارك عبيد بجاس في الترحيب بسعد زغلول سنة ١٩١٩ لدى عودته من منفاه في مالطة ، وفي تلك المناسبة قدم ويصا واصف مكرم عبيد إلى سعد زغلول ، بصفته الرجل الذي كتب مذكرة ضد المستشار البريطاني في وزارته ، إلا أنه حتى عام ١٩٢١ لم يكن هناك اتصال قوى مباشر بين سعد زغلول ومكرم عبيد^(٤١) .

.. فإذا رجعنا إلى مسألة مشاركة الأقباط عمومًا في الوفد ، فقد بدأت في وقت مبكر عن ذلك ، عندما توجه سعد زغلول واثنتان من زملائه لمقابلة المندوب السامي البريطاني في ١٣ نوفمبر ١٩١٨ ، فبعد ذلك بعدة أيام ، عقدت مجموعة من عليّة القوم الأقباط اجتماعًا في (نادي رمسيس) ، ناقشوا فيه حقيقة أنه لم يكن هناك بين الزعماء الثلاثة قبضى واحد ، وكان من الحاضرين فخرى عبد النور ، ويصا واصف ، وتوفيق اندراوس وقرروا مقابلة سعد زغلول وإثارة مسألة خلوص الوفد من عناصر قبطية ، وفي اللقاء طلب منهم سعد اختيار واحد يمثلهم في المرحلة الجديدة من الحركة الوطنية . فرشحوا ثلاثة أسماء : واصف بطرس غالى ، وسينوت حنا ، وجورج خياط ، وأدى الثلاثة القسم أمام سعد زغلول ، وفي حضور حمد الباسل - الوجه البديع من القيوم - الذى كان قد نفي مع سعد زغلول إلى مالطة وقد استفسر خياط بصورة مباشرة عن الدور القبطى في الحركة السياسية والوطنية ، فأجابه سعد زغلول قائلا له : « إن الأقباط مثل المسلمين لهم نفس الحقوق ، وعليهم نفس الواجبات ، فالمصريون جميعًا سواء »^(٤٢) .

وقد أصبح الأقباط وثيقى الصلة بسعد زغلول ، وأظهروا دوماً ولاءهم وإخلاصهم لزعامته ، وعندما واجه الانشقاق الأول في الحزب في يونيو ١٩٢١ ، ظل معظمهم إلى جانبه مؤيدين خطه الوطنى المتشدد من أجل الاستقلال الكامل ، وقد التف حول سعد زغلول أثناء خلافه مع على

(٤٢) من مقابلة مع السيد/سعد فخرى عبد النور في ١٣ سبتمبر سنة ١٩٧٤ .

(٤٣) طارق البشرى - مرجع سابق - الكاتب - العدد ١١٥ - القاهرة أكتوبر ١٩٧٠ .

يكن ، ثلاثة من الأقباط هم : واصف غالى وسينوت حنا وويصا واصف ، وكان مكرم عبيد بين الشباب الأقباط المحيطين بسعد زغلول ، وقد أعجب سعد زغلول بذكاء مكرم عبيد ، وثقافته وتأثيره القوى وسحر شخصيته لدى الجماهير، إلى جانب كفاءته كمتحدث وكاتب ممتاز باللغة الإنجليزية في ذلك الوقت ، لذلك فقد قدر لمكرم عبيد أن يكون مبعوث سعد زغلول إلى لندن في أكثر من مناسبة ليقدم الاحتجاجات ضد أنشطة المعتدلين في الحركة الوطنية وذلك لأن مؤيدى سعد زغلول كانوا يعتبرون أنفسهم الممثل الحقيقي للأمة المصرية . وفي رسالته للاجيشيان جورنال في لندن ، كتب مكرم عبيد مخاطباً محررها يقول⁽⁴⁴⁾ :

« علاوة على ذلك ، فأنت تسألني عما إذا كان أعضاء الوفد المصرى المعارضين يمثلون الأمة ، وإننى لأجيبك - مرة أخرى - بكل تأكيد ، إنه لا هم ولا حكومة على يمكنهم بأية طريقة الادعاء بأنهم يمثلون الشعب ، بل إننى أقول أكثر من ذلك إنهم وحكومة على هم المسئولون فقط عن إقناع الشعب البريطانى والأوروبى بأنه يوجد شقاق فى صفوفنا ، ومع ذلك ، فإن مهق الأساسية هى أن أثبت لهم - بعيدا عن أى ظلال من الشكوك - بأن الأمة المصرية متحدة ، وستظل كذلك فى دعم هدفها الوطنى وزعيمها المختار ، والمواطن الإنجليزى يحكم على الرجال بجوهر آرائهم وليس بتعبيرهم الظاهرى ، ولا يمكنك أن تنكر حقيقة أن لورد ملز ، والحكومة البريطانية وجزءا كبيرا من رأى العام البريطانى يدركون أن حكومة على تمثل رأيا لا يتفق مع الإجماع العام للأمة المصرية بخلاف زغلول باشا ، الذين يعتبرونه متطرفا - وقد ذكر مستر بيرشيفال لاندون الذى أعلن فى مقال سابق فى الديلى تلجراف أن زغلول باشا لم يكن فى إمكانه التفاوض مع البريطانيين ، لأنه كان معارضا لمشروع ملز ، وهو أيضا الذى يتحدث فى مقال آخر عن الأمل فى أن على باشا بنزوعه إلى حل وسط معتدل سوف يتوصل مع الحكومة البريطانية إلى الهدف المشترك ، إنك تقول أن زغلول باشا كان يرغب فى التفاوض مع على باشا ، حقا لقد كان كذلك ، ولكن وفقا لشروطه الخاصة ، وعندما رفضها على باشا ، كان من الطبيعى أن يعارضه بكل ما أوتى من قوة إلى حد أنه كان لابد من اتخاذ إجراءات عسكرية قوية لحماية حكومة على من غضب الشعب الذى يدعون الآن أنهم يمثلونه ، وعلى الرغم من هذه الحقائق ، فازلت تثير مسألة رئاسة الوفد التى كانت حكومة على ومؤيدوها - وما يزالون - يستغلونها بطريقة مزرية ، إن

(44) The Egyptian Journal, London, September 8, 1921

المسألة واضحة برمتها ، ولم أقابل مواطناً إنجليزياً واحداً لا يتفق مع معظم الشعب المصرى فى هذه النقطة . وأخيراً ، أنت تسألنى عن السبب الذى من أجله يطالب زغلول بإلغاء الأحكام العرفية ، بينما كان عدلى باشا يتفاوض - دون أن يضغط - لإلغائها ، كما حدث فى مفاوضاته مع ملز ، وإننى فى الواقع عاجز عن فهمك ، إن زغلول باشا اشترط إلغاء الأحكام العرفية قبل مغادرته باريس ، وفى مصر - قبل أن تثور الخلافات والتزاعات الحالية بينه وبين عدلى باشا بوقت طويل - وعندما طلب منه التعاون فى المفاوضات الرسمية ، وافق على ذلك ، مشروطاً بالنسبة له ولعدلى باشا على حد سواء ، ألا تجرى أية مفاوضات رسمية قبل إلغاء الأحكام العرفية ، وهو الإلغاء الذى سيثبت حسن نية الحكومة البريطانية » .

وكان مكرم عبيد - فى ذلك المقال - يشدد على تمثيل سعد زغلول الحقيقى والصادق للأمة المصرية ، مؤكداً أن عدلى باشا - رئيس الوزراء ، يجب ألا يوافق على بدء المفاوضات الرسمية طالما أن الأحكام العرفية كانت ما تزال قائمة وسارية المفعول ، وقد أبدى عبيد حيوية ونشاطاً بالغين أثناء مهمته فى لندن ، وكتب مقالات عديدة فى الصحف ، وعقد لقاءات صحفية مع كثير من الصحفيين البريطانيين ، وقد عقد - على سبيل المثال - فى يوم واحد لقاءين أحدهما لصحيفة لندن أيفننج نيوز ، والآخر للمانشستر جارديان ، ونشرت صحيفة الأيفننج نيوز المقابلة تحت عنوان « البروفسور المصرى يطالب باستقلال تام » ، بينما نشرت المانشستر جارديان المقابلة معها تحت عنوان « المفاوضات البريطانية - المصرية ، رسول الاستقلال الحقيقى ... لا لمشروع ملز^(٤٥) » . وكتب المانشستر جارديان تقول :

« إن مهمة البروفسور مكرم عبيد هى مخاطبة رأى العام هنا بالأسباب التى دفعت أتباع زغلول إلى اتخاذ موقف المعارضة من وفد عدلى الذى يقوم حالياً بالتفاوض من أجل معاهدة مع الحكومة البريطانية ، واعتبار أن أية معاهدة يتم توقيعها بهذه الصورة لن تلقى الموافقة فى مصر بصفتها حلاً مقبولاً^(٤٦) »

وفى ٩ أغسطس ١٩٢١ ، ألقى عبيد خطاباً مطولاً - كصيف على اللجنة البرلمانية المصرية - فى

(٤٥) مشروع تقدمت به الحكومة البريطانية كبديل للاستقلال الكامل لمصر ، وقد رفض المشروع سعد زغلول ورفاقه وأغلب قيادات الحركة الوطنية .

(46) The Manchester Guardian, August 4, 1921 .

مأدبة أقيمت في مجلس العموم أثار فيه عدة نقاط ، مثل : حرية الكلام في مصر ، والمهزلة الديمقراطية ، وعلل أسباب عدم نفته هو وزملاؤه في المفاوضات الرسمية⁽⁴⁷⁾ وأوجز في خطابه الخلافات بين زغلول وعلى قائلًا :

«إن زغلول يعبر عن المثل الوطنية ، وهو المندوب المعترف به للأمة المصرية ، بينما على هو ممثل الحكومة فقط ، وبذلك يكون في الحقيقة رجل بريطانيا» ، وواصل عبيد خطابه بتقديم تصور للعلاقات الإنجليزية - المصرية الجيدة ، وكان يعتقد أن الصداقة من الممكن أن تقوم وتتدعم إذا ما تحقق لمصر استقلالها ، فهو يقول :

«إنكم - أيها الإنجليز- بمساندتكم للقضية المصرية لا تقفون فقط عند حد الوفاء بوعود بلدكم الحر ولكن أيضًا تخدمون مصالحه الحيوية » ، وتجدر هنا ملاحظة أن أى تقييم لخطاب عبيد لا يتعين إجراؤه بمقياس الحركة الوطنية وحدها لكن بمقياس مقدرة عبيد على التعامل مع العقلية السياسية البريطانية ، فقد كان كثير من السياسيين المصريين في ذلك الوقت يتمنون إما إلى أصل تركي ، مثل على يكن باشا ، أو ينحدرون من الريف المصري مثل سعد زغلول باشا ، والنموذج الأول كان مشهورًا بقدرته على التعامل مع العقلية السياسية الغربية بسبب قدرته على التحدث بلغات أجنبية حيث تلقوا تعليمهم طبقًا للنظام الأوروبي والثقافة الغربية ، أما النموذج الثاني ، فقد بدأ تعليمه في الغالب في المدارس الحكومية المحلية أو في المدارس الابتدائية الدينية (الكتاتيب) ، لذلك كان معظمهم يفتقد خبرة الثقافات الأجنبية ، كما كان بعضهم عاجزًا عن التعامل مع العقلية الأجنبية ، أما عبيد فقد كان واحدًا من تلك القلة التي بدأت حياتها في الريف المصري ودرست في كل من المدارس الوطنية والأجنبية إلى أن أصبح فريدًا في نظره الثقافية ، وأصبحت لديه القدرة على التعامل مع كل من الشئون المحلية والأجنبية ، وهذه الميزة هي واحدة من أكثر العوامل وضوحًا في شخصية عبيد ، وأعنى بها ثنائية التأثير : داخليًا وخارجيًا .

وقد أصبح عبيد أكثر انخراطًا في الحركة الوطنية بينما توثقت علاقاته بسعد زغلول ، وأصبح الناطق بلسانه إلى حد أنه كان معروفًا بأنه « ابن سعد البار » ، وفي أحد لقاءاته الصحفية حول مداولات على - ملز ، أعلن عبيد :

(47) M. Ebeid, *Versus the Milner Scheme, or The Zaghloul - Adly Issue*, London, 1921 .

« أعتقد أن مشروع ملز سوف يحظى بالقبول مع تحفظات معينة ، وإننا مع ذلك نعتزم بدء مقاطعة شبيهة بمقاطعة غاندى ضد بريطانيا دولة الاحتلال » ،

« فإذا كان على باشا يرغب في العمل بإخلاص وتفان من أجل البلاد ، فلا يوجد إلا وسيلة واحدة يمكنه بها البرهنة على إخلاصه للأمة ، ألا وهى العمل على التحالف مع زغول باشا ، لقد فقدت الأمة كل الثقة في على ، إنه سبب الكارثة والمصيبة العظمى التى تكبدها الأمة حاليًا⁽⁴⁸⁾ » ، وفي مقال آخر في الأجيثيان جورنال ، واجه عبيد مشكلة مع الصحافة البريطانية عندما نشرت :

« لقد ورد إلينا من أحد المراسلين الذى سمع السيد/ مكرم عبيد وهو يخاطب عددًا من الطلبة المصريين في إحدى فنادق لندن الأسبوع الماضى قائلاً إن زغول باشا كان قد أعطاه أموالاً للصحافة في إنجلترا » .

وقد كتب عبيد خطابًا إلى رئيس تحرير « الأجيثيان جورنال » قال فيه :

« سيدى ، يتعين على أن أطلب منك أن تنشر رأيي وأن تقوم بالكذيب المطلق للبيان المنشور في عددكم الأخير والذى ورد فيه أنني ذكرت أن لدى مالا لأدفعه للصحفيين البريطانيين ... لقد ألقيت خطابي أمام حوالى ثمانين مصريًا ، وهؤلاء في إمكانهم إثبات حقيقة أن ذلك البيان السخيف لا أساس لوجوده على الإطلاق » ...

مكرم عبيد

فندق « سيسيل » ستراند ، لندن

١٠ سبتمبر ، ١٩٢١⁽⁴⁹⁾

واستمر الحوار بين عبيد والصحافة تحت عنوان « من المبعوث الجديد لزغول باشا إلى رئيس تحرير الأجيثيان جورنال :

« سيدى ، هل تسمحون لى بالرد بإيجاز على المقال المنشور في عددكم بتاريخ ١١ أغسطس ، وعنوانه « المبعوث الجديد لزغول باشا » ، وسوف أتغاضى - بعد إذنك - عن التلميحات

(48) F.O.371/7744, December 27. 1921. Allenby to Curson

(من مراسلات الخارجية البريطانية)

(49) The Egyptian Journal September 15, 1921

الشخصية نحوى ، وسخريتك من الشخصية الحساسة للبروفسور المصرى ، وأنتك لمخطئ تماماً - يا سيدى - فى إدراكك لمهتقى التى صورتها بأنها مثل « مناقشة الخلافات العائلية على مسمع من الناس » إننى موجود هنا لأطلع الشعب البريطانى بما لا ترغب أو تجرؤ حكومة عدلى على قوله ، وفيما يتعلق بادعاءاتك بأن أتباع زغلول لم يرفضوا مشروع ملتر ، أعتقد أنك تفسد الحقائق وتشوهها ، فالأمة لم توافق قط على مشروع ملتر ، كما هو فى الواقع ، بل وافقت عليه مثلما جرى تفسيره وشرحه لها بواسطة المبعوثين ، كما إنه كذلك لم تتم الموافقة عليه بدون تحفظات ، وأنت تعرف أفضل منى أنه إذا كان هناك مسئول عن تلك التفسيرات ، فإن ذلك المسئول لم يكن زغلول باشا الذى بحث ببرقيته الشهيرة من فيشى ، معلناً أن « المشروع مرفوض من الوفد » لأنه خارج التفويض الممنوح له ، ولأنه لا يعطى لمصر استقلالها على الرغم من أنه يضمن للبلاد بعض المصالح والفوائد التى يمكن إدراكها ، أما سبب تقديمه إلى الأمة ، فقد كان من أجل تفادى حدوث خلافات وانشقاقات داخلية بين أعضاء الوفد ، وهى الخلافات التى بدأت فى الظهور بالفعل نظراً لأنه حتى فى تلك المرحلة المبكرة ، كان المعارضون قد أظهروا تعاطفهم الواضح والصريح مع عدلى ، وأنهم كانوا - مثل عدلى باشا - يؤيدون مشروع ملتر .

وقد علق رئيس تحرير الأجيبيان جورنال بقوله :

« إننا ننشر - بسرور - رد السيد/ مكرم ، ونشكره على إعطائه فرصة لقراءتنا لدراسة وجهات النظر بصورة ملائمة ، إنه يتحدث عن أعضاء الوفد الرسمى المصرى (مؤيدى عدلى باشا) كأنهم أفراد « ليس لديهم تفويض من الأمة » . وماذا يعنى بـ « تفويض من الأمة ؟ » . فالتفويض الذى لدى عدلى باشا لا يختلف بأية صورة من الصور عن التفويض الذى لدى زغلول باشا ، وأقصد بذلك حصولها على وثائق الثقة من الهيئات النيابية ، كما أن كلا الجانبين لديه قدر من ذلك التفويض ، ويقدم السيد/ مكرم ، سبباً آخر لإقدامه على شجب الوفد الرسمى ، هو أن المفاوضات « يتم إجراؤها فى جو الإرهاب والاضطهاد ، وفى ظل الأحكام العرفية » ... وجو المفاوضات الحالية لا يختلف عن ذلك الجو الذى أجرى فيه سعد باشا مفاوضاته « (٥٠) » .

.... ولقد عبر سعد زغلول عن ثقته واعتزازه برؤيته لرفاقه الأقباط يحيطون به جنباً إلى جنب مع إخوتهم الوطنيين المسلمين ، وإنه لأمر هام له مغزاه أن يكون فى إمكاننا أن نجد موقفاً مماثلاً لذلك

(50) The Egyptian Journal, August 25, 1921.

عام ١٨٨٢ - في حركة عرابي - وكذلك في جهود مصطفى كامل في الميدان نفسه ، وإنه لمن الواضح أن حركة سعد زغلول كانت حركة وطنية مصرية خالصة إلى حد بعيد ، مجردة من أية نزعة دينية ، بينما تضمنت حركة عرابي ، وجهود مصطفى كامل لإحياءات إسلامية واضحة ،^(٥١) ولو تابعنا شخصية الحركة الوطنية المصرية لأدركنا أنه بينما كانت حركتا عرابي ومصطفى كامل لا تخلوان من مسح دينية ، فإن مسلك سعد زغلول ورفاقه كان وطنياً مصرياً صرفاً ، ويقودنا ذلك إلى الخمسينات والستينات من هذا القرن ، لتتعرف على فكر جمال عبد الناصر وسياسته ، كما حددها في كتابه « فلسفة الثورة » في سنة ١٩٥٣ . وفيه اعتبر الدائرة الإسلامية كأحد المجالات الكبرى للسياسة الخارجية المصرية ، وعلى الرغم من حقيقة أنه لم يكن هناك أحد الأقباط بين « الضباط الأحرار » ، وأن عددًا من أعضاء التنظيم كانوا متأثرين بفكر وتنظيم جماعة الإخوان المسلمين ، مثل كمال الدين حسين وعبد المنعم عبد الرؤوف وحسين الشافعي ، إلا أن المنطق العلماني لعبد الناصر كان واضحاً وهو الذي واجه حركة الإخوان المسلمين مرتين الأولى عام ١٩٥٤ والثانية سنة ١٩٦٥^(٥٢) ، وقد قاوم عبد الناصر - بشدة - كل عروض إنشاء حلف إسلامي وذلك من زاوية سياسية متقدمة ، إلا أن الدور القبطي في الحياة السياسية في عهد عبد الناصر كان محدوداً ، بسبب اختفاء الأحزاب السياسية وضعف المؤسسات الديمقراطية بوجه عام^(٥٣) ، ولذلك فإن الدور النشط للأقباط - أثناء ثورة ١٩١٩ - يجسد ذروة تاريخهم الوطني ، وفي ٢٢ ديسمبر ١٩٢٢ ، وجهت السلطات البريطانية في القاهرة إنذاراً إلى الشخصيات البارزة حول سعد زغلول ، تطلب منهم الإقامة في الريف وإلا أقدمت على نفيهم من مصر ، ولقي الإنذار الرفض من سعد زغلول ومصطفى النحاس وفتح الله بركات ، وعاطف بركات وسينوت حنا ، ومكرم عبيد ، فقرر نفيهم إلى جزر سيشل ، ويرى د . حسين مؤنس - الكاتب والمؤرخ المعروف - أن تأكيد مكرم عبيد على ضرورة رفض الإنذار هو الذي دفع زملاءه إلى اتخاذ القرار ، إذ كانوا يناقشون الأمر عند وصوله إلى اجتماعهم ، وهو الذي أصر بشدة على ضرورة رفضهم لذلك الإنذار^(٥٤) .

(٥١) محمد زكي عبد القادر ، محبة المسحور من تاريخ مصر ، (١٩٢٣ - ١٩٥٢) القاهرة ، ١٩٧٣ . ص - ٤١ .

(52) For details, see R.P. Mitchell, *The Society of The Muslim Brothers*, Chapter V, Oxford, 1969 .

(53) O.F. Meinardus, op. cit., Cairo, 1968, pp. 46 - 50; and E. Wakin, *Alonely Minority (The Modern Story of Egypt's Copts)* New York, 1963, p. 172.

(٥٤) د . حسين مؤنس ، « دور الأقباط في ثورة ١٩١٩ » ، مقالات في آخر ساعة القاهرة ، ٢٣ مايو ١٩٧٥ .

ويذكر الأستاذ محمود سليمان غنام في كتابه أن وصول مكرم عبيد إلى الإسكندرية من لندن في ٢٠ ديسمبر ١٩٢١ وخطبه المتتالية التي ألقاها في محطات القطار أثناء طريقه إلى القاهرة والترحيب الحار به في « محطة مصر » ، والتهنئات المدوية ضد الاحتلال البريطاني ، التي تضمنت هتاف « يسقط اللبني » ، بالإضافة إلى استعدادات الطلاب للاحتفال بنجاح مكرم عبيد في مهمته بلندن وفشل مفاوضات (على - كيرزن) كل هذه العوامل دفعت دار المندوب السامي إلى توجيه ذلك الإنذار للوطنيين المصريين^(٥٥) ، ويصف أحمد شفيق باشا في كتابه « حوليات مصر السياسية » الاضطرابات والمظاهرات في القاهرة عند وصول مكرم عبيد - كمبعوث سعد زغلول من لندن - ويذكر أن جندياً بريطانيا لقي مصرعه وجرح آخر^(٥٦) ، ويصرف النظر عن السبب الحقيقي وراء قرار نفي الزعماء المصريين ، فقد كان لهذا القرار آثار هامة في الحياة السياسية والمستقبل الوطني لكل من المنفيين ، لأن مسألة نفيتهم مع سعد زغلول كانت تعني - ضمناً - أنه قد تم إضفاء شرف الوطنية عليهم في ظل ظروف بالغة الحساس ، وكما ذكرنا من قبل ، فقد كان ذلك ذا أهمية عظمى بالنسبة لمكرم عبيد كنقطة تحول حاسمة في حياته السياسية ، تعني انتقاله من مرحلة السياسي الحزبي إلى الثوري الوطني .

... وقد تمثلت نتائج فترة المنفى بالنسبة لعبيد في ثلاث نتائج رئيسية : أولها أنه أصبح وثيق الصلة - على المستوى الشخصي - بسعد زغلول ، وأكثر التصاقاً وصداقة وألفة بالزملاء الآخرين ، خاصة مصطفى النحاس ، ويقال إن مكرم عبيد عندما عانى من مرض الملاريا في منفاه بجزيرة سيشل ، طلبت سلطات المستشفى أن يرافقه أحد زملائه أثناء فترة العلاج ، فطوع لذلك النحاس ، وظل معه في المستشفى إلى أن شفى . وكان مما ورد في تقرير السلطة البريطانية في عدن :

« يشرفني أن أبلغك أن ولیم مکرم بك ، سمح له بدخول المستشفى البريطاني للعلاج من حمى في ٣ فبراير ١٩٢٢ ، وتم صرفه من المستشفى في ١٣ فبراير ١٩٢٢ ، بعد أن شفى تماماً »^(٥٧) ، وكانت

(٥٥) محمود سليمان غنام ، وأضواء على أحداث ثورة ١٩١٩ والقاهرة - ١٩٦٩ ص - ٤١٠ .

(٥٦) أحمد شفيق - حوليات مصر السياسية - مجلد ٢ . القاهرة ، ١٩٢٧ ص - ٥٤٤ .

وأيضا :

F.O. 371/7741, January 2, 1922, Allenby to Curzon .

(57) F.O. 371/7734, May 3, 1922 — (From Political Resident, Aden, to H.M. Secretary of State for Colonies, London)

النتيجة الثانية ، هى أن فترة المنفى كانت فرصة أتاحت لمكرم عبيد لصقل لغته العربية ، مما مكّنه من أن يصبح خطيباً مفوهاً ممتازاً ، إذ كان يوجد بين زملائه ، عاطف بركات ، ابن أخت سعد زغلول ، الذى كان فيما مضى ناظرًا للمدرسة القضاء الشرعى ، وساعد عبيداً كثيراً وطوال عامين تقريباً على تأكيد فصاحته فى اللغة العربية ، حتى قدر له أن يصبح واحداً من أشهر الخطباء فى تاريخ الحياة السياسية المصرية^(٥٨) ، وآخر تلك النتائج ، هى أن فترة المنفى ، كانت بمثابة العنصر الأساسى الذى دعم فكر مكرم عبيد ورؤيته الوطنية ، كما أن فترة المنفى كان لها الفضل فى دعم وتعزيز العلاقة الوثيقة بين مكرم عبيد ومصطفى النحاس ، من بين مجموعة سعد زغلول والى تحدد بها مستقبل الحياة السياسية المصرية فى فترة معينة خلال نشاطها المشترك فى الحزب والحكومة .

ولعله من أطرف الأحداث بنى مكرم عبيد ذلك الالتماس الذى بعث به الأستاذ لويس فانوس - المحامى - إلى مدير « نيوكوليدج » بأكسفورد وخريجها يطلب منهم استخدام مساعدتهم الحميدة لإطلاق سراح مكرم عبيد باعتباره خريجاً سابقاً من تلك الكلية ، وتبدو أهمية ذلك الخطاب المؤرخ فى يناير ١٩٢٣ ، فى أنه يقدم تلخيصاً لجهود مكرم عبيد السياسية حتى ذلك الوقت ، ولقد جاء فيه :

« عزيزى مدير الكلية »

أتمس أن ألفت نظركم ، ونظر الكلية ، إلى قضية وليم مكرم عبيد ، العضو البارز بين خريجي الكلية ، والذى تم نفيه فى ديسمبر الماضى بواسطة العسكرية البريطانية إلى جزر سيشيل ، فى المحيط الهندى ، حيث يقاسى الآن من صحة معتلة بسبب إصابته بالمalaria ، بعد أن تم حجزه فى عدن وهو فى طريقه إلى سيشيل فى أوائل هذا العام ، وإننى لأرجو - بإقدامى على الكتابة إليكم - تحقيق هدف مزدوج :

أولاً : أن أشرح للكلية طبيعة الدور الذى لعبه مكرم منذ ١٩١٩ والذى أشعر بثقة أن الكلية سوف تراه دوراً مشرفاً ومخلصاً ومتواثماً مع تقاليد « نيوكوليدج » .

وثانياً : أن أجدد لصالحه الوزن المعروف للكلية ، فى محاولة للحصول على إطلاق سراحه وإعادةه إلى وطنه لضمان العلاج الطبى الذى يحتاجه بصفة عاجلة ، وكى يستعيد أيضاً حريته

(٥٨) من مقابلة مع السيد سعد فخرى عبد النور فى ١٣ سبتمبر ١٩٧٤ .

الشخصية بصفته مواطناً يحترم القانون ... وعندما أدت التطورات السياسية في مصر ، في ربيع ١٩١٩ ، إلى حدوث صدام بين الوطنيين المصريين والسلطات العسكرية البريطانية ، واكشف مكرم عبيد أن واجباته كسكرتير للمستشار القضائي البريطاني (الذى كان عليه أن ينجز - فى ذلك الوقت - قدراً كبيراً من المهام للمندوب السامى البريطانى) تضعه فى موقف أخلاقى دقيق للغاية ، لكونه وطنياً ، ولأنه كان قادراً على الوصول إلى الوثائق السرية البريطانية بحكم وظيفته ، فأدرك بأنه لن يكون أمراً مناسباً أو عادلاً بالنسبة للبريطانيين ، فقد يجد نفسه فى موقف قد تصطدم فيه واجباته الوطنية كمصرى ، مع واجباته كسكرتير موثوق فيه لرئيسه البريطانى ، فأبلغ رئيسه على الفور بآرائه السياسية فى صراحة ووضوح ، وطلب منه إعفاءه من ذلك المنصب ، وأصبح مكرم - بعد ذلك - نصيراً لزغلول باشا ، الزعيم الوطنى الشهير ، الذى أحرز لديه بعض النفوذ الذى أعتقد أنه قد وظف قدراته السياسية للتأثير فى البريطانيين ، وكان ذلك هو سبب إقدام سعد زغلول باشا على إرساله فى العام الماضى ، كمبعوث إلى بريطانيا لتحقيق إدراك أفضل للمطالب المصرية ، وشرح موقف زغلول من حل القضية المصرية ، وهو ما أنجزه مكرم بكفاءة فى عدة مقابلات صحفية فى صحف « إيفنج نيوز » و « مانشستر جارديان » و « الديلى نيوز » ... إلخ من أغسطس إلى ديسمبر ١٩٢١ ، وحدث - أثناء هذه الفترة - انقسام مشوم فى صفوف الوطنيين ، فأيد مكرم زغلول باشا ، بينما كنت أنا شخصياً مؤيداً لعلى باشا ، إلى حد أننا لم نكن متفقين دائماً فى سياستنا ، لفترة من الوقت ، على الرغم من أننا جميعاً كنا نسعى ، بطرق مختلفة ، وبكل ما فى طاقنا من قوة لإيجاد إدراك أفضل للعلاقة بين بلدنا الذى ولدنا فيه ، وبلد ثقافتنا وصادقاتنا (يقصد بريطانيا) ، وقد غادر مكرم لندن فى منتصف ديسمبر ١٩٢١ ، ووصل إلى مصر فى العشرين منه ليجد فى استقباله والترحيب به آلاف المواطنين ، ولعل ذلك الاستقبال - مقروناً بنشاطه السابق فى الصحافة البريطانية كنصير لزغلول - قد جعله موضع اهتمام خاص من السلطات العسكرية البريطانية التى كانت فى ذلك الوقت تعترم القيام ببعض إجراءات القمع والقهر ضد زغلول ، لكى تتمكن « الحزب » العللى ، من التكاثر مع ثروت باشا - رئيس الوزراء الجديد ، والاحتشاد لدعمه ، ونتيجة لذلك ، وفى ٢٢ ديسمبر ١٩٢١ ، أى بعد يومين من وصوله إلى مصر ، صدرت الأوامر إليه ، وإلى عدد من أبرز أنصار زغلول ، بل وزغلول باشا نفسه أن يمتنعوا عن ممارسة أى نشاط سياسى ، واستسلم بعض أولئك الأنصار والأعوان واعتزلوا السياسة ولكن زغلول نفسه ومعه مكرم عبيد وأربعة آخرين من أعضاء لجنته رفضوا ذلك مطالبين بحرية ممارسة حقهم كمواطنين مصريين فى إطار القانون ، لذلك أقدمت السلطات

العسكرية البريطانية التي كانت تتصرف في ظل الأحكام العرفية ، وليس وفقا لأي قانون مدني مقبول ، على إلقاء القبض عليهم ، وترحيلهم أولا ، إلى عدن ، حيث أصيب مكرم بالمalaria ، ثم إلى سيشل ، حيث يعانى الآن من آثار تلك الحمى والتي تشكل خطرا كبيرا على حياته ، ولم يتم أبنا الادعاء بارتكاب أية جريمة أو إساءة للقانون من جانب مكرم أو زغلول وأعوانه باستثناء عصيانها لأوامر القائد الأعلى للقوات البريطانية ، بالانسحاب من الحلبة السياسية ، وهي أوامر مشكوك في شرعيتها تماما ، وتعتبرها جهات عديدة أوامر استبدادية وغير صائبة ، ومكرم - الذى يتعرض حاليا لمعاملة رهيبة - لم يفعل أكثر من خدمة وطنه وهو ما شعر أنه واجبه بصفته رجلا تربي وتثقف في ظل الأفكار البريطانية الداعية إلى الالتزام بالقانون وضمان حقوق المواطن ، فقد احتج على ما اعتبره أوامر مستبدة من جانب الأوتوقراطية العسكرية ذات السلطة الأعلى في مصر في ذلك الوقت ، ورفض إطاعتها والإذعان لها ، وقد يهمل أن أشير إلى أن البرنامج الدقيق الذى كان زغلول ومكرم ، وما يزالان يدافعان عنه ، منذ مدة طويلة بوصفه البرنامج الوحيد القابل لتحقيق التسوية المرضية المرغوب فيها ويسعى لورد اللنبى حاليا - بلحاح - ومنذ نفهم ، للمطالبة لدى حكومة صاحبة الجلالة ، بأخذه باهتمام إذ أنها الصيغة الوحيدة المقبولة من الوطنيين ، لأنها تجسد عناصر الحل المشرف الوحيد الممكن ، مما يدل على أن مكرم كان ذا أثر فعال في إيجاد وإقرار موقف أفضل كنا ، وما زلنا ، نعمل من أجله بطرق مختلفة ، والسياسة الحالية لحكومة صاحبة الجلالة ليست - في الواقع - شيئا آخر مغايرًا لبرنامج زغلول الخاص ، من الناحية النظرية على الأقل لذلك فإن هذا البرنامج ، من الناحية العملية ، ما يزال محل معالجة غير كاملة وذلك بعد أن تم ائتمان خصوم زغلول - الباشوات الأتراك والمصريين - الذين يمثلهم ثروت باشا رئيس الوزراء الحالى ، على أمر تنفيذ ، بدلا من ترك هذه المهمة لواضعيه أنفسهم ، ولذلك لأنه نظرًا لأن سلوك مكرم - طوال هذه الفترة - كان مشرفًا وأمينًا وواضحًا ، ووفيًا ، بصورة يقتدى بها ، تجاه وطنه وتجاه بريطانيا كذلك ، التي كان يعتبرها دائمًا أفضل صديق لوطننا . ونظرًا لأن سلوكه كان وما يزال دائمًا يتميز بمواقفه الشجاعة ، التي تعتبر جميعًا صفات تلقى الاحترام والتقدير في كل إنسان ... من أجل هذا ، فإننى أطلبكم بتأييد موقف مكرم لدى رئيس الوزراء ووزارة المستعمرات ، وخريجى « النيوكوليدج » القدماء الذين يتولون مناصب مؤثرة حاليًا ، مثل وكيل وزارة المستعمرات ووليم أورمسي جور - عضو البرلمان المحترم ، وه . أ . فيشر - عضو حزب المحافظين المحترم ، وبأية طريقة أخرى قد ترى أنها قد تساعد على ضمان إطلاق سراح مكرم ، في أقرب وقت ، وبذلك

تنقذ حياة إنسان وتنقذ مواهبه وقدراته وشخصيته من أجل مزيد من الخدمات النبيلة .

ودعتم لى - عزيزى - مدير الكلية .

الخلاص

لويس فانوس

وتنبثق الأهمية الحقيقية لالتباس « فانوس » من حقيقة أنه وعبيد لم يكونا متفقين على آراء سياسية واحدة ، وكانت اتجاهاتها السياسية مختلفة ، فبينما كان عبيد يتحمس بشدة لتأييد زغول باشا ، ممثلاً الاتجاه الوطنى كان « فانوس » واحدًا من أولئك المؤيدين لعدلى فى موقفه المعتدل فيما يتعلق بمعالجة المطالب الوطنية المصرية وقبل رسالة فانوس ، بعث اللبى برسالة إلى كيرزن فى ٤ فبراير ١٩٢٣ يعارض فيها ادعاءاته ومطالبه^(٥٩) ، وجدير بالذكر أن أتباع زغول وأنصاره قد حصلوا على تعاطف أكبر بعد نفى زعمائهم ، وتحمس الشعب بشدة لهم ، وكان أحد أمثلة ذلك انتخاب عاطف بركات ومكرم عبيد ، كعضوين فى الاتحاد العام للمعلمين ، بينما كانا فى منفاهما فى سيشيل ، وبعد شهر من عودته من المنفى فى ١٩ يوليو ١٩٢٣ ، ألقى عبيد خطابًا حماسيًا جامعيًا فى مجموعة من الشباب فى شبرا ، مؤكدًا فيه أن كل المصريين - أقباطا ومسلمين - أخوة ، لأن مصر أهمهم ، وزغول أبوهم ، واقتبس عبيد محادثة جرت بينه وبين زغول ، كان قد أشار فيها عبيد إلى أنه يوجد أقباط فى جماعة زغول أكثر من المسلمين ، فرد زغول عليه بقوله إنه لم يكن يعرف عبيدا وزملاءه بصفتهم أقباطًا ، ولكن بوصفهم مصريين قبل كل شىء^(٦٠) .

وإذا ما تتبعنا حياة عبيد السياسية بعد عودته إلى مصر ، فإننا نجد أنه أصبح أكثر انشغالا بالحركة الوطنية ومتابعًا - كذلك - حياته الوظيفية كمحام مرموق خصوصًا فى الدفاع عن القضايا ذات الصبغة السياسية ، وفى سنة ١٩٢٤ أصبح زغول رئيسًا للوزراء ، ومع ذلك ، لم يكن عبيد وعدد من زملائه فى مجلس الوزراء ، ولكن صهره ، مرقص حنا ، أصبح وزيرًا للأشغال العامة فى تلك الوزارة^(٦١) ، وقد أصدر سعد زغول نداء لجمع شمل الأمة فى ديسمبر ١٩٢٢ خاطب

(59) F.O. 37/8964, February 12, 1923, Curzon to Allenby.

(٦٠) د. حسين مؤنس ، آخر ساعة ، ٢٣ مايو ١٩٧٣ .

(٦١) تزوج مكرم عبيد من عابدة مرقص حنا فى نوفمبر ١٩٢٣ . ولم يرزقا بأبناء .

المصريين في نهايته مطالبًا إياهم بأن ينهوا العالم كله إلى أنه توجد في مصر أمة ناهضة تسعى إلى الحرية بمجدية ، وتكافح من أجل الاستقلال بطريق مشروع^(٦٢) وعندما تصاعد النضال من أجل الاستقلال ، أصبحت مشاركة الأقباط أكثر فعالية في تلك الفترة ، وقد تخلص الأقباط في ظل ذلك المناخ السياسى والاجتماعى من حساسيات الأقلية ، وصدر تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ الذى تضمن أربعة تحفظات يتعلق ثالثها بحماية الأجانب والأقليات ، وقد اتخذ الأقباط المصريون موقفًا صلبًا ضد ذلك التحفظ بوجه خاص ، وهاجمت الصحف القبطية التصريح بسبب التحفظ الثالث أساسًا ، مؤكدة على أن الأقليات لم تلتبس الحماية أو الرعاية الخاصة لأنهم يشعرون بأنهم جزء لا يتجزأ من نسيج الأمة ، وأنهم لا يقبلون حاية الأجنبي^(٦٣) وفى ٣ أبريل ١٩٢٢ أعلن عن تشكيل لجنة الدستور من ثلاثين عضوًا ، وقاطعها حزبا الوفد والوطنى ، وكانت الأقليات ممثلة فى اللجنة طبقًا لتمثيل مماثل كان سائدًا فى الجمعية التشريعية عام ١٩١٣^(٦٤) ، وقد مثل الأقباط الأنبا يوانس ، أسقف الإسكندرية ، وقلنبى فهمى ، وإلياس عواد ، وتوفيق دوس ، وتم فى جلسة ٧ مايو ١٩٢٢ مناقشة موضوع تمثيل الأقليات فى البرلمان طبقًا لنظام جديد ، وعبر توفيق دوس عن رأيه بأنه يتعين أن تكون هناك حصة من المقاعد للأقليات فى البرلمان ، وكانت مبرراته لذلك هى :

أولاً : لتفادى أية ملاحظات أجنبية .

وثانياً : لأن البرلمان هو السلطة التشريعية ، وفى إمكانه إصدار أية قوانين ضد مصالح أية أقلية من غير قصد .

وكان الدكتور عبد الحميد بدوى معارضاً لذلك ، وعندما أجرى التصويت كانت غالبية المسلمين والأقباط ضد اقتراح دوس ، وهذا المثال يعطى صورة دقيقة لروح الأقباط فى عهد زغلول . وفى كتابه ، اعتبر سلامة موسى رد فعل الأقباط ضد اقتراح دوس كلانعكاس لأول إنجاز لحركة ١٩١٩^(٦٥) وكانت هناك مناقشة مماثلة فى الصحف بين محمود عزمى ، وهو كاتب مسلم كان

(62) F.O. 371/10886. December 29. 1924, Kerr to Mac Donald.

(٦٣) مصر ، القاهرة ، ٥ مارس ١٩٢٢ .

(٦٤) الوطن ، القاهرة ، ٥ أبريل ١٩٢٢ .

(٦٥) سلامة موسى ، مرجع سابق ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص - ١٥٤ - ١٥٥ .

مؤيدًا لآراء توفيق دوس ، بينما كان عزيز ميرهم ، وهو سياسى قبطى ، معارضًا لها . وكان الدكتور طه حسين من بين أولئك الذين عارضوا فكرة تخصيص نسب معينة لتمثيل الأقليات فى البرلمان ،^(٦٦) وفى هذا المناخ الوطنى السليم حظى مكرم عبيد بفرصة طيبة لتولى ما يستحقه من الأدوار الرئيسية على المسرح السياسى المصرى .

وفى تلك الفترة من منتصف العشرينات ، كان مكرم عبيد ، عضوًا فى البرلمان وسياسيًا نشطًا فى حزب الوفد ، ولم يكن عبيد عنصرًا فعالًا ومؤثرًا فى ذلك البرلمان لأنه كان مشغولًا بالمشاركة المباشرة فى حركة زغلول الوطنية ، وفى البعثات السياسية إلى الخارج والمهام التى يوفده فيها الوفد ، وفى سنة ١٩٢٤ ، انضم لسعد زغلول فى زيارته للندن للتفاوض مع حكومة حزب العمال برئاسة رمزى ماكدونالد ، وكان مكرم عبيد اليد اليمنى لسعد زغلول فى تلك الزيارة ، خاصة فى مقابلاته مع الصحافة ووسائل النشر ، وفى الاتصال بالشخصيات السياسية البريطانية ، وكان سعد زغلول شديد الاستياء من سير المفاوضات ، معلًا أنه قد رفض الموافقة فى لندن على ما كان آخرون ، المصريين قد عارضوه من قبل^(٦٧) ، وعاد إلى القاهرة مع الوفد المصاحب له ، دون تحقيق مطالبه ، وفى ١٩ نوفمبر ١٩٢٤ ، اغتيل جنرال سيرلى ستاك باشا فى القاهرة ، ووجه لورد اللنبى إنذارًا إلى سعد زغلول مطالبًا - ضمن أشياء أخرى - بانسحاب الجيش المصرى من السودان ، وعقب الإنذار ، احتلت القوات البريطانية الجمارك ، فاستقالت حكومة سعد زغلول ، وألقى القبض على كثير من الوطنيين ، وكان من بين هؤلاء مكرم عبيد الذى وجهت إليه تهمة إلقاء خطاب لتحريض جماهير الشعب ضد السلطات البريطانية^(٦٨) ، وكان اغتيال الجنرال سيرلى ستاك باشا ، أهم الأحداث السياسية ، وأكثرها إثارة للانتباه من الناحية العملية فى السياسة المصرية الحديثة ، وكان بمثابة بداية لأفول نجم حركة سعد زغلول وضعفها تدريجيًا حتى وفاته سنة ١٩٢٧^(٦٩) . وكان من نتائج الدور الذى لعبه مكرم عبيد - إبان حادث اغتيال الجنرال ستاك -

(67) F.O. 371/10022, October 13. 1924, Kerr to Mac Donald.

(٦٦) طارق البشرى ، مرجع سابق ، الكاتب ، عدد ١١٩ ، فبراير ، ١٩٧١ .

(٦٨) ملف عبيد فى المباحث العامة (البوليس السياسى سابقًا) - القاهرة ، ١٩٣٧ .

(69) T. Russel, Egyptian Service (1902-1946), London, 1949, p. 220.

قيام السلطات البريطانية بإعادة وضع اسمه في قائمة المشتبه فيهم والتي كان قد تم رفع اسمه منها قبل ذلك بسبعة أشهر فقط^(٧٠).

.. وجدير بالذكر أن نظرة الأقباط لدورهم في ذلك الوقت لا تختلف عن نظرة المسلمين ، إذ أن القوة الدافعة لحركة ١٩١٩ ، وروح سعد زغلول ، سيطرت على مشاعر جماهير الشعب وردود أفعالها ، ونظر الأقباط إلى دور مكرم عبيد ، وزملائه - مسلمين وأقباط - في ضوء المحيط الكامل للحركة الوطنية . وقد برزت في هذا الجو شخصية مكرم عبيد الثائر الوطني الذي تتمتع بشعبية عظيمة بين المسلمين والأقباط على السواء ، ولم يتم قط بالعمل على أساس مصالح الأقلية التي انبثق منها ، بل كان على العكس يقتبس من القرآن في أحاديثه حتى قيل إن مكرم عبيد وواصف غالى ، من بين أكثر السياسيين الأقباط نجاحًا ، ويميلان في سلوكهما السياسى إلى التصرف بحماس يفوق حماس زملائهم المسلمين^(٧١).

من هنا فإن أى تقييم لحركة ١٩١٩ ، يجب أن يقرأ أنها ولدت اتجاهًا مصريًا وطنيًا في ميدان السياسة والأدب والفن وأنتجت بعض النماذج المصرية الخالصة في فروع متنوعة . سيد درويش في الموسيقى ، ومحمود مختار في النحت ، وتوفيق الحكيم في الأدب ، وسلامة موسى في الفكر الاجتماعى ، ودعمت الوحدة بين المسلمين والأقباط ، وفتحت - في الوقت نفسه - الباب على العالم الغربى ، الذى يحاول دائمًا أن يتسلل إلى الساحة السياسية الحافلة بكل أوجه النشاط السياسى والاقتصادى والاجتماعى^(٧٢).

(70) F.O. 371/10899, June 10, 1925. Foreign Office to Allenby.

(71) J.C. Hurewits, "The Minorities in the political process" Social Forces in the Middle East, Edited by S.N. Fisher, New York, 1955, p 219.

(٧٢) عبد الرحيم مصطفى - تاريخ مصر السياسى من الاحتلال إلى المعاهدة - القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص . ٢٧

الفصل الثالث

الزعيم المرموق
في حزب الأغلبية

الفصل الثالث

الزعيم المرموق في حزب الأغلبية

يكاد يكون هناك شبه إجماع على أن أبرز نتائج ثورة ١٩١٩ وأهم آثارها ذلك الانصهار القوى بين طوائف الشعب خصوصا المسلمين والأقباط في بوتقة الحركة الوطنية ، فقد لعب الأقباط دورا نشطا وفعالا في سنوات تلك الثورة الشعبية ، وأدى النضال المشترك إلى مصالحه وطنية شاملة بصورة تكاد تكون أقوى من أى وقت مضى . وكان لسعد زغلول - الذى قاوم التعصب الدينى - دور عظيم فى إنجاز ذلك. وهو الذى جعل الوحدة الوطنية من المظاهر التاريخية لحركته والتقاليد التى حرص عليها الوفد ، فقد كان مجلس الوزراء يضم قبطيين ويهوديا واحدا ، ثم كان رئيس مجلس النواب قبطيا . وهو ووصا واصف باشا . وبفضل الثورة الوطنية سوف يتضح أن زغلول ورفاقه قد وضعوا صيغة تاريخية للوحدة الوطنية^(١) .

وبعد وفاة سعد زغلول فى ٢٣ أغسطس ١٩٢٧ اختار زعماء الوفد مصطفى النحاس لخلافته ، وذلك بعد أيام من التفكير فى عدم إمكانية إيجاد بديل للزعيم الراحل واحتمال اختيار زوجته كرئيس شرفى ، على أن يقوم بإدارة شئون الوفد لجنة تنفيذية من ثلاثة أعضاء هم : فتح الله بركات باشا . ومصطفى النحاس باشا . ووصا واصف بك . إلا أن فرص النحاس باشا تزايدت خصوصا عندما عرف أن ترشيحه كان يلقى تأييد العناصر الوطنية المتشددة ، كما أن العلاقات الشخصية بين أم المصريين السيدة صفية زغلول وفتح الله بركات المنافس القوى للنحاس كانت متوترة^(٢) . وتبع اختيار النحاس باشا رئيسا لحزب الوفد ، تعيين مكرم عبيد سكرتيراً عاما للحزب ، وكان اختيار عبيد النتيجة الطبيعية لعدة عوامل أهمها تأكيد الميراث السياسى لسعد

(١) J.S. Lacouture, op. cit., p. 90

(٢) فتح الله بركات ، كان من أقوى المرشحين لخلافة زغلول ، فهو ابن أخته ، كما شارك بفعالية فى جهود خاله ، فى الحركة الوطنية .

زغلول والتقاليد التي حرص عليها بإشراك الأقباط مع المسلمين في زعامة الحركة الوطنية ، لكن اختيار عبيد من بين الأقباط بدلا من واصف ويصا ، الذي تم انتخابه كرئيس لمجلس النواب ، أو واصف بطرس غالى - الذى كان أكثر اهتماما بالشئون الخارجية - كان بسبب التفاهم الشخصى بينه وبين النحاس ، لأنها كانا معا فى المنفى « بسيشيل » ، وقد أظهر كلاهما ولائهم شديدا لزغلول ومنهجه السياسى إلى جانب الدور الفعال لمكرم عبيد فى اختيار النحاس لرئاسة الوفد ، ولعل ميزات عبيد الشخصية وقدرته كمفاوض وإجادة للغات وخبرته فى التعامل مع المنطق السياسى الأوروبي وزياراته إلى لندن وباريس فى مهمات سياسية وإعلامية كرجل دعاية وناطق بلسان الحزب ، كانت كلها صفات بدا أنها تمثل تكملة لجوانب شخصية النحاس الذى كان معروفا فى ذلك الوقت كرجل صريح وطيب القلب . لكنه لم يكن مفاوضا ماهرا ، كما لم يكن متمرسا بالتعامل مع العقلية الأوروبية .

وفى ١٧ مارس ١٩٢٨ طلب الملك فؤاد من النحاس أن يشكل أول حكومة فى حياته السياسية ، وكانت حكومة ائتلافية ، ضمت محمد محمود - زعيم الأحرار الدستوريين ، وزيرا للمالية ، مع عدد من زملائه الآخرين ، ودخل عبيد الوزارة - لأول مرة - وزيرا للمواصلات ، وقد مكثت حكومة النحاس عدة أشهر فقط ، إذ سقطت بانهار الائتلاف ، نتيجة لاستقالة محمد محمود ، وأعضاء الوزارة من حزبه (٣) ، وأصبح محمد محمود - بعد ذلك - رئيسا للوزراء وكان معروفا بأنه رجل « اليد الحديدية » وأشيع - فى ذلك الوقت - أن مكرم عبيد مرشح لأن يكون الوزير المفوض المصرى القادم إلى لندن ، وكانت الحكومة البريطانية مترددة تجاه ذلك الاختيار ، ولم تكن قد اتخذت قرارا نهائيا فى ذلك الشأن لتحديد ما إذا كان من الممكن اعتبار مكرم عبيد الدبلوماسى المصرى المعتمد لديها ، واستقباله بتلك الصفة (٤) ، وعلى أية حال فإن عبيد لم يتم تعيينه وزيرا مفوضا دائما لدى حكومة لندن ، لكن النحاس فعل ما سبق لسعد زغلول أن فعله من قبل عندما بعث بمكرم عبيد للدعاية السياسية ضد عدلى فى لندن ، كما أرسله - مرة

(٣) كان السبب الحقيقى وراء إقالة النحاس هو ترافعه كمحام دفاعا عن الأمير سيف الدين - الذى كان متبها بمحاولة اغتيال الملك مؤاد .

انظر عصام سليمان (أزمة الحكم فى مصر ١٩١٩ - ١٩٥٢)

القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص . ٣٩

(4) F.O. 371/13141 - June 1, 1928. Hoare to Chamberlain .

أخرى - إلى لندن سنة ١٩٢٩ ، ولكن لمعارضة سياسات ومفاوضات محمد محمود رئيس الوزراء الجديد ، وقد كان تقليدًا شبه منتظم أن كل رئيس وزراء مصرى جديد يستهل فترة حكمه بالسعى من أجل إجراء مفاوضات جديدة مع بريطانيا خاصة في الفترة من ١٩١٩ - إلى ١٩٣٦ ، وتابع محمد محمود ذلك التقليد عندما أصبح رئيسا للحكومة ، فقام - بعد أن حل البرلمان - بالاتصال بحكومة العمال البريطانية الجديدة ، وبدأ ما سمي بمباحثات محمود - هندرسون ، واتخذ الوفد موقفا معارضا ضد سياسة محمد محمود ، الداخلية والخارجية ، كما حشد جماهيره ضد مفاوضاته مع بريطانيا .

.. وقد بدأت مهمة « مكرم عبيد » في لندن في شهر أغسطس ١٩٢٨ حيث انضم إلى الدكتور حامد محمود - الممثل الدائم للوفد في لندن ، وإلى وفدى آخر هو عبد الرحمن عزام^(٥) ، وقد مر عبيد بباريس وهو في طريقه إلى لندن ، لكن السلطات البريطانية في ميناء دوفر ، رفضت السماح له بدخول البلاد لأسباب سياسية ، حتى أنه اضطر هو وزوجته إلى قضاء الليل في الحجز بدوفر ، رغم أن زوجته كانت مريضة^(٦) ، وعقب ذلك ، وبعد تسوية الموقف مع وزارة الداخلية البريطانية سمح له بمواصلة رحلته ، فنظم - فور وصوله إلى لندن - اجتماعات إعلامية دعائية ، وألقى عددا من الخطب ضد نظام محمد محمود الدكتاتوري ، وقد عقد أحد تلك الاجتماعات تحت رعاية « الجمعية المصرية لبريطانيا العظمى وإيرلندا »^(٧) ، حيث ألقى خطابا مطولا أدان فيه الإجراءات الإرهابية لدكتاتورية محمد محمود ، وأعلن أنه لا يريد لأى طالب الاشتغال بالسياسة ، واتهم حكومة محمد محمود بأنها خلقت جوا من التوتر والاضطراب في البلاد ، وأضاف عبيد أن من مخططات حكومة محمود استخدام العملاء المحرضين لإثارة الفلاقل والاضطرابات في أنحاء مصر ، ثم واصل خطابه بقوله إن أكثر من خمس عشرة صحيفة قد تم وقفها عن الصدور ، وأن البوليس لديه تعليمات بفرض أية تجمعات بشكل حاسم ، وذكر عبيد عدة أمثلة لسطوة البوليس ، وعندئذ نهض المجتمعون وقوا وهتفوا ثلاث مرات : « يسقط

(٥) عبد الرحمن عزام باشا ، هو الذى أصبح أول أمين عام لجامعة الدول العربية سنة ١٩٤٥

(6) F.O. 371/13123, September 25, 1928. Foreign Office (Egyptian Department to Cairo Chancery)

(٧) تكونت سنة ١٩١٩ ، في لندن ، وضمت عددا كبيرا من الطلبة المصريين الذين كانوا يدرسون في جامعات المملكة المتحدة .

محمود»^(٨) ، وواصل مكرم عبيد نشاطاته في لندن بكتابة مقالات في الصحف ، أو عقد لقاءاته مع الشخصيات البريطانية العامة ، ومهاجمة سياسات وادعاءات حكومة محمد محمود ، كما أصدر عن الجمعية المصرية - البريطانية نشرة سياسية تحت عنوان (مصر) .. وتم توزيعها بين الدوائر السياسية في بريطانيا . واتخذت الحكومة المصرية برئاسة محمد محمود ، موقفا معارضا لمهمة عبيد ، وكانت قد حاولت - منذ البداية - منعه من السفر إلى لندن ، بدعوى أنه ذهب إلى لندن لتحسين العلاقات المباشرة بين الوفد كحزب والحكومة البريطانية^(٩) .

وقد حقق عبيد نجاحا كبيرا عن طريق اتصالاته الخاصة بعدد من أعضاء البرلمان البريطاني من العمال ، فكانت له « مجموعة ضغط » من خمسة أعضاء برئاسة مستر « كورنورثي » قامت بتوجيه النقد لحكومتهم بسبب موقفها السلبي من تعطيل الدستور المصري ، وحل البرلمان^(١٠) ، وعاد مكرم عبيد إلى مصر حيث لقي ترحيبا عظيما من حزبه وجماهير الشعب ، وعند وصوله إلى الإسكندرية أطلقت عليه الصحف الوفدية اسم « المجاهد الكبير » وقال عبيد في خطاب ألقاه في حفل ضم أكثر من خمسمائة شخص أقيم في إحدى فنادق الإسكندرية ، إن محمد محمود كان مجرد أداة لتوصيل مقترحات حكومة العمال إلى الشعب المصري ، وأضاف أن قرار الوفد برفض بحث تلك الاقتراحات حتى يتم دعوة البرلمان للانعقاد مرة أخرى يجب النظر إليه باعتباره مؤشرا لروح ودية من جانب الشعب المصري ، وواصل عبيد حديثه موضحا أنه بالإضافة إلى ذلك فإن خطوة العمال في إبداء الرغبة لإقامة علاقات طيبة مع مصر ، هي خطوة ودية يقدرها المصريون تماما ، ويردون عليها بالمثل ، وواصل - وسط التصفيق الحاد - حديثه مؤكدا أن كل ما يطلبونه في تلك المرحلة هو استعادة الدستور والبرلمان ، وهو شرط يعتبره الوطنيون ضروريا لأنه لا يمكن أن تكون هناك صداقة حرة ، ما لم يتوفر لها مناخ حر^(١١) ، وألقى وفديون آخرون بعدد من الخطب في تلك الحفلة ، ولكن ربما كان أكثر تلك الخطب أهمية هو ذلك الخطاب الذي ألقاه حافظ عوض

(8) F.O. 371/13845, July 23, 1929, Metropolitan police (Special Branch) to the Home Office .

(٩) (من خطاب للنحاس في مؤتمر سيامي بالنصرة)

أحمد شفيق - الحواريات - مجلد ٥ ، القاهرة - ١٩٢٨ ص - ١٢٩١

(١٠) المصدر نفسه - ص ١٢٥٧ .

(11) Daily Herald, Landon, September 9, 1929.

بك - وهو عضو بارز في حزب الوفد ، وكان موجودا في أوروبا أثناء تواجد عبيد في باريس ولندن - وقد ذكر في خطابه أن مكرم عبيد كان في باريس للعلاج ، لكنه عندما علم بوصول محمد محمود باشا إلى لندن ، توجه إلى هناك ، متجاهلا نصيحة طبيبه المعالج ، وقد ذهب محمد محمود إلى الحكومة العالية حاملا معه كتابه « اليد الحديدية » ليثبت للبريطانيين أن الدكتاتورية هي النظام الأنسب لحكم مصر ، وأضاف حافظ عوض أن مكرم عبيد تحدى نشاط محمد محمود على الرغم من أن الأخير كان رئيسا للوزراء ، وكانت لديه كل الوسائل للاتصال بجميع الجهات والشخصيات ، وبذل محاولات متعددة للدفاع عن آرائه وادعاءاته ومطالبه بكل وسائل الدعاية المتاحة ، ولكن مكرم عبيد اتصف بالصبر والعزيمة الصلبة ، بالإضافة إلى المرونة السياسية ، وهو ما لاحظته فيه حافظ عوض عن قرب في أثناء مهمته في لندن^(١٢) .

وبينا كان الوفديون يحتفلون بوصول مكرم عبيد ، ويمتدحون لإنجازاته في لندن أصدر مؤيدو محمد محمود بيانا ضد مهمة عبيد ، وتم توزيعه على نطاق واسع في الإسكندرية تحت عنوان « المجاهد الفاضل الكبير » وأعلنوا فيه أنه قد فشل في تكوين انطباع سيئ ضد حكومة محمد محمود ، وأنه قد قدم مثالا على انشقاق الأمة المصرية في مواجهة البريطانيين ، وادعوا أن الأقباط قد جمعوا عشرة آلاف جنيه لصالح مهمته^(١٣) ، والأكثر من ذلك أن « السياسة » صحيفة حزب الأحرار الدستوريين ، نشرت مقالا طويلا ضد مكرم عبيد ومهمته وحزب الوفد . وأعلنت أن الوفد كان خاضعا لنفوذ وتأثير « وليم » مكرم عبيد ، وقد أضافت الصحيفة أنها لا تذكر ذلك تعصبا لأن لديهم في الحزب - الأحرار الدستوريين - من الأقباط أكثر مما في الوفد^(١٤) . ولقد كان ذلك نموذجا لما لجأ إليه بعض خصوم مكرم عبيد في الأحزاب السياسية الأخرى حين كانوا يتحدثون عنه بوصفه تعبيرا عن اتجاهات الطائفة التي تعمل على السيطرة على حزب الأغلبية ، والواقع أن مكرم عبيد لم يتصرف طوال حياته السياسية كممثل للأقباط ، ولكن كزعيم وطني مصري .

وقد ألقى عبيد خطابا في الاجتماع الذي عقده حزب الوفد في ١٣ نوفمبر سنة ١٩٢٩ ، للاحتفال بذكرى زيارة سعد زغلول لدار المندوب السامي في عام ١٩١٨ ، وكان ذلك الخطاب

(١٢) أحمد شفيق - الحوليات - مجلد ٦ - القاهرة - ١٩٢٩ ص ٨٢٨ - ٨٣٢ .

(١٣) البلاغ ، القاهرة ، ٨ سبتمبر ١٩٢٩ .

(١٤) السياسة ، القاهرة ، ٨ سبتمبر ١٩٢٩ .

قطعة من الأدب الرفيع ، حيا فيه سعد زغلول بوصفه أب الحركة الوطنية المصرية الحديثة ، وانتقد دكتاتورية حكومة محمد محمود ، وتحدث عن العلاقات بين المسلمين والأقباط ، ورد على الادعاءات والمزاعم التي أطلقها المعادون للوفد وصحفهم ، وذكر أنه حينما اكتشفت الحكومة السابقة أن الأمة ظلت متحدة رغم الإرهاب والدكتاتورية ، قررت تقويض البنين المتأسك ، وبذلت محاولات لإحياء الصراعات الطائفية والخلافات الدينية . وكان الهدف هو تأليب المسلمين ضد الأقباط ، لكن المحاولة باءت بالفشل الذريع ، مثلما سيكون مصير جميع المحاولات المماثلة^(١٥) .

وهذه الفترة من حياة مكرم عبيد السياسية تعكس دوره المتشدد فيما يمكن أن نطلق عليه الجناح المتطرف في حزب الوفد . وقد كان له تأثير كبير على النحاس بل وسيطر عليه بالإصرار على تحقيق الحد الأقصى من طموحات الوفد^(١٦) ، وفي يناير ١٩٣٠ أصبح مكرم عبيد وزيراً للمالية في حكومة النحاس ، ومن مارس إلى مايو ١٩٣٠ كان عضواً في وفد برئاسة النحاس توجه إلى لندن لإجراء مفاوضات حول المعاهدة ، وضم الوفد - أيضاً - واصف ويصا . وعثمان محرم ، وأحمد ماهر^(١٧) .

وأثناء حديث رسمي بين عبيد ومستر واتسون من السفارة البريطانية بالقاهرة في ١٧ يونيو ١٩٣٠ - قبل أن تستقيل حكومة النحاس بيوم واحد - قال مكرم عبيد أن رئيس الوزراء كان على وشك أن يقدم استقالة حكومته إلى الملك بسبب رفض الملك التوقيع على القانون المتعلق بالمسئولية الوزارية ، وبسبب موقفه من تعيين أعضاء مجلس الشيوخ ، وأضاف مكرم عبيد أن شعوراً قوياً في دوائر الوفد بأنه إذا كانت رغبة الحكومة البريطانية هي إبقاء الباب مفتوحاً لعقد معاهدة متوازنة فسوف يكون هناك مخرج مؤكد من الأزمة الحالية^(١٨) ، وتظهر تلك الحادثة بوضوح نية الوفد وعزمه على اتخاذ مسلك صلب مع الملك ، وتشير أيضاً إلى التغيير إلى الأحسن في العلاقات بين الوفد والبريطانيين التي أصبحت أكثر اعتدالاً وتفاهماً .

وأثناء عمله وزيراً للمالية، كرس عبيد مزيداً من نشاطه للجانب السياسي والحزبي، أكثر مما

(15) F.O. 371/ 13849, Novovember 25, 1929, Loraine to Henderson

(16) F.O. 371/ 13849, November 12, 1929, Loraine to Henderson

(17) F.O. 371/ 14607, February 25, 1930, Loraine to Henderson

(18) F.O. 371/ 14615, June 21, 1930, Loraine to Henderson

كرسه لواجباته الوزارية اليومية ، كما تجاهل - إلى حد كبير - العمل الإدارى مركزًا على المهام السياسية ، وعالج المسائل المالية والمشكلات الاقتصادية من زاوية سياسية ، وكان متحمسًا لإقرار سياسة قطنية ثابتة مستقرة ، لإدراكه لأهمية القطن باعتباره المحصول الرئيسى لمصر فى ذلك الوقت ، وبعد استقالة حكومة الوفد ، كتب مقالا صحفيا يشرح فيه تلك السياسة قائلا إنه قد أعلن فى مجلس الشيوخ - قبل استقالة الوزارة بيومين - أن حكومة الوفد تعترم تبنى سياسة قطنية ثابتة ، وليست سياسة مؤقتة ، وأن تلك السياسة سوف تنزع إلى حماية الأسعار من العوامل المصطنعة والمضاربات الزائفة ، وبأخذ هذا الهدف فى الاعتبار نجحت وزارة الوفد فيما أتيح لها من وقت قصير ، فى تقديم مشروع قانون لإنشاء بنك زراعى لمساعدة الفلاحين ذوى الملكيات الزراعية الصغيرة ، وصياغة مشروع لإصلاح بورصة « مينا البصل » ، بعد التشاور مع الأعضاء الرئيسيين فى رابطة منتجى الإسكندرية ، وعلاوة على ذلك فإن حكومة الوفد تعتبر نفسها محظوظة فى الحصول على خدمات خبير بريطانى فى القطن هو البروفسور/تود ، الذى كان عليه دراسة مسألة القطن فى مصر خلال ذلك الصيف ووضع تقرير فى هذا الشأن^(١٩) .

وعندما شكل إسماعيل صدق باشا حكومته فى يونيو ١٩٣٠ ، وبدأ سياسته التى أدت إلى تعطيل دستور ١٩٢٣ ، عارض الوفد أوتوقراطيته بقوة ، وعندما اقتضت الضرورة شن حملة دعائية سياسية ضد صدق فى لندن ، كان مكرم عبيد مرة أخرى مبعوث الوفد فى تلك المهمة إلى لندن من يوليو حتى سبتمبر ١٩٣٠ ، وبرز جانب من أهم جوانب شخصية مكرم عبيد فى مناسبة المؤتمر الإسلامى الذى عقد فى لندن فى أغسطس ١٩٣٠ ، أثناء وجوده بها ، عندما كان يعمل ضد حكم صدق ، وعبر المجتمعون - فى ذلك المؤتمر - عن آرائهم تحت عنوان (فى الوطن) سعيًا وراء استقلال الدول الإسلامية والكفاح ضد الاستعمار ، ولم تولى أية صحيفة بريطانية ذلك المؤتمر اهتمامًا ، وكانت مجلة فرنسية هى « ايكودى بارى » الوحيدة التى نشرت تقريرًا عن الاجتماع فى ٢٤ أغسطس تحت عنوان (نهضة الشرق) ، وحضر الاجتماع - كما ورد فى المجلة - أكثر من ثمانمائة شخص^(٢٠) ، وكان أغلبهم من المصريين والهنود والشوام ، وقدم الشيخ عبد المجيد - إمام

(١٩) التايمز ، لندن ، ١٤ أغسطس ١٩٣٠ .

(٢٠) فى إجابة من وزارة الخارجية البريطانية عن استفسار من السفارة الأسبانية فى لندن عن المؤتمر ، قدرت عدد الذين حضروا بأنهم لم يتعدوا المائة والخمسين شخصًا .

F.O. 371/1462, September 30, 1930 (Home office to the Spanish charge d'Affaires in London).

مسجد لندن ، وهو مواطن هندي - مكرم عبيد بصفته مصرياً قبطياً ، وأعلن أن مصر والهند يربط فيما بينهما هدف مشترك ألا وهو التطلع إلى الحرية ، وقد ذكر عبيد في خطابه أن المؤتمر لا يرمز إلى الوطنية وحدها ، ولكنه أيضاً تعبير عن المعاناة الطويلة للأهم والشعوب الشرقية وأضاف أن الشرق هو الشرق والغرب هو الغرب ، وكلاهما يناضل ضد الحواجز التي تفرق بينهما لخلق صيغة جديدة للتعايش .

وجدير بالملاحظة هنا أن كثيرين من السياسيين المصريين قد وفدوا إلى العواصم الأوروبية في تلك الفترة دون أن يفكروا في حضور مؤتمر إسلامي ، لكن مكرم عبيد - القبطي - كان متحمساً لحضور مثل ذلك المؤتمر الذي كان هو ضيف شرف فيه لأنه كان يتطلع دوماً لتمثيل الأغلبية والتجاوب مع آمالها ، فقد كان ذلك أمراً حيويًا لدوره السياسي الذي أرادته لنفسه .

وقد قام مكرم عبيد بأنشطة سياسية أخرى في لندن ، ضد حكومة صديق ، وعقد اجتماعات مع شخصيات بريطانية ، ونشر مقالات عديدة ليبر السياسة الاقتصادية للوفد - باعتباره كان وزيراً للمالية في حكومة الحزب - ظهر أحدها في صحيفة « التايمز » ، حيث ذكر فيه أنه بصرف النظر عن المسائل الدستورية والسياسية المحيطة بالأزمة الحالية في مصر ، فهل يسمح لي - بصفتي وزير مالية سابق - بالتحدث عن الوجه الاقتصادي المحض لحالة الاضطراب وعدم الاستقرار الحالية في مصر ، بلغة الحقائق والأرقام التزييه ، فالمشروعات التجارية - طبقاً للتقارير الواردة من مصر - متوقفة تماماً ، والوضع الاقتصادي في أسوأ حالاته ، بسبب حالة عدم الاستقرار الحالية في البلاد ، وبما لاشك فيه أن الوضع المالي سيصبح أكثر سوءاً بعد شهر أو شهرين من الآن ، عندما تحدث حملة الوعد الداعية إلى الامتناع عن دفع الضرائب مفعولها الكامل ، إذ أن الضرائب مستحقة الدفع ابتداء من أكتوبر القادم ، ويبدو من المؤكد أن نجاح حملة الوعد يمكن أن يعززه الشقاء والبؤس المالي الحالي لدافعي الضرائب المصريين ، ومعظمهم من الفلاحين^(٢١) .

وفي ٢٤ أكتوبر ١٩٣٠ ألقى مكرم عبيد محاضرة في الاتحاد الديمقراطي Union of Democratic Control حول موضوع الديمقراطية في مصر ، مع الإشارة إلى الوضع القائم ، فأعلن أن الديمقراطية في مصر والوفد مترادفان ، وأضاف قائلاً :

(21) F.O. 371/14641, August 18, 1930, Lorain Henderson.

« لقد عانت الديمقراطية في مصر مما أريد به أن يكون لطمة للحرية عن طريق إصدار مرسوم ملكي يجرى تغييرات مذهلة في الدستور وحق الانتخاب ، وقد ألغى الملك دستور ١٩٢٣ بحجة قلم ، وقدم دستورا جديدا سوف يدافع عنه بالقوة الغاشمة ذلك لأنه في عصر الديمقراطية الذي نعيشه ما تزال القوة هي المبدأ المتحكم في العلاقات الإنسانية . ومصر تخفها الآن قوات الجيش والبوليس من أقصاها إلى أقصاها ، وقد أكد الملك أن « لا صوت نريد سماعه في طول البلاد وعرضها ما عدا صوت المدفع ، وأنه يتعين ألا يكون هناك قانون غير قانون التهديد بقوة السلاح »^(٢٢) .

وقد كان مكرم عبيد يستخدم دائما النغمة المتطرفة في نقده لأعدائه السياسيين واستخدام كل مواهبه في معاركة ضد أعداء حزبه سواء كانوا عدلى أو محمد محمود أو صدق ، وفي مهامه الرئيسية الثلاث - كمبعوث للوفد إلى بريطانيا - نجح عبيد في الدعاية على نطاق واسع لقضية حزبه ، والدفاع عن مفهومه السياسى الذى يؤمن به ، وقد لعب مكرم عبيد - أثناء حكم صدق الذى دام ثلاثة أعوام - دورا قياديا في حزب الوفد ، مقدما ذلك الحزب باعتباره تعبيرا عن إرادة الغالبية رغم ابتعاده عن السلطة .

وفي سنة ١٩٣١ ، قام مكرم عبيد بزيارة لسوريا ولبنان وفلسطين ، وعكست زيارته بعدا جديدا في الموقف القبطى تجاه مسألة العروبة ، وألقى عدة خطب في بيروت ودمشق وشتورا والقدس وعكا وحيفا ، أثار فيها أن فكرة « الفرعونية » التى تعكسها اتجاهات أدبية معينة ، كانت تمثل حركة لفصل مصر عن الدول العربية الأخرى^(٢٣) ، وكان هذا أيضا موقفا غير تقليدى لا بالنسبة لسياسى قبطى فحسب ، ولكن بالنسبة لأى سياسى مصرى عموما في ذلك الوقت ، وقرر أنه يعارض الاتجاه القبطى الذى كان يشعر ببعض المخاوف تجاه مسألة القومية العربية ، وأضاف أن الأقباط لهم جذور مصرية قديمة ، ولكن ذلك لا يتعارض مع عروبتهم ، وفي سنة ١٩٣٩ نشر مقالا ناقش فيه مسألة دولة عربية واحدة ، وطور أفكاره العربية بشكل ملحوظ ، وكان مما ذكره في مقاله « إن التاريخ العربى سلسلة متصلة بسبب وحدة اللغة ، والثقافة العربية ، وأن الوحدة العربية هي حقيقة مؤكدة قائمة ، وأن على العرب أن يسلكوا الطريق الذى سلكه الأوروبيون بأن يقيموا تنظيما يلتقون من خلاله في ميثاق قومى واحد لبذل الجهود من خلال

(22) F.O. 371/14621, October 28, 1930, Lorraine to Henderson.

(٢٣) أنيس صايغ ، الفكرة العربية في مصر ، بيروت ، ١٩٥٩ ، ص ١٢٧ ، ١٢٨ .

النضال العربى المشترك من أجل الحرية والاستقلال^(٢٤) ، ومن الملفت هنا أن نكتشف أن مكرم عبيد كان لديه تصور واضح لمفهوم العروبة وكانت لديه القدرة لمناقشة الأفكار العربية الطموحة فى تلك الفترة المبكرة نسبيا فى الكتابة والحديث عن القومية العربية ، وقد استخدم عبيد أيضا تعبير « الجامعة العربية » قبل إنشاء تلك المنظمة الإقليمية التى تحمل ذلك الاسم بأكثر من خمسة أعوام ، لكن اهتمام عبيد بالبعد العربى لمصر لم يدفعه أكثر من ذلك ، ويصوره تكنى لجعله يلعب دورا رائدا فى السياسة العربية ، كما كان الحال بالنسبة لزميل آخر هو عبد الرحمن عزام على سبيل المثال ، ويمكن تفسير اهتمام عبيد بعروبة مصر ودورها الإسلامى ربما بقدر يزيد عن اهتمام بعض السياسيين المصريين المسلمين لأنه كان يشعر بأن هذين العنصرين ، الإسلام والعروبة ، قد يثيران حساسية بعض الأقباط ، ونظرا لطموحه السياسى العظيم ، فقد كان يريد التغلب على هذين العائقين على نحو لا يجعل شعبيته فى بلد عربى مسلم عرضة للاهتزاز .

وإذا حاولنا - من جانب آخر - دراسة أفكار عبيد فى الاقتصاد ، وأفكاره المتعلقة بالحل الاجتماعى للمسألة الاقتصادية فى مصر ، فإنه يحسن دراسة خطابين ألقاهما عبيد ، كتقديم لمشروع الميزانية المصرية فى البرلمان سنة ١٩٣٦ ، ومرة أخرى فى سنة ١٩٤٢ ، كوزير للمالية ، وفى المناسبتين كان الوفد فى الحكم ، وقد أعلن فى خطابه الأول أن مصر تعد دولة غنية إذا كان المعيار هو أنه يمكنها أن تكون مستقلة عن غيرها ، وأن لديها مواردها الذاتية ، أو إذا قسنا ذلك بالثروة الحكومية التى يمكن ترجمتها إلى أرقام فى الميزانية ، ولكن إذا تأملنا طريقة توزيع الثروة بين طبقات الأمة لوجدنا أن ١٪ يملكون ٤٦٪ تقريبا من الرقم الإجمالى للملكية فى مصر^(٢٥) ، وفى خطابه الذى عرض فيه الميزانية المصرية على البرلمان سنة ١٩٤٢ ، وصف عبيد الحالة البائسة للفلاح المصرى ، الذى كان دعامة الاقتصاد المصرى ، بتوله :

«والحق أنى ما مررت بقرية من قرانا الفلاح يكاد يأكله العمل وغيره يأكله ، ويلبسه العربى وغيره يرفل ، ويضنيه العيش القذر والمأوى القذر والمرضى القذر والماء القذر وغيره يتجمل فيجمل ، حتى لكأن المسكين يخرج من اللجنة لكى يدعنا ندخل ، كلما شهدت هذه المزريات

(٢٤) مكرم عبيد ، المصريون عرب ، الهلال ، القاهرة ، أبريل ١٩٣٩ ، ص - ٣٢ .

(٢٥) أحمد قاسم حودة . المكرميات (خطب وبيانات صاحب المعالي مكرم عبيد باشا) - القاهرة (بلا تاريخ) ص

١٧٣ ، ١٧٥ . والمكرميات هى مختارات من خطب عبيد وأحاديثه ومقالاته فى مناسبات سياسية مختلفة ، جمعها

ونشرها أحمد قاسم حودة - رئيس التحرير المسئول لجريدة «الكتلة» .

المفجعات ، وحاولت أن أقارن أو أوازن بين ما نرى في مصر من مفارقات ، تولاني شعور أشد إيلاما من الحزن والأسى لأنه مقترن بالكثير من الخجل والكثير من الوجل^(٢٦) ، وقد ذكر حفي محمود بك - وهو وفدى وشقيق لمحمد محمود باشا - في تقديمه للمكرميات ، أنه بينما كان عبيد يلقي إحدى خطبه المتعلقة بالميزانية السنوية في مجلس النواب ، بصفته وزيرا للمالية ، ردد تعبيرات مثل « الفلاح المصرى » و « مالك الأراضى الإقطاعى » ، حتى أن أحد الأعضاء المجاورين لحفى بك في الجلسة صاح في دهشة مستهجننا استخدام عبيد لمثل تلك الكلمات الخطيرة ، واتهم عبيد بأن لديه تعاطفا مع الفكر الاشتراكى المتطرف^(٢٧) !

وفي تقرير سنوى آخر في مجلس النواب - بصفته وزيرا للمالية - قال مكرم عبيد : « نحن الآن في دور التنازع بين الديمقراطية أو العقلية الشعبية والبيروقراطية أو العقلية الحكومية ، والقول بأن تحديد أجر العامل الحكومى بحيث لا يقل عن خمسة قروش يوميا أو إعفاء الفلاح من الضريبة إذا بلغت خمسين قرشا سنويا أو إلغاء السخرة أو ما شاكل ذلك من إجراءات ، القول بأن هذه الإصلاحات تنطوى على اتجاهات اشتراكية فيه ظلم للاشتراكية ولنا ، فما هى إلا الألف والباء من قاموس العدالة الاجتماعية »^(٢٨) .

ويؤدى بنا هذان الخطaban اللذان ألفاهما مكرم عبيد - كوزير للمالية - ووضوح بعض الأفكار الاقتصادية فيها إلى سؤال هام : هل كان لدى مكرم عبيد نظرة تقدمية في معالجته لموضوع الملكية والثروة ؟ ... لقد كان مدركا تماما لشكل المجتمع المصرى في ذلك الوقت والفروق الطبقيّة ، والتفاوت في مستوى المعيشة بما يوحى بأنه كان متأثرا بروح وأفكار الاشتراكيين الفرنسيين وقت دراسته في «ليون» بفرنسا^(٢٩) ، ولكن يصعب أن ننسب إلى عبيد أى تأثير بالاشتراكية الماركسية ، وما يمكن تأكيده فقط هو أنه كان يؤمن بضرورة العدالة الاجتماعية ، وبضرورة رفع مستوى حياة الشعب المصرى وخاصة الفلاحين ، وفي ١٥ ديسمبر ١٩٣٣ أعيد انتخاب مكرم عبيد نقيبا للمحامين ، رغم أن حكومة الأقلية - في ذلك الوقت - اتخذت اجراءات تشريعية طارئة مما أدى إلى موجة من السخط بين المحامين في مصر ، ولكن حكومة نسيم باشا ألغت تلك

(٢٦) المرجع السابق - ص ١٧٧ . ١٨١ .

(٢٧) المرجع السابق - ص ٥

(٢٨) المرجع السابق - ص - ١٨١ .

(٢٩) النظر الفصل الثانى - الهامش رقم ٨ .

الإجراءات الطارئة في شهر ديسمبر ، وبذلك تم ضمان إعادة انتخاب مكرم عبيد لذلك المنصب الذي كانت توليه الأحزاب أهمية خاصة بسبب الوزن السياسي لنقابة المحامين ، ويذكر جودة في تقديمه للفصل الخاص عن (مكرم - المحامي) :

وقد استطاع مكرم باشا بمواهبه الخطائية والبيانية والفقهية أن يظفر بمركز الصدارة ، ويحتل مكان الطليعة في مهنة المحاماة ، وأن يفوز - مرة أخرى - بالنقابة عن المحامين ، حتى لم يتيسر إقصاؤه أحيانا عن كرسي النقيب إلا بإجراءات الترييف أو بالقوة السافرة في أكثر من عهد من العهود^(٣٠) ، وقد قام مكرم عبيد - المحامي المرموق - بالدفاع عن عباس العقاد ، الذي كان متبها بالسب في الذات الملكية ، من فوق منبر البرلمان ، وكان ما قاله مكرم عبيد في المحكمة : إن العقاد الكاتب والعقاد النائب في البرلمان ليس مدانا بالعيب في ذات صاحب الجلالة ، وإنه قد تلقى معاملة سيئة أضرت بصحته دون أن يستجاب لشكواه^(٣١) ، وقد واصل عبيد مرافعته في المحكمة ، وقارن بين الموقف الذي يواجهه العقاد وما واجهه رسول الله محمد - صلى الله عليه وسلم - من عنت قومه واستبدادهم ، وكانت النقطة التي ركز عليها عبيد في خطاب مرافعته في المحكمة هي أن العقاد في المقام الأول ، مثقف متميز وكاتب مرموق قبل أن يكون سياسيا ، ويعتبر دفاع مكرم عبيد في محاكمة العقاد واحدا من أروع وأشهر المرافعات في تاريخ المحاكم المصرية ، والواقع أن مكرم عبيد قد نال شهرة واسعة كمحام في القضايا السياسية أو غير السياسية .

وقد فكر عبيد عندما كان نقيبا للمحامين في تنظيم إضراب عام ضد البريطانيين وقد كانت وجهة نظر السلطات البريطانية في القاهرة هي أن المحامين في مصر هم آخر عنصر قد تثيره الحكومة وتستفزه ، وأن إضرابا للمحامين - إذا ما أمكن تنظيمه - سوف يثبت فعاليته في إحداث الاضطراب في الحياة العامة^(٣٢) .

ولكن لم يحدث ذلك الإضراب لأن العلاقات التي كانت تتجه إلى التحسن مع بريطانيا جعلته مجرد فكرة ، ولم ينس مكرم عبيد في حياته السياسية أبدا أنه كان محاميا وكان دائما ما يولي مهنته اهتماما وافرا خاصة في الفترات التي لم يكن فيها الوفد في الحكم ، وقد مارس دورا فعالا كنقيب

(٣٠) أحمد قاسم جودة - المصدر نفسه - ص ١٩٤ - ١٩٦ .

(٣١) أنيس منصور - « العقاد في ذكراه » - آخر ساعة - القاهرة ٢٦ مارس ١٩٧٥ .

(32) F.O. 371/ 17983, July 23, 1934, Lampson to Simon.

للمحامين ، مضيفاً على دور القابة طابعا سياسيا بفضل موقعه كسكرتير عام للوفد ، وفي نفس الوقت كان عبيد - مثل النحاس وغيرهما من الزعماء السياسيين - مستغرقا في متابعة تطور العلاقات الإنجليزية المصرية من خلال سلسلة طويلة من المفاوضات ، بدءا من مباحثات زغلول - ملتر سنة ١٩٢٠ ، حتى محادثات صدق - سيمون سنة ١٩٣٢ .

وكان عبيد ينظر إلى بريطانيا في ضوء المطلب المصرى من أجل الاستقلال التام مع الاحتفاظ بالصدقة مع الحليف الدائم - بريطانيا العظمى ، وقد فسر عبيد آراءه يوما بأن استعادة دستور ١٩٢٣ ، وعقد معاهدة إنجليزية - مصرية هما هدفان رئيسيان للسياسة الوفدية (٣٣) ، ومنذ سنة ١٩٣٣ أخذت علاقات الوفد مع بريطانيا في التحسن ببطء عندما بدا في الأفق أن الوفد سوف يتجه لا اتخاذ خطوة إيجابية تجاه بريطانيا إذا قدر له تولى السلطة ، وفي حفل أقامته كلية فيكتوريا يوم ٢٧ مارس ١٩٣٤ حضر مكرم عبيد - كضيف شرف - وألقى خطابا وديا تجاه بريطانيا ، الثقافة الإنجليزية ، وركز فيه أساسا على المشكلة الأنجلو - مصرية ، وامتحح التعليم البريطانى وآثاره في تكوين شخصية المثقفين المصريين ، كما ركز على أن التعليم البريطانى يعزز ويدعم روح الحرية والاستقلال لدى أولئك الذين يتلقونه (٣٤) .

والواقع أن بريطانيا كانت تعنى أشياء كثيرة بالنسبة لعبيد ، فهي الدولة التي تلقى فيها تعليمه والتي فيها أمضى بعض سنوات عمره ذات الأثر الكبير في تكوينه ونشأته كما كان ينظر إليها على أنها هي التي شكلت شخصيته ووسعت مداركه ، كما أنها - في الوقت نفسه - هي دولة الاحتلال الذي يعانى منه وطنه ، ولمكرم عبيد خطاب قديم ألقاه في سبتمبر ١٩٢٠ في حفل تكريم أقامه خريجو جامعة أكسفورد من المصريين لمحمد محمود باشا ، وقد ذكر فيه أنه غير قادر على التوفيق بين احترامه وإعجابه بالشعب البريطانى - الذي عاش بينه وارتبط به - وبين مشاعره المعادية لسياسة بريطانيا في مصر (٣٥) ، وعلى الرغم من أن مكرم عبيد كان يعتبر وطنيا متشددا فقد كان دائما يؤكد أن بريطانيا هي مركز الفكر الديموقراطى والليبرالى ، كما كان يبدى إعجابه بأسلوب الحياة الإنجليزية ، والنظام البرلمانى البريطانى .

(33) F.O. 371/ 17980, October 5, 1934, Peterson to Simon.

(34) 371/ 17982, April 16, 1934, Lampson to Simon.

(٣٥) أحمد قاسم جودة ، المصدر نفسه ، ص ١٤٢ - ١٤٤ .

وفي سنة ١٩٣٥ ، ظهرت آثار التحسن في العلاقات الأنجلو - المصرية ، من خلال بيانات وتصريحات زعماء الوفد ، ففي خطاب ألقاه مكرم عبيد في حفل شاي أقامه محامو الإسكندرية تكريما للنحاس ، ذكر عبيد أن هناك فرصة ذهبية لعقد اتفاقية صداقة بين مصر وإنجلترا^(٣٦) ، كما ذكر في مناسبة أخرى أن أية معاهدة يتم التفاوض بشأنها بواسطة حكومة الأقلية - حتى ولو كانت إيجابية بصورة أكبر بالنسبة لقضية مصر من تلك التي وقعها الوفد سنة ١٩٣٠ - ستكون غير مقبولة من الوفد لأنها صدرت عن حكومة غير دستورية^(٣٧) .

وقد بدأت الحكومة البريطانية عام ١٩٣٥ في استطلاع ودراسة آراء الزعماء السياسيين المصريين ، كي تستكشف مواقفهم من مسألة المفاوضات ، وكان سير مايلز لامبسون ، المندوب السامي ، قد اجتمع بزعماء الأحزاب ، خاصة أولئك الذين كانوا قد أجروا مفاوضات مع بريطانيا من قبل (النحاس - من حزب الوفد ، ومحمد محمود من حزب الأحرار ، وصدقي - من حزب الشعب) لأن البريطانيين كانوا يرغبون في التفاوض مع القوى الوطنية التي تمثل جميع الأحزاب السياسية من أجل تفادي الهجوم من أي قطاع في الرأي العام المصري ، وفي ١٣ فبراير صدر مرسوم ملكي متضمنا أسماء أعضاء وفد قومي من كل الأحزاب لإجراء المفاوضات مع الحكومة البريطانية ، ويتكون من (مصطفى النحاس - رئيسا ، محمد محمود ، إسماعيل صدقي ، عبد الفتاح يحيى ، واصف بطرس غالى ، أحمد ماهر ، على الشمسي ، عثمان محرم ، أحمد حمدى سيف النصر ، حلمى عيسى ، مكرم عبيد ، حافظ عفيفي ، ومحمود فهمى النقراشى (أعضاء) ، وأصبح عبيد عضوا في وفد كل الأحزاب السياسية كممثل لحزب الوفد ، وأصبح وزيرا للمالية في حكومة النحاس في مايو ١٩٣٦ ، وحصل على لقب باشا ، ودور عبيد في مناقشات ومفاوضات معاهدة ١٩٣٦ ، وتقييمه لها ، تتضمنه محاضرة له حول ذلك المونستر ألقاها في الجامعة المصرية في نوفمبر ١٩٣٦ .

وقد ألقى مكرم عبيد هذه المحاضرة بعربية رفيعة مستخدما أسلوبه الأدبي المتميز وقد عدد

(36) F.O. 371/ 19074, September 9, 1935, Kelly to Hoare.

(37) F.O. 371/ 17980, October 5, 1934, Peterson to Simon.

(٣٨) مكرم عبيد - محاضرة معالي الأستاذ مكرم عبيد باشا في الجامعة المصرية - بحث تحليلي مقارنة على المعاهدة المصرية - البريطانية ، القاهرة أول نوفمبر ١٩٣٦ (٧٦ صفحة) .

مكرم عبيد - في محاضرته تلك - كل مراحل التفاوض بين مصر وبريطانيا^(٣٩) ، إلى أن توصل الجانبان إلى الاتفاقية التي جسدتها معاهدة ١٩٣٦ . ونظر إلى مفاوضات النحاس - هندرسون بوصفها القاعدة الصلبة لمعاهدة ١٩٣٦ ، لأن المعاهدة تتضمن معظم البنود التي تمت مناقشتها في محادثات ١٩٣٠ ، وهي المحادثات التي فشلت لأن الجانبين عجزا عن التوصل إلى اتفاق حول مسألة السودان .

وكان عبيد مبالغا في الإحساس بدوره الحزبي لأنه كان يرى أن أية اتفاقية يوقعها الوفد سوف تنال رضا الجماهير ، وكانت هذه النقطة معروفة لبعض السياسيين البريطانيين أنفسهم ، فقد سجلها هيوح دالتون - السياسي العمالي البريطاني في مذكراته ، وهو الذي أصبح في سنة ١٩٤٥ ، وزيرا للخزانة - وكتب في مذكراته حول مباحثات ١٩٣٠ يقول :

«لقد كانت لنا جولات أخرى مع المصريين في ربيع ١٩٣٠ ، وأرسلوا هذه المرة ، وفدا كرهنا برئاسة النحاس باشا - رئيس وزرائهم ، ومكرم عبيد ، وكنت أعتقد . وكثيرا ما قلت علنا ، - من أجل عقد معاهدة أنجلو - مصرية ، فإن الوفد وحده هو القادر على تقديم الوجه الحقيقي لمصر ، وأية حكومة مصرية أخرى ، سوف يزايد عليها الوفد ويسقطها حتى لو وقعت معاهدة معقولة»^(٤٠) .

ومن الواضح أن مكرم عبيد كان متأثرا في تقييمه للمعاهدة في محاضرته الشهيرة التي ألقاها في الجامعة المصرية بموقفه الحزبي ودوره السياسي في المفاوضات كساعد أمين للنحاس باشا ، وقد وصف أحد الطلاب محاضرته بأنها كانت متقدمة وذات أسلوب حماسي ، يميزها خط حزبي متطرف^(٤١) ، وفيها امتدح مكرم عبيد النحاس - الذي كان بين الحاضرين - عدة مرات ، وأعلن عن تقديره وإعجابه بجهود زعيم الحزب لإنجاز معاهدة الصداقة والتحالف ، أو - كما كان عبيد الوفدي يسميها - معاهدة الشرف والاستقلال ، وقد اتخذ عبيد خطا قويا في الدفاع عن

(٣٩) زغلول - ملز ، على - كيرزون ، زغلول - ماكسونالد ، ثروت - شامبرلين ، محمود - هندرسون ، النحاس - هندرسون ، صديق - سيمون .

(40) H. Dalton, call Back Yesterday, Memoirs 1887-1931, London, 1953, p. 249.

(٤١) محمد حشيش ، معاهدة ١٩٣٦ ، وأثرها في العلاقات المصرية - البريطانية حتى ١٩٤٥ . رسالة دكتوراه ، جامعة عين شمس ، القاهرة ، أبريل ١٩٧٠ ص ٣ من المقدمة .

المعاهدة وتبريرها ، وهى المعاهدة التى لقيت معارضة عنيفة من الحزب الوطنى وقطاع كبير من الطلاب وجاعة مصر الفتاة ، بزعامة أحمد حسين^(٤٢) .

ويؤرخ كثير من الدارسين للحركة الوطنية المصرية الحديثة لهبوط شعبية الوفد بتوقيعه للمعاهدة ، ويرون بأن توقيع المعاهدة سلب الحزب جاذبيته الوطنية التى تمتع بها طويلا وأحاله إلى مجرد تجمع حزبي يدعو للاعتدال والتعاون مع بريطانيا^(٤٣) .

وقد لعب عبيد دور الداعية الذى يحاول إقناع الرأى العام المصرى بالمعاهدة وترغيبه فيها لصالح الوفد كحزب وكحكومة فى الوقت ذاته ، وقد تبعت المعاهدة خطوة ذات مغزى على طريق الاستقلال الوطنى ، وكانت تلك الخطوة هى مؤتمر الامتيازات الأجنبية فى «مونترو» الذى افتتح فى ١٢ أبريل ١٩٣٧ حيث تفاوض وفد مصرى برئاسة النحاس باشا^(٤٤) ، مع الدول المعنية ، وحصل على موافقتها لإنهاء الامتيازات الخاصة برعاياها فى مصر^(٤٥) ، وبدأ أن هذا الإنجاز قد

(42) F. O. 371/ 20119, September 16, 1936, From Kelly to Eden.

(جاعة مصر الفتاة كانت حركة سياسية ضمت عددا كبيرا من الشباب ، ونشأت فى أوائل الثلاثينات ، وتأثرت ببعض الأفكار المعاصرة والتنظيمات الألمانية ، وكان يرأسها محام شاب هو أحمد حسين ، يساعده بعض مؤيديه مثل محمد صبيح ، وإبراهيم شكرى وضمت تنظيما شبه عسكري ، بزي خاص وكان يسمى (دوى القمصان الخضراء) وانهارت علاقتهم مع الوفد عندما حاول أحد أعضائها ، وهو عز الدين عبد القادر ، اغتيال النحاس فى ٢٨ نوفمبر ١٩٣٧ ، وكانت جاعة (مصر الفتاة) مرتبطة بشخصيات مثل على ماهر ، وعزيز المصرى كما كانت معروفة بتعاطفها مع دول المحور) .

انظر : أحمد حسين ، إجمالى ، القاهرة ، ١٩٣٦ .

(٤٣) انظر ، على سبيل المثال ، عصام سليمان ، مرجع سابق - ص - ٦٥ .

ونفس التحليل ذكره الأستاذ محمد حسنين هيكل فى مقابلة معه يوم ٣٠ سبتمبر ١٩٧٥ .

(٤٤) تشكل الوفد المصرى برئاسة النحاس باشا من : أحمد ماهر ، وواصف بطرس غالى ، ومكرم عبيد ، وعبد الحميد بنسوى .

(٤٥) ترتبط الامتيازات الأجنبية بنوع من المعاهدات التجارية التى عقدتها الدول الغربية مع الدول الآسيوية والأفريقية والتى يتمتع الرعايا الغربيون بموجبها بامتيازات خاصة خارج نطاق التشريع الوطنى ، لذلك كان المقيمون الأوروبيون فى المستعمرات خاضعين لقوانين حكوماتهم ، ويعفون من قوانين الدول المضيفة لهم ، وقد تطور النظام وانتقل من مناطق الشرقين الأدنى والأوسط إلى أنحاء الإمبراطورية العثمانية .

انظر :

I.e. Hurewitz, *Diplomacy in the Near and Middle East*, Vol., 1, Princeton, 1956, pp. 1-21.

أنعش الروح المعنوية للمصريين نظرا لأنه جعل المصريين والأجانب سواء أمام القانون لأول مرة منذ قرابة أربعة قرون ، وعلى الرغم من حقيقة لا يمكن إنكارها وهي أن عبد الحميد بدوى^(٤٦) ، قد قام بالجهد الرئيسى فى المؤتمر - كخبير قانونى - فقد كان لمكرم عبيد أيضا . دور حيوى خاصة فيما يتعلق بالمناقشات حول الفترة الانتقالية لإنهاء الامتيازات الأجنبية ، وقد أصر الجانب المصرى على جعل الفترة الانتقالية قصيرة بقدر الإمكان ، بينما كانت الوفود الغربية شديدة العسك يجعلها اثنى عشر عاما على الأقل .

وفى ٦ أكتوبر ١٩٣٦ استقبل الزعيم النازى «هتلر» النحاس وعبيد فى برلين ، ولم يكن السبب الحقيقى للزيارة واضحا ، وهل هى زيارة مجاملة أم كانت لها أهداف سياسية ، فبينما أعلن السبب الظاهرى لزيارة رئيس الحكومة المصرية ووزير مالىته لألمانيا . هو رغبتها فى استشارة طبيب ألمانى حيث أخبر الوزير المفوض المصرى فى برلين «سير/ اريك فيس» من السفارة البريطانية فى ألمانيا بأن صحة مكرم باشا متدهورة ، وأن الطبيب الذى استشاره فى برلين ، ذكر أن عبيد قد يموت فى أية لحظة ومن ناحية أخرى ، أبلغ أمين عثمان عضوا فى السفارة البريطانية بالقاهرة أن الهدف الرئيسى للزيارة كان يتعلق بموقف ألمانيا من الامتيازات الأجنبية^(٤٧) ، ولكن يبدو أن رواية أمين عثمان - وقد كان وثيق الصلة بكل من الوفد والإنجليز - هى الأقرب إلى الحقيقة ، لأن زيارة النحاس لهتلر تمت وهما فى طريقهما إلى الوطن قادمين من مؤتمر «مونثرو» .

وبينما كان الوفد - كحكومة - يحقق نجاحا فى الخارج بتوقيع معاهدة ١٩٣٦ ومعاهدة إنهاء الامتيازات الأجنبية ، كانت هناك اتجاهات معاكسة داخل كيان الحزب نفسه ، إذ وقع حدث هام عام ١٩٣٧ ، بخروج محمود فهمى النقراشى ، واحمد ماهر من الحزب ، وقيامهما بتكوين الحزب السعدى بعد ذلك مما أدى إلى تزايد نفوذ مكرم عبيد وتأثيره على النحاس وحزب الوفد ، وكان أحمد ماهر ، والنقراشى يشهران بتحكمه وسيطرته على الحزب ، وأيدهما - فى ذلك الاحساس - أرملة زغلول باشا (أم المصريين) التى كانت تنتقد كثيرا سياسة النحاس وعبيد^(٤٨) .

(٤٦) بدأ الدكتور بدوى حياته العامة كسكرتير سياسى لثروت باشا ، وكانت ميوله معادية لحزب الوفد ، وقد اعتاد بعض الوفديين ، ومنهم عبيد ، تسميته بـ «مفتى القرية» ، ولم تكن له علاقات طيبة مع عبيد ، وكثيرا ما تبادلوا النقد .

(47) F.O. 371/ 20122, November 20, 1936, From Phipps (Berlin) to Eden.

(٤٨) يدعو للتأمل ان مكرم عبيد توفى بعد ذلك بخمسة وعشرين عاما)

(٤٨) من لقاء مع السيد سعد فخرى عبد النور ، فى ١٣ سبتمبر ١٩٧٤ .

ووفقا لما ذكره لا مبسود ، كان هناك خلاف حاد بين أحمد ماهر ومكرم عبيد فقد اتهم الأخير أحمد ماهر بأنه مأجور لرئيس الوزراء ، وأنه يحيك المكائد بهدف إبقاء على ماهر شقيقه بالقرب من الملك وإضعاف قوة الوفد^(٤٩) .

وقد رأى النحاس في معالجة عبيد للأمور ونهجه السياسى ما يرضيه ويحقق روح « الوحدة الوطنية » التى برزت فى عهد سعد زغلول ، ولم يكن النحاس يتوقع أن يقوم النقراشى وأحمد ماهر بالتعجيل بإحداث الانشقاق فى صفوف الوفد^(٥٠) ، وقد بدأ الخلاف بين ماهر والنقراشى فى جانب وزعامة الوفد فى جانب آخر عندما ثار خلاف فى رأى داخل مجلس الوزراء حول موضوع توليد الكهرباء من خزان أسوان ، وكان محمود غالب وزير العدل ، والنقراشى وزير المواصلات - بتأييد من أحمد ماهر رئيس مجلس النواب - يرغبان فى عرض المشروع من خلال عطاء عالمى ، بينما كان عبيد وأعضاء مجلس الوزراء الآخرون - بتأييد من النحاس - يصرون على ضرورة قيام شركة بريطانية معينة بتولى المشروع على الرغم من أن التكاليف ستكون أكثر وأجرى النحاس تعديلا فى وزارته فى أغسطس ١٩٣٧ مستبعدا النقراشى ، وغالب من حكومته ، وبعد ذلك عقدت اللجنة العليا للوفد اجتماعا لمناقشة المسألة ، وانسحب أحمد ماهر الذى لم يلق إلا تأييدا ضئيلا^(٥١) ، وكان هذا أحد الانشقاقات الرئيسية فى تاريخ الوفد ، ونجم عنه ميلاد الحزب السعدى تحت زعامة أحمد ماهر والنقراشى ، وبدل ذلك الانشقاق على الثقل السياسى الحقيقى لمكرم عبيد ، وتأثيره ونفوذه على النحاس والحزب ، وقد كان نموذ مكرم عبيد فى مجلس الوزراء سببا فى زيادة السخط والاستياء ، ولم يتردد أعضاء الوفد فى استخدام النعرة الطائفية فى حملتهم ضد مجلس وزراء وصفوه بأنه خاضع بشكل واضح للنفوذ القبطى^(٥٢) .

وتمثل فترة الثلاثينيات سنوات الذروة فى حياة مكرم عبيد ونشاطه كسياسى ، إذ كان القوة الحقيقية خلف زعامة حزب الأغلبية ، كما كان سحر شخصيته وجاذبيتها مصدر قوته فى نشاطه السياسى. إذ كانت لديه القدرة على الوصول إلى الجماهير والتأثير فيها ، ولأنه كان متحدثا ممتازا يتمتع

(49) F.O. 371/ 20105, April 27, 1936, From Lampson to Eden.

(٥٠) عبد العظيم رمضان ، الوثائق المصرية فى التاريخ المصرى ، مجلة (صباح الخير) القاهرة ، ١٧ فبراير ١٩٧٧ .

(٥١) د. محمد حسين هيكل ، مذكرات فى السياسة المصرية ، المجلد الثانى (١٩٣٧ - ١٩٥٢ ص . ٣٥ ، ٣٦ ، ص : ٤٨ .

(52) F.O. 371/ 22004, April 13, 1938, From Lampson to Eden.

بالقدرة على اختيار الكلمات المناسبة وإيقاع متواتر متزن ، فقد ركز دائما أحاديثه إلى قلب أمة عاطفية بدلا من أن يوجهه إلى عقل مفكرها ، وقد كان لسحر الشخصية وجاذبيتها دائما أثره على المواطنين خصوصا في الدول غير المتقدمة ، وسنل تلك الميزات الشخصية غير متاحة للإنسان العادى ، ويمكن اعتبارها أقرب إلى الموهبة من الخبرة المكتسبة ، ويتم على أساسها التعرف على خصائص الزعامة لدى أصحابها⁽⁵³⁾ . فإذا كان ذلك هو مفهوم الكاريزما (CHARISMA) أو سحر الشخصية وجاذبيتها ، فإنه يمكن اعتبار مكرم عبيد سياسيا له خاصية متميزة وذو شخصية تتصف بالحوية ، إلى جانب ثقافته المزوجة ، العربية والأجنبية ، واتصاله السهل والمؤثر بالجمهور الشعب ، كما يمكن أن نصفه « ديماجوجيا » سياسيا إلى حد كبير مثل كثير من ساسة العالم المتخلف ممن يقدر على جذب الجماهير والحصول على الشعبية . وإذا ما قارنا عبيد بالسياسيين المصريين الآخرين ، مثل إسماعيل صدق ، على سبيل المثال ، لوجدنا أن الأخير كان يفتقد إلى وسيلة الاتصال السهلة والعلاقة الحميمة بالشعب والتي كان يمتلكها عبيد ، ولأنه متحدث ممتاز مصدر قوة عظيمة على المسرح السياسى ، ليس فقط في الدول المتخلفة ، بل في الدول المتقدمة أيضا (مثل لويد جورج في بريطانيا) ، ويعتبر مكرم عبيد أشهر خطيب في التاريخ السياسى المصرى الحديث ، ولسوء الحظ ، فإن أية ترجمة لخطبه وأحاديثه تعجز عن إبراز قوتها الحقيقية لأنه من غير الممكن الإبقاء على الأسلوب الخاص لبلاغته في الترجمة ، وكان مشهورا باستخدام السجع ، كى يدفع بوجهة نظره إلى هدفه المنشود .

وقد ألقى خطابا وأحاديث في مناسبات عديدة لا تحصى ، بعضها لأهداف وطنية ، والبعض الآخر لأسباب ودواع سياسية أو حزبية ، بالإضافة إلى أحاديثه وخطبه الوزارية والبرلمانية ، ويتعين أن نضيف إلى تلك دفاعه البارع في القضايا الحقوقية الشهيرة ، حيث أثبت أنه محامى مرافعات متميز في كل من القضايا السياسية والمدنية . وقد وصف عباس العقاد ، مكرم عبيد في مقدمته للمكرميات بأنه مزيج اهتمامات متنوعة ونشاطات مختلفة ، مع موهبة في الأدب والسياسة⁽⁵⁴⁾ ، والواقع أن خبرة مكرم عبيد كمحام ، ساعدته كثيرا كسياسى ، لأن المحاماة كمهنة ، كانت امتدادا لشاطه السياسى . وقد كان معظم الوزراء المصريين في تلك الفترة محاميين

(53) Max Weber, *On charisma, and Institution Building*, selected papers- Edited and with an introduction by S. N. Eisenstadt, Chicago, 1968, p 48

(54) أحمد قاسم جودة . المصدر نفسه ، ص - ١٠

أو من خريجي مدرسة الحقوق ، وقد كان مكرم عبيد محاميا ناجحا بكل المقاييس ، ولا زالت أصداء مرافعاته معروفة في تاريخ المحاماة في مصر ، وقد كان يعتمد في دفاعه على التحليل المنطقي لدوافع الجريمة ، ويتصور نفسه في موضع المتهم أمام المحكمة^(٥٥) .

ومن طرائف الأدب والسياسة في حياة مكرم عبيد ذلك المقال الذي كتبه في «كوكب الشرق»^(٥٦) ، في ٦ أكتوبر ١٩٣٥ ، وهاجم فيه عباس العقاد ، متها إياه بالغطرسة والنفاق والرياء ، وبأنه بدأ حياته العامة في خدمة السلطات العسكرية البريطانية ، كرقيب على الصحافة المصرية ، وكان السبب الرئيسي لذلك المقال العنيف هو أن العقاد كان قد انتقد بعنف حكومة نسيم باشا لأن الهلالى باشا وزير المعارف في حكومته ، كان قد رفض وساطة العقاد الشخصية لبعض أصدقائه ، كما تردد في ذلك الوقت ولم تكن سياسة الوفد عدائية تجاه حكومة نسيم ، كما لم يكن العقاد - ككاتب وفدى - قد استشار زعامة الحزب قبل أن يبدأ حملته الصحفية ضد الحكومة .

ويعتبر مقال عبيد نموذجاً رائعاً للمقال الصحفي القوى ، وقد تصدى العقاد للهجوم بأن رد على عبيد في «روز اليوسف» في ١٧ أكتوبر ١٩٣٥ ، مفنداً الادعاء ومتها إياه بتبديد أموال الوفد برحلاته إلى لندن وباريس^(٥٧) .

وكانت العلاقات بين عبيد كسياسي والعقاد ككاتب ، طيبة أحيانا ، وسيئة أحيانا أخرى ، فقبل المجادلات الحادة بينها على صفحات الجرائد والمجلات ، دافع عن العقاد في محاكمته السياسية ، وبعدها أيضا ، كتب العقاد مقدمة «المكرميات» ممتدحا عبيد . قائلا إنها قدما سويا من مدرسة في قنا اشتهرت بتلاميذها الذين حققوا لأنفسهم - فيما بعد - شهرة عظيمة في مجال الأدب^(٥٨) ، ذلك هو مكرم عبيد ، القوة الفعالة في حزب الوفد ، والبرلماني المتميز والمحامي المعروف والخطيب المشهور ، والوزير النشط . وعلاوة على ذلك «كان منصب السكرتير العام

(٥٥) من لقاء مع السيد/ صلاح الشاهد في ٢٠ يناير ١٩٧٥ .

(٥٦) «كوكب الشرق» صحيفة وفدية حلت محل صحيفة «النار» سنة ١٩٢٤ برئيس التحرير نفسه ، وهو حافظ عوض ، واتخذت الخط المتطرف في الوفد وتبعت أحمد ماهر ، والنقاش في انفصالها ١٩٣٧ .

(٥٧) رجاء النقاش ، عباس العقاد بين اليقين واليسار ، بيروت (بدون تاريخ) ص : ٣٨١ ، ٣٩٨ .

(٥٨) أحمد قاسم جودة ، المصدر نفسه ، ص - ٩ .

للفرد « يعتبر أهم منصب سياسى وشعبى فى مصر فى ذلك الوقت (٥٩) ، وكان مثلاً وصفه الدكتور
محجوب ثابت ، الأديب ، وأحد اصدقاء سعد زغلول المعروفين ، حين ذكر عن عبيد :
«إنه خطيب يؤثر بالعاطفة كالموسيقى ، صديق مخلص ، عدو جبار . إنه ملاك فى صداقته ،
شيطان فى خصومته (٦٠) .

(٥٩) إبراهيم طلعت ، أيام الوفد الأخيرة . روز اليوسف ، القاهرة ، ٢١ فبراير ١٩٧٧
(٦٠) صالح السودانى ، الأسرار السياسية لأبطال الثورة المصرية والدكتور محجوب ثابت ، القاهرة ١٩٤٥ - ص - ٢٦٦ .

الفصل الرابع

مكرم عبید
والانشقاق عن الوفد

مكرم عبيد والانشقاق عن الوفد

تمثل الفترة ما بين ١٩٣٧ و ١٩٤٢ ، العصر الذهبي لحياة مكرم عبيد السياسية فقد أصبح مكرم عبيد - منذ خروج أحمد ماهر والنقراشي عن الوفد سنة ١٩٣٧ - أقوى قطب في الوفد بلا منافس تقريباً ، وقد ساعدت شخصية النحاس البسيطة وشفافيته على ذلك ، فقد كان النحاس - برغم صلابته - أقل ذكاء ومهابة من زغلول^(١) وتلك الشخصية ساعدت عبيد كثيراً في أن يكون القوة المؤثرة إلى جانب زعيم الوفد ، وفي الفترات التي كان فيها الوفد في السلطة ، كان عبيد الرجل الثاني كوزير للمالية ، وبصفته المستشار الأول للنحاس ، وحين كان الوفد خارج السلطة كان عبيد دعامة الحزب ، علاوة على انشغاله في الأنشطة الأخرى وأهمها دوره البرلماني ومسئوليته في نقابة المحامين ، وقد لا تتكرر ظاهرة عبيد كثيراً في السياسة المصرية لأنها ارتبطت بعوامل معينة وظروف بدايتها تدخلت في صياغتها وتشكيلها ، وتعتبر شخصية عبيد تعبيراً عن الرغبة في تحقيق وإقرار الوحدة الوطنية ، والسعى من أجل الاستقلال ، وهي الوحدة التي تعززت تحت زعامة زغلول ، كما كانت أيضاً تعبيراً عن النضج الاجتماعي المصري في مناخ ليبرالي ديمقراطي ، وقد نشأت العلاقة الشخصية والسياسية بين النحاس وعبيد ، وتوطدت عن طريق مساهمتهما المشتركة في الحركة الوطنية منذ أيام زغلول خصوصاً أثناء فترة المنفى ، عند ما أصبحا صديقين حميمين حيث تمتع عبيد بمنزلة خاصة لدى سعد زغلول ، والنحاس ، وقد ذكر عبيد أن زغلول قد قال له - ذات مرة - أثناء فترة المنفى إنه مسلم ، وأن عبيد قبطي ، ولكنه يحمد الله أن يكون له ابن مثله^(٢) ، وقد كانت المشاركة بين زغلول وكل من النحاس وعبيد سبباً في أن الأخيرين قد اكتسبا نظرة متقاربة للقضايا العامة والمسائل الوطنية لذلك فقد لعب عبيد دوراً نشطاً في اختيار النحاس

(1) M. Zayid, *Egypt's struggle for Independence*, beirut, 1965, p. 127.

(٢) ذكر عبيد ذلك خلال شهادته أثناء محاكمة فؤاد سراج الدين في ٢ يناير ١٩٥٤ بالقاهرة .

كخليفة لزغلول ، بتأييده ومساندته ضد منافسيه السياسيين الآخرين ، ويلقده على جمع الأصوات لصالحه (٣) .

وقد كان عبيد مكملاً لمواطن الضعف في شخصية النحاس أحياناً ، وهو الذي أيد النحاس وعضد اتجاهاته بين صفوف الوفد خلال انشقاق عام ١٩٣٠ و ١٩٣٧ ، وكان بمثابة صمام الأمان لشخصية النحاس الطيبة في كثير من المواقف (٤) ، وقد كان عبيد أيضاً وراء طرد عباس العقاد من حزب الوفد ، على الرغم من أن العقاد كان صحفياً بارزاً مؤيداً للوفد ، وكرر نفس الأسلوب - بعد ذلك - مع فاطمة اليوسف ، صاحبة مجلة روز اليوسف ، التي قالت في مذكراتها إن عبيد كان يسيطر على اجتماعات النحاس ويتحكم فيها (٥) ، وتقدم قصة النزاع بين مجلة روز اليوسف وحزب الوفد مثلاً طيباً لنفوذ عبيد لأنه كان صاحب القرار في مسألة إنهاء العلاقة بين الوفد وأكثر المجلات فعالية في تأييده وذكرته فاطمة اليوسف أن السبب كان مقالاً نشرته تحت عنوان « ولیم الكذاب » ، علقت فيه على قصة زائفة كتبها محام اسمه ولیم الديواني ، في « الجهاد » وهي صحيفة وفدية أخرى منها فيها روز اليوسف بأنها تأخذ رشاً ، واعتبر عبيد اختيار عنوان مقال روز اليوسف ، كتمليحة واضحة عليه ، لأنه كان يحمل اسم ولیم قبل انخراطه في الحركة الوطنية ، فانتزعت فرصة هجوم روز اليوسف على حكومة نسيم - بدون تعليقات من زعامة الحزب واعتبره نوعاً من الخروج على سياسة الوفد ، واتخذت اللجنة العليا للوفد في ٢٨ سبتمبر ١٩٣٥ قراراً بالاعتبار روز اليوسف - منذ ذلك الوقت - مجلة وفدية (٦) .

.. وجدیر بالذكر أن مصر منذ بداية الحرب العالمية الثانية قد بدأت تشهد موجات من المتعاطفين مع ألمانيا النازية ، لا ، لأنها كانت تعبيراً عن أفكارهم وآمالهم أو نتيجة قبولهم للمبادئ والأفكار النازية ، ولكن لأنهم كانوا يعتقدون أن بانتصار ألمانيا يبدأ الطريق إلى الحرية والاستقلال ، لأن كلا من مصر وألمانيا كانتا تعارضان بريطانيا كل لأسبابه ودوافعه (٧) .

(٣) انظر : أحمد شفيق ، الحولية الرابعة (١٩٢٧) ، القاهرة - ١٩٢٨ .

(٤) قبل انشقاق أحمد ماهر والنقراشي سنة ١٩٣٧ كان هناك انشقاق آخر سنة ١٩٣٠ عندما انسحبت مجموعة وفديين من الحزب احتجاجاً على سياسة النحاس المعتدلة ونفوذ العناصر الجديدة في الحزب ، وسمى هؤلاء المشقشين بمجموعة السبعة والنصف ، لأن أحدهم (على الشمسي) كان قصير القامة .

انظر : محمد حشيش ، حزب الوفد ، رسالة ماجستير لم تنشر - جامعة عين شمس - القاهرة - ١٩٧٠ .

(٥) فاطمة اليوسف ، ذكريات ، القاهرة ، ١٩٥٣ ، ص - ١٥٢ .

(٦) المرجع السابق - ص - ١٨٢ - ١٩٠ .

(٧) انظر : عبد العظيم رمضان ، تطور الحركة الوطنية في مصر ، ١٩٣٧ - ١٩٤٨ ، المجلد الثاني - بيروت (بلا تاريخ) .

وقد واجهت حكومة سرى باشا صعاباً متزايدة بسبب المشكلات الداخلية المتفاقمة^(٨) . واضطر محصول القمح الضعيف عام ١٩٤١ الحكومة إلى الحد من المساحة المخصصة لزراعة القطن ، بهدف تحقيق زيادة في مخزون الحبوب ، كما قامت الحكومة ، بالإضافة إلى ذلك باتخاذ إجراءات لمنع تخزين الحبوب لدى المواطنين لمقاومة السوق السوداء والتحكم في أقوات الشعب . ولما كان معظم أعضاء البرلمان من ملاك الأراضي والذين كان من الممكن أن يتأثروا - بصورة أو بأخرى - بتلك الإجراءات ، أرغم سرى على اتباع حل وسط مما جعل سياسته عقيمة وعاجزة ، وأدى إلى زيادة مضطردة في تكاليف المعيشة^(٩) ، وتميزت الفترة ما بين بداية الحرب العالمية الثانية في سبتمبر ١٩٣٩ و ٤ فبراير ١٩٤٢ بأحداثها السياسية المتلاحقة والتي يمكن أن نطلق عليها فترة القلاقل السياسية ، وتولى - أثناء تلك الفترة - ثلاثة رؤساء رئاسة الحكومة ، بدءاً بعلى ماهر باشا أكثر الشخصيات المستقلة فعالية على مسرح السياسة المصرية الحديثة ، والذي شكل أول مجلس وزراء له في ١٨ أغسطس ١٩٣٩ في ظروف حرجية ، صاحبت بداية الحرب^(١٠) ، وقد بدأ على ماهر عهده في السلطة ، بأن اهتم - في المقام الأول - بمصالح بريطانيا ، الحليف ، طبقاً لبنود معاهدة ١٩٣٦ ، وأعلن تعيينه - بصفته رئيساً للوزراء - كحاكم عسكري عام وأخضع الصحافة ووسائل الإعلام الأخرى للرقابة طبقاً للأحكام العرفية المفروضة .

وفي منتصف عام ١٩٤٠ تغيرت سياسة على ماهر بسبب تطور أنباء المعارك في أوروبا ، وكشف عن تعاطفه مع المحور عندما انهارت فرنسا أمام التقدم النازي ، وكان السبب الرئيسي الذي وضع حكومة على ماهر في موقف حرجٍ لإزاء البريطانيين هو نفوذ بعض أعضاء وزارته الذين اشتهروا بمشاعرهم المعادية للبريطانيين ، مثل النقراشي ، وعبد الرحمن عزام . بالإضافة إلى آخرين كانوا مؤيدين للمحور بلا تحفظ ، مثل صالح حرب وزير الحربية ، وعزيز على المصري ، المفتش العام للجيش المصري في ذلك الوقت .

وأثناء وجود على ماهر في السلطة لم يقيم الوفد - الذي كان بعيداً عن السلطة منذ ١٩٣٧ - بدور المعارضة المباشرة لسياسة على ماهر ، وفي أبريل ١٩٤٠ تقدم النحاس باشا بذكره إلى السفير

(٨) حسين سرى باشا ، سياسى مصرى مستقل ، شكل مجلس وزراء أكثر من مرة وكان قريباً للملك فاروق بالمصاهرة .

(٩) G. warburg, "Lampson's Ultimatum to Farnq, 4 February 1942" Middle eastern Studies, vol. 11, no. 1, london, january 1975, p.28.

(١٠) عصام سليان ، مرجع سابق ، ص - ١٠١ .

البريطاني بطلب فيها الانسحاب الكامل للقوات البريطانية من مصر عقب انتهاء الحرب ، وكانت نشاطات عبيد - في تلك الفترة - جزءا مكملًا لدور الوفد ، لأنه كان السكرتير العام للحزب والقوة المؤثرة خلف زعيمه ، ولم يتضح موقف الوفد بالنسبة لما إذا كان يتعين على مصر إعلان حالة الحرب ، إلى جانب الحلفاء أم لا ، لأنها كانت نقطة دقيقة أوقعت الشقاق في صفوف السياسيين المصريين والرأى العام ، وتركز الاهتمام الرئيسى للوفد وعبيد على ضرورة وجود حكومة شعبية عن طريق انتخابات ديمقراطية^(١١) . وكانت السلطات البريطانية في مصر على دراية تامة بالترعة المؤيدة للنازي ، التي كان يمثلها في الأساس على ماهر وعزيز المصري وأحمد حسين زعيم مصر الفتاة ، وأتباعهم في دوائر الحكومة والجيش ، ولعل ذلك الفهم البريطاني لدور العناصر المتعاطفة مع الألمان يعد من الأسباب المرتبطة بما يعرف في التاريخ المصري الحديث بمحادث ٤ فبراير ١٩٤٢ ، عندما قدم السفير البريطاني إنذارا إلى الملك يطالبه بدعوة النحاس لتشكيل الحكومة ، وقد اضطرت - تطورات الحرب العالمية الثانية وسير المعارك في الصحراء الغربية - البريطانيون للاعتماد على الوفد كحزب للأغلبية ، لأن حكومة شعبية كانت البديل الوحيد لحكم مباشر تتولاه وتشرف عليه السفارة البريطانية في القاهرة^(١٢) .

وقد أصبح الإنذار الذى قدمه سير مايلز لامبسون (لورد كيلرن فيما بعد) السفير البريطاني في مصر . إلى الملك فاروق في ٤ فبراير ١٩٤٢ بمثابة نقطة تحول في التاريخ السياسى لمصر ، إذ ألحق درجة من الإذلال بالقصر ، وأعاد الوفد إلى السلطة بعد أكثر من أربعة أعوام بعيدا عن الحكم ، إلا أن عودة الوفد تمت في ظروف غير مناسبة ، لأنه تولى الحكم عن طريق تهديد بريطاني بالتدخل ، وليس بسبب هيئته وشعبيته ، لذلك شهد العامان التاليان - أثناء وجود النحاس باشا رئيسا للوزراء على رأس حكومة وفدية - مزيدًا من التدهور في شعبية الوفد^(١٣) . ومع أن النحاس باشا بدأ حكومته الجديدة بالإفراج عن عزيز المصري وزملائه^(١٤) ، إلا أنه اعتقل على ماهر بسبب

(١١) المرجع السابق ، ص - ١٠٨ .

(١٢) ضياء بيبرس ، صفحات من مذكرات النحاس ، الأسبوع العربى - بيروت - ٣ فبراير ١٩٧٥ .

(١٣) C. warburg, Op. cit., Middle Eastern Studies, january 1975, p. 24

(١٤) انظر أيضًا : محمد أنيس - ٤ فبراير في تاريخ مصر السياسى - بيروت - ١٩٧٢ .

(١٤) اعتقل عزيز المصري للمرة الأولى في نوفمبر ١٩٤١ ، واعتقل مرة أخرى في أغسطس ١٩٤٢ ، في ظل حكم الوفد عندما اتهم بالتورط في قضية الجاسوسية التي كان أنور السادات متبها فيها أيضًا ، وأفرج عن عزيز المصري في نوفمبر ١٩٤٤ . (انظر : محمد صبيح ، بطل لا ننساه ، عزيز المصري وعصره ، القاهرة - ١٩٧١)

أنشطته ضد الحلفاء ، وكان هذا ما حدث ، على الرغم من إنكار النحاس باشا بأنه كان قد تلقى إيجاء بذلك من السلطات البريطانية^(١٥) ، وحتى تكتمل الصورة لابد من نظرة سريعة على الأحداث خارج مصر .

يعتبر أول تلك الأحداث ثورة رشيد على الكيلاني في العراق سنة ١٩٤١ التي خلقت إحساسا بالقلق والاضطراب في مصر ، وكانت - (وفقا لما ذكره أنور السادات الذي كان طرفاً في ذلك الوقت في محاولة مؤيدة للألمان نظمها فريق من الضباط بالاشتراك مع عزيز المصري) - الإشارة الأولى لتحرر الدول العربية^(١٦) ، ثم جاءت الهزائم والنكسات العسكرية البريطانية على الجبهة الليبية ، مع تصاعد التوقعات بحدوث غزو ألماني لمصر ، وأخيراً ظهرت مشكلة عرفت في التاريخ الدبلوماسي بـ « أزمة فيشي » التي أدت إلى مظاهرات شعبية ضد الحكومة ، وما أسماه المتظاهرون بأسيادها البريطانيين بتحريض من القصر ومستشاريه على ماهر والشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الأزهر ، الذي توفي عام ١٩٤٥ ، وأحد المخططين الرئيسيين للسياسة الإسلامية للملك فاروق .

وكان البريطانيون هم الذين أثاروا « أزمة فيشي » بإصرارهم على عدم إقدام مصر على عقد علاقات دبلوماسية مع حكومة فيشي ، وتم إرجاء البت في المسألة عدة أشهر بسبب رفض الملك فاروق ومستشاريه الإذعان لرغبات البريطانيين ، وعندما اتخذ سرى باشا - في النهاية - قرارا بالتصرف في يناير ١٩٤٢ ، فعل ذلك دون أن يستشير الملك فاروق مسبقاً ، ولذلك اتهمته المعارضة بالافتئات على سلطة الملك ، وقد أحجم الملك عن إقالة حكومة سرى لخوفه من حدوث مواجهة مباشرة بينه وبين السلطات البريطانية ، وانتهت المشكلة بإقالة صليب سامي ، وزير الخارجية المصرية الذي ضحت به الوزارة ككبش فداء^(١٧) ، وقد لعب مكرم عبيد دوراً كبيراً في مجريات الأمور في تلك الفترة ، وكان قد انضم إلى النحاس في رحلة قام بها إلى الصعيد عندما استدعى الملك فاروق زعماء الأحزاب المصرية ، ورؤساء الوزراء السابقين ، للتشاور معه في شأن الإنذار البريطاني وعلى الرغم من أن مكرم عبيد لم يكن من الفئتين المدعوتين ، إلا أن الدعوة شملته استثناء لأن الملك تلقى نصيحة بدعوته بسبب موقعه الحزبي وتأثيره على النحاس^(١٨) .

(١٥) عبد العظيم رمضان ، ٤ فبراير ، وثائق جديدة ، الأهرام - القاهرة - ١٤ فبراير ١٩٧٥ - ص - ٢٨ .

(16) A.El- Sadat, *Revolt on the Nile*, New York, 1957, P. 38.

(17) G. Warburg, op. cit., *Middle Eastern Studies*, January, 1975, p.28

(١٨) د. محمد حسين هيكل ، مرجع سابق ، ص - ٢٢٩ .

وقد كان عبيد هو المهندس الحقيقي لقرارات الوفد ، وتحديد دوره في السياسة الوطنية ، ابتداء من معاهدة ١٩٣٦ ، والإنذار البريطاني في فبراير ١٩٤٢ ، ومشاركته في إعداد الرسائل المتبادلة بين المحاسن ولا ميسون المدبوب السامي عندما شكل النحاس وزارته لتفادي انهيار العرش وسقوط الملكية في ذلك الوقت ، وقد عين عبيد - وزيرا للمالية ، ووزيرا للتموين ، وهما وزارتان تمثلان أكثر المسئوليات أهمية في وقت الحرب ، وذلك يعني أنه كان على علاقات طيبة للغاية مع النحاس عند بداية مجلس الوزراء الجديد ، على الرغم من أن نجيب الهلالي وزير المعارف في تلك الوزارة قرر أنه كان يشعر بأن هناك خلافاً بين النحاس وعبيد . منذ الأيام الأولى للحكومة الجديدة ، إذ لاحظ أن العلاقات الشخصية لم تكن وثيقة مثلما كانت من قبل ، وأنه لم يكن هناك نفس الانسجام السابق بينهما في اتخاذ القرارات وتوجيه الأمور^(١٩) .

والواقع أن الانشقاق بين النحاس وعبيد قد بدأ قبل ذلك ، بل منذ أوائل عام ١٩٣٧ ، عندما دفع على ماهر - رئيس الديوان الملكي للملك الشاب فاروق - بالشيخ المراغي ، شيخ الأزهر لوضع الصعاب في طريق حكومة النحاس عن طريق إثارة الادعاء بأن الوفد كان خاضعا لسيطرة الأقباط وتحكمهم تحت زعامة عبيد ، لوضع النحاس في موقف حرج ، وتسميم علاقته مع عبيد ، وأطلقوا تلميحات إلى القصر الملكي في ذلك الوقت بإضفاء الصبغة الإسلامية على الملك الجديد من أجل تشويه صورة النحاس وإظهاره كزعيم ضعيف خاضع للنفوذ القبطي في حزبه ، وقد بعث القائم بالأعمال البريطاني في القاهرة بتقرير إلى وزارة الخارجية في لندن جاء فيه :

فيما يتعلق بزيارة الشيخ المراغي للسكرتير الشرقي ، يبدو واضحا أن هناك انقلابا يتم الإعداد له بصورة جدية لإسقاط الحكومة ، وأن موقفنا يعتبر عاملا هاما في ذلك ، وقد أخذ على ماهر وجهة نظري قبل التحدث عن اقتراحاته ، ثم أضاف أنه أوصى بمعارضة الاتجاهات الجديدة^(٢٠) .

وأرسل تقريرا بعد يومين قال فيه :

إذا كنا قد أخبرنا على ماهر والشيخ المراغي ، أن مسألة الحكومة ، مسألة مصرفية صرفة ، وأن حكومة صاحبة الجلالة مستعدة للتعامل مع أية حكومة دستورية لكانا قد فسرا في الغالب هذا

(١٩) الأهرام - القاهرة - ١٤ ديسمبر ١٩٥٣ (من شهادة أحمد نجيب الهلالي التي أدل بها في محاكمة فؤاد سراج الدين)
(20) F.O. 371/ 20885, August 31. 1937, Kelly to Eden.

كإشارة للسير قدما^(٢٠) ، وبينما كانت سياسة فاروق الإسلامية - بتوجيه من على ماهر - تزعج الأقباط ، كان الشيخ المراغى فى الجانب الآخر يبدى مخاوفه من تزايد النفوذ القبطى فى الوفد - كحزب وحكومة - وقد واصلت السفارة البريطانية القول :

لا يوجد أدنى شك فى أن المعارضة للنحاس تعتمد على إثارة العداء الكامن المستتر بين المسلمين والأقباط ، بصفته أحد الأوراق الراجعة ، والجزء الأكبر لما وصفته بأنه محادق العامة مع الشيخ المراغى ، دار فى الواقع حول شجب الشيخ للنفوذ القبطى فى مصر ، وذكر أسماء جمعيات مختلفة تغلغل بين المسلمين المصريين ، وقال إن الحكومة الحالية لمصر تعتمد على أقلية دينية لا بد من إنهاء حكمها ، وأكد أن الأقباط أقلية عنصرية أيضا لأن المسلمين من سلالة عربية فى الغالب ، وأضاف أن النفوذ البريطانى فى وزارة الداخلية كان يتم استخدامه دائما للحيلولة دون أن يصبح الأقباط ضباطا فى البوليس ، وعبر عن آماله فى أن يتم تسوية المسألة بارتضاء المسلمين ، إذ أنه إذا لم يتم الحد من النفوذ القبطى ، فإن ذلك سوف يؤدى إلى إذكاء روح التعصب الدينى فى مصر .

وقد خطط على ماهر سياسته لإسقاط حكومة النحاس ، وتفتيت الوفد ، بمحاولة تكوين هالة إسلامية حول فاروق فى مواجهة موقف النحاس العلمانى الذى يحتوى الأقباط فى إطار الوحدة الوطنية ، وقد استخدم الأزهر فى حملته ضد الوفد تلك السياسة باستغلال الطابع الإسلامى الذى يضيفه على الملك الجديد . وهو الوضع الذى صاغه على ماهر بالاشتراك مع الشيخ المراغى حتى أن طلبة الأزهر الشريف فى انتخابات سنة ١٩٣٨ كانوا يهتفون (صوت للنحاس ، صوت ضد الإسلام) . ولعل ذلك يلقى ضوءا على دور القصر الملكى ومستشاريه فى وضع الجذور الأولى للخلاف بين النحاس وعبيد التى ظهرت على السطح عام ١٩٤٢ ، ذلك لأن الانتقادات الإسلامية ضد الوفد كانت موجهة فى الأساس إلى العلاقة الوثيقة بين زعيمى الحزب ، وكل محاولة لدراسة الخلاف بين النحاس وعبيد لا بد وأن تضع عاملين رئيسيين فى الاعتبار : يتعلق الأول بالقوى التى كانت موجودة على المسرح السياسى ، ونعنى بها القصر الملكى والسفارة

(21) F.O. 371/ 20885, September 2, 1937, Kelly to Eden.

(22) F.O. 407/ 222, May 17, 1938, Lampson to Halifax

(وليزيد من المعلومات عن الحملة المعادية للأقباط ، انظر : الكشكول - عدد فبراير ومارس ١٩٣٨ - القاهرة)

البريطانية والأحزاب السياسية الأخرى ، وعلاقاتها المتبادلة في ضوء حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ ،
والعامل الآخر ، هو المناخ السياسى المرتبط بظروف الحرب ، والحالة الاقتصادية ، بالإضافة إلى
بعض التغيرات التى حدثت داخل الوفد كحزب ، وأثرت على سياسته ، وجميعها أثرت في رأى
العام المصرى .

وفما يتعلق بمجموعة العوامل الأولى يمكن أن يميز بسهولة تأثير أحداث الرابع من فبراير عليها .
ففيما يتصل بالقصر الملكى ، ولقهم موقف الملك ومستشاريه ، فإنه يصبح من الضرورى تقييم تأثير
ونفوذ شخصية هامة في تاريخ تلك الفترة وهى شخصية : أحمد حسنين باشا - كبير الأمراء ،
والمسمى « رائد الملك » منذ صباه حين كان ولياً للعهد . ويعتبر أحمد حسنين . شخصية متميزة
ومتعددة القدرات ، ولكنه كان يبدو - ظاهرياً - رقيقاً وعزوفاً عن العمل السياسى العلنى . ويعتبر
حسين من طراز فريد ومراوغاً بالطبيعة ، وقد شعر أن حادث ٤ فبراير إهانة للملك
والقصر ، واعتبر أنها صفة شخصية له لأن معناها فشل أسلوبه باعتباره الناصح الأول للملك
بحكم قربه منه .

فى ٧ فبراير ١٩٤٢ قال حسنين في محادثة له مع الصحفى المصرى المعروف محمد التابعى ، إنه
لن ينسى أبداً ما حدث ، وأن جهود ثمانية أسابيع قد ضاعت هباءً وكان يعنى بذلك أن
البريطانيين كانوا أسرع منه في احتواء الوفد ، وأنه قد ساورته بعض الشكوك بشأن دور النحاس
وعبيد وأمين عثمان ، واحتمال تواطئهم مع السفارة البريطانية ، إلا أن حسنين كان يضيف أنه على
الرغم مما يشعر به من مرارة ، فإنه مقتنع بأن النحاس وعبيد وعثمان لم يكن لديهم أى شىء
يفعلونه ، ولا علاقة لهم بمسار الأحداث في ذلك اليوم ، وكان انتقام حسنين هو محاولة تلقين
الوفد درساً كرد للظمة ٤ فبراير ، وقد اكتشف أن الثغرة التى يمكن النفاذ منها هى العلاقة بين

(٢٣) ولد أحمد محمد حسنين باشا سنة ١٨٨٥ ، وكان والده شيخاً أزهرياً ، وقد انضم بعد دراسته في جامعة أكسفورد إلى
هيئة مكتب الجنرال ماكسويل في مصر كسكرتير عرنى خاص أثناء الحرب العالمية الأولى ، وتقلد عدة وظائف في وزارة
الخارجية المصرية ، ثم أصبح ياوراً للملك فؤاد ، وبعد وفاة فؤاد ، تمتع بنفوذ قوى في القصر الملكى لشخصيته
الحدادية ، وقوة تأثيره التى امتدت إلى الملكة الأم (نازلى) كما كان حسين رياضياً ورحالة له إسهاماته في اكتشاف أسرار
الصحراء الغربية .

انظر : كتاب التابعى « من أسرار الساسة والسياسة » ص - ١٤ - ٢١ .

النحاس وعبيد قطبي الوفد^(٢٤) ، ويتردد أن رأى حسين في مكرم عبيد أنه سياسى هزيل ولكنه سوف يستخدمه في ضرب الوفد^(٢٥) ، وتوضح مشاعر حسين ثم مخططاته ، دور القصر الرئيسى في الانشقاق الذى حدث في صفوف الوفد ، وتشجيع عبيد لتحقيق ذلك الهدف .

أما فيما يتعلق بالسفارة البريطانية ، فالكتاب الغربيون يحللون موقفها على أساس أن الحافز الرئيسى للمبسون في أحداث ٤ فبراير ١٩٤٢ ، كان هو ضمان تنازل فاروق عن عرشه ، وكان اقتراح دعوة النحاس لاستعادة السلطة ، حلا وسطا قدمه الملك بناء على نصيحة حسين باشا^(٢٦) . إلا أن السفارة البريطانية أبدت - بعد ذلك - مرونة وشعورا وديا تجاه الوفد ، وتجاه القصر - إلى حد ما أيضا - في محاولة لتخفيف مضاعفات حادث ٤ فبراير ، وتغادى أى رد فعل عنيف لها ، وقد استهلت السفارة والوفد عهد المصالحة والوفاء هذا بتبادل خطابات المجاملة التى احتوت مبدأ التعاون والعلاقات الطيبة ، وأنشأ عبيد معهم لجنة إنجليزية - مصرية مشتركة لدراسة الموقف الغذائى في زمن الحرب ، مع امكانيات متوقعة بمساعدة بريطانيا أو أى بديل آخر^(٢٧) .

أما فيما يتعلق بالأحزاب السياسية الأخرى « أحزاب الأقلية » فقد وجهت انتقادات قوية للوفد لأنه جاء إلى السلطة بقوة الدبابات البريطانية ، وفي اجتماع الملك مع الزعماء السياسيين في ليلة الرابع من فبراير ، انتقد على ماهر وزعماء الأحزاب الأخرى النحاس بسبب رفضه تشكيل حكومة قومية ، وتصميمه على تأليف مجلس وزراء وفدى صرف^(٢٨) ، وكانت فرصة لأحزاب الأقلية لمهاجمة الوفد من هذه الزاوية الجديدة ، متهمه إياه بتغيير سياسته وبالتحالف مع البريطانيين .

كان هذا - في إيجاز - هو وضع القوى السياسية الرئيسية في مصر سنة ١٩٤٢ كانت هناك أزمة ثقة بين القصر والوفد ، وأحزاب الأقلية تطلق الاتهامات على الوفد لأنه قد تحول عن خطه

(٢٤) محمد التابى ، من أسرار الساسة والسياسة ، كتاب الهلال - فبراير ١٩٧٠ - ص - ٢٥٧
اعتاد أمين عثمان القيام بالوساطة بين الوفد والسفارة البريطانية ، وقد بدأ موظفًا في وزارة المالية إلى أن أصبح وزيرًا للمالية قبل اغتياله في يناير ١٩٤٦ .

(٢٥) محمد حشيش ، مرجع سابق ، رسالة ماحستير لم تنشر جامعة عين شمس - القاهرة - ١٩٧٠
(26) G Warburg, Op. cit., middle eastern studies, January, 1975, p. 31.
(27) F.O. 371/ 31568, February 12, 1942, Lampson to Eden.

(٢٨) محمد التابى - مرجع سابق - ص - ٢٣٨ .
ود. محمد حسين هيكل - مرجع سابق - ص - ٢٣١

الوطني ، وقد حاول البريطانيون - من جانبهم - استعادة ثقة الملك والرأى العام نظرًا لظروف الحرب وتطورات الموقف السياسى .

وكان العامل المسيطر على الجو السياسى عمومًا هو التهديد الذى كانت الحرب تشكله فى الصحراء الغربية ، حيث كانت رضى المعارك تدور فى اتجاه متدهور بالنسبة للحلفاء ، وانتشر جو من القلق فى صفوف قطاعات كبيرة من الشعب المصرى ، وانتشرت الشائعات التى تتحدث عن قرب وصول القوات الألمانية إلى أبواب الاسكندرية ، مما دفع النحاس إلى دعوة مجلس وزرائه لمناقشة مسألة إعلان حالة الطوارئ ، وقرر المجلس أن يبعث برسالة إلى قائد القوات الألمانية الظافرة ، وكلف نجيب الهللى - وزير المعارف بكتابة نصها ليوقع عليها النحاس وليسلمها محافظ الإسكندرية عبد الحالى حسونة باشا ، إلى رومل^(٢٩) .

وجاء فى الرسالة أن مصر كدولة ليست شريكا فى الحرب ، وأن جميع الإجراءات العسكرية فى مصر تقررت من جانب السلطات العسكرية البريطانية ضد إرادة الحكومة المصرية . وأضافت الرسالة أن مصر حكومة وشعبًا تتطلع إلى السلام والاستقرار ، ومن أجل ذلك ، اتخذت الإجراءات الضرورية لحفظ الأمن والاستعداد لمواجهة أية اضطرابات داخلية ، وكانت الرسالة بمثابة محاولة لإجراء اتصال مباشر مع القائد العسكرى الألمانى لأن وصول قواته إلى الإسكندرية كان أمرًا متوقعًا تمامًا ، ولا حاجة للقول بأن الرسالة لم تصل إلى رومل قط لأنه كان من المتعذر وصول المبعوث المصرى إليه ، كما أن أى مبعوث لم يكن مستعدًا للتضحية بحياته لتسليمها^(٣٠) ، كذلك كانت الحالة الاقتصادية متدهورة بصورة كبيرة ، كما كان هناك تخوف بشأن تناقص احتياطي المواد الغذائية التى زادها سوءًا ميل الشعب المتخوف إلى التخزين ، كما كان هناك أيضًا نقص حاد فى القمح خصوصًا فى المدن^(٣١) ، وأعلن النحاس أن مصر لديها من المواد الغذائية ما يكفى لشهر واحد فقط ، وسارع اليهود المصريون بمغادرة البلاد قبل وصول القوات النازية إلى المدن المصرية^(٣٢) .

فلذا عدنا إلى التطورات داخل الوفد التى أدت إلى انشقاق عبيد عنه ، وهو انشقاق استولى

(٢٩) عبد الحالى حسونة - أمين عام جامعة الدول العربية بعد ذلك .

(30) Vatikotes, Op. cit., pp. 351-352.

(31) F.O. 371/ 31572, May 28, 1942, Lampson to Eden.

(٣٢) محمد التابى - مرجع سابق - ص - ٣١٥ .

على اهتمام الرأي العام المصرى ، على الرغم من المد والجزر في المعارك بين الحلفاء والمحور في الصحراء الغربية ، فإنه يجدر أن نتطرق إلى العامل الشخصى في تركيب الوفد وبنائه ، فالنحاس نفسه كان قد تغير بمرور الأعوام خصوصًا بعد أن وقع معاهدة ١٩٣٦ ، فلم يعد ذلك الرجل المتشدد في سياسته ، وكان قد أصبح - بالنسبة والخبرة - أكثر واقعية واستعدادًا للتعاون مع البريطانيين إلى حد معين ، وكان هناك عامل هام آخر في التغيرات التي حدثت في شخصية النحاس ، وكان هذا العامل هو زوجته زينب الوكيل وكانت سيدة شابة جميلة وذكية ولها تطلعات اجتماعية ، وذات شخصية مهيمنة ، وقد تعودت على التدخل في العمل السياسى للنحاس وفي علاقاته مع أصدقائه وزملائه ، وكان أحد أمثلة تدخلها المعروفة في شئون زوجها هو اقتراحها المباشر لحسين باشا رئيس الديوان الملكى ، بمنح لقب الباشوية لعدد من الشخصيات الثرية لحثهم على منح تبرعات وهبات للجمعيات الخيرية التي كانت تشرف عليها (٣٣) . ثم كان هناك ظهور شخصية فؤاد سراج الدين في الوفد ، وهو شاب غنى ينتمى إلى عائلة معروفة ، ويبدو أن تدخل السيدة زينب الوكيل في شئون زوجها إلى جانب بروز دور سراج الدين وصعود نجمه في الوفد ، كان لها تأثير كبير على شخصية النحاس ، وفي الوقت نفسه أدى اختفاء كبار المثقفين من الحزب ، الذى أصبح يجذب إليه كبار ملاك الأرض والأثرياء ، فلم يعد الحزب يستقطب أهل الفكر والعناصر المثقفة التي كان في مقدورها دفع الوفد في اتجاه أكثر تقدمية ، أدى كل ذلك إلى مزيد من إضعاف الحزب ، وجعله فريسة للانشقاق الداخلى .

كانت تلك هي الصورة العامة للموقف في الأشهر القليلة الأولى بعد حادث ٤ فبراير وهو تاريخ عودة الوفد إلى السلطة بعد طول غياب ، وفي الواقع إن أية محاولة لإجراء دراسة كاملة للعلاقة بين النحاس وعبيد ، والتوصل إلى جذور الخلافات سوف تواجه بمجموعة معقدة من الأسباب والعوامل التي أدت إلى الشقاق ، وسوف يكون من الصعب اعتبار هذا السبب أو ذاك كأنه السبب الحقيقي للشقاق ، وبحسن أن نأخذ جميع تلك الأسباب في الاعتبار إذ أنه عند مناقشة تلك الأسباب واحدًا بعد الآخر ، سوف نجد أن كل واحد منها لا يمكن أن ينهض بمفرده كسبب كاف لتفسير ما حدث ، ويمكن إيجاز الأسباب والعوامل التي تقف وراء الخلاف بين النحاس وعبيد في

(٣٣) المرجع السابق - ص ٢٨٣

د . هيكى ، مرجع سابق ، ص ٢٦٥ .

د . محمد حشيش ، مرجع سابق ، ص - ٦ .

عدة نقاط رئيسية ازدياد نفوذ عبيد في الحياة السياسية للبلاد بصورة عامة وداخل الحكومة بصفة خاصة ، إلى درجة أن زوجة النحاس ، عابت على زوجها تساهله وإيثاره لعبيد حتى أن الناس يعتقدون أن الأخير هو كل شيء في الحزب والحكومة ، وأن زوجها مجرد واجهة^(٣٤) ، كما أن النحاس في الجانب الآخر كان قد استوعب درس انشقاق ١٩٣٧ عندما كان تزايد نفوذ عبيد من أسباب ضيق أحمد ماهر والنقراشي مما دفعه إلى محاولة إيجاد توازن بين القيادات التاريخية من الجيل الوفدي القديم ، فحاول النحاس توزيع الأهمية داخل الحزب بين عدد من الشخصيات الوفدية الأخرى مثل صبرى أبو علم باشا ، ولجيب الهلالى باشا^(٣٥) ، ومن المؤكد أيضاً أن حرم النحاس كانت مستاءة من نفوذ عبيد وشعبيته ، وقامت بصفتها سيدة ذات تطلعات اجتماعية بعقد مقارنة بين زوجها وعبيد ، فكتشفت أن الأخير كان يتمتع بدخل إضافي من عمله في المحاماة أثناء وجود الوفد خارج السلطة ، بينما لم يكن للنحاس إلا معاشه فقط^(٣٦) ، وقد ذكر أحمد حسنين للصحفي محمد التابعي الذي كان صديقاً له أن حرم النحاس قد ذكرت له بأنها تريد منه كسر شوكة عبيد ، وعندما سأها عن مبرر ذلك ، أخبرته حسنين المستشار الأول للقصر ، بأن عبيد يكره الملك^(٣٧) ، ووجهت اللوم إلى أحمد قاسم جودة ، الصحفي ومن أنصار عبيد ، لأن الصحافة كانت تولى عبيد اهتماماً أكبر بنشرها أحاديثه واجتماعاته وأسفاره ، بينما النحاس وغيره من الوزراء الآخرين لا ينالون اهتماماً مماثلاً^(٣٨) ، ومرة أخرى ، كان بروز فؤاد سراج الدين في الوفد عاملاً لا ينكر في الشقاق بين النحاس وعبيد ، ومن سخریات القدر أن عبيد هو الذي قدم سراج الدين للنحاس في انتخابات ١٩٣٦ ، وأقنع النحاس بالموافقة على شخص فؤاد سراج الدين كمرشح وفدي في دائرته الانتخابية^(٣٩) ، وظلت العلاقة الشخصية بين عبيد وسراج الدين

(٣٤) د. محمد حسين هيكل ، مرجع سابق ، ص - ٢٦٥ .

(٣٥) صلاح الشاهد ، ذكرياتي في عهدي ، القاهرة - ١٩٧٦ - ص - ٤٠ .

(٣٦) د. هيكل ، مرجع سابق ، ص - ٢٦٥ .

(٣٧) محمد التابعي ، مرجع سابق ، ص - ٢٨٥ .

(٣٨) محمد التابعي ، مرجع سابق ، ص ٢٩٤ .

(٣٩) رفض النحاس - في أول الأمر - اختيار سراج الدين لخوض انتخابات ١٩٣٦ كوفدي لأن والده كان شخصية رئيسية في حزب الشعب الذي كان موالياً للقصر ، وقد فُرج سراج الدين من كلية الحقوق ، وبدأ حياته بالعمل في النيابة ، وعندما انضم للوفد كان في الثلاثينيات من عمره .

(من لقاء مع الأستاذ/ فكري عبيد - ١٤ فبراير ١٩٧٥)

طبيعية ، بينما كانت علاقة الأخير مع النحاس تزداد توثيقاً ، وشعر عبيد أن النحاس سوف يجدد أن هذه العلاقة الجديدة يمكن أن تحل في النهاية محل علاقته الخاصة ، وصداقته الطويلة مع النحاس ،^(٤٠) وهذا يفسر معارضة عبيد ، في فبراير ١٩٤٢ ، للاقتراح الذي تقدم به عبد الفتاح الطويل باشا وزير الصحة العمومية والشئون الاجتماعية بتأييد من النحاس نفسه - بتعيين فؤاد سراج الدين وكيلاً لوزارة الداخلية^(٤١) ، ومن الواضح أن تعيين سراج الدين بعد ذلك وزيراً للزراعة في ٣١ مارس ١٩٤٢ كان له تأثيره على الوفد وسياسته^(٤٢) ، ولكن كان هناك أيضاً دور القصر في المسألة ، إذ اعتزم أحمد حسنين تشويه سمعة الوفد ، من أجل الانتقام لسيده - الملك - بسبب الإهانة التي لحقت به في ٤ فبراير ١٩٤٢ ، عندما تم إرغامه على الموافقة على رئيس وزراء يتمتع بأغلبية شعبية والذي تجرأ على إثارة الهبة الخاصة لحزبه ضد سلطة الملك^(٤٣) .

وحاول القصر الملكي - عن طريق حسنين - استغلال عبيد ، وتوسيع شقة الخلاف مع النحاس للنيل من وحدة وتماسك الوفد^(٤٤) ، وفي ١٢ مارس ١٩٤٢ ، دعا حسنين مكرم عبيد لمقابلة الملك ، وكان السبب الظاهري لذلك هو استشارته في مسائل اقتصادية ، لكنها كانت مكيدة من حسنين لإيقاع الشقاق في صفوف الوفد ، وأصدر عبيد بياناً إلى الصحف وصف فيه مقابلاته الملكية ، ممتدحاً الملك بشدة ، وشارحاً أن هدف المقابلة كان عرض سياسته التمييزية وشئون القطن على الملك^(٤٥) ، وكان رد فعل هذه المقابلة على النحاس سيئاً ، وأبدى غضبه الشديد بشأنها وتعرض عبيد بسببها لانتقاد عنيف داخل الحزب^(٤٦) ، ويمكن أن نلاحظ أيضاً أن بعض الوفديين في كل من الحكومة والحزب قد عملوا على توسيع شقة الخلاف بين النحاس وعبيد أيضاً ، سعياً وراء أهداف شخصية ، وكان لصبري أبو علم وزير العدل ، ولنجيب الهلالي وزير

(٤٠) محمد التابى ، مرجع سابق ، ص ٩٠
ود محمد صلاح الدين وزير الخارجية في آخر مجلس وزراء وفدى .

(٤١) محمد حشيش ، مرجع سابق ، ص ٩
نقلا عن لقاء مع سراج الدين في ٦ إبريل ١٩٦٨

(٤٢) د. هيكل ، مرجع سابق ، ص ٢٦٦

وانظر أيضاً Vatikiotis, Op. cit., p. 353.

(43) M. Colombe, L'évolution de L'égypte 1924-1950, Paris, p. 107, and vatikiotis, op. cit., p. 353.

(٤٤) صلاح الشاهد ، مرجع سابق ، ص ٤٠

(٤٥) الأهرام ، ١٣ مارس ١٩٤٢ .

(٤٦) محمد التابى ، مرجع سابق ، ص ٢٦٢ - ٢٦٣ .

المعارف ، دور في ذلك ، إذ كانا يشعران بشيء من الضيق تجاه نفوذ عبيد والذي يتعمق إلى نفس جيلهما في الوفد^(٤٧) ، كما كان محمود أبو الفتح رئيس تحرير المصري ، صحيفة الوفد الرئيسية ، متأثراً بانطباع مؤداه أن عبيد لم يكن يميل إليه تمامًا ، وأنه قد عارض اختياره كوزير في حكومة الوفد ، لذلك لم يكن أبو الفتح - كصحفي كبير - ميالاً إلى تسوية الخلاف خصوصاً على صفحات جريدته ، لكنه كان على العكس لا يمانع في توسيع شقته^(٤٨) ، كما اهتمت بعض المصادر أمين عثمان أيضاً بأنه كان يعزز الخلاف ، وأنه يتحمل بعض المسؤولية في فشل محاولة للتصالح والوفاق^(٤٩) .

ثم كان هناك أخيراً ، عبيد نفسه ، بدوافعه الشخصية ، وتطلعاته وتقييمه لدوره السياسي في الوفد ، وإحساسه بشعبيته الكبيرة التي كان يحرص عليها منذ أيام سعد زغلول ، لذلك فقد تكون لديه شعور - في تلك الظروف - أن من حقه أن يتطلع إلى منصب رئيس الوزراء باعتباره أكثر قدرة وكفاية من كثيرين تولوا ذلك المنصب ، كما كان لديه اعتقاده الصادق في أن قبطيته لا تشكل عائقاً بالنسبة لتحقيق مطمحه في أن يصبح الرجل الأول في الحكومة المصرية إذ كانت هناك سابقتان تاريخيتان لذلك في تاريخ مصر الحديث^(٥٠) ، وقد ذكر مكرم عبيد للدكتور محمد حسين هيكل أكثر من مرة ، أنه لا يعتقد أن دينه يحول بينه وبين منصب رئيس الوزراء ، وكان يرى أن له أسبقية على أحمد ماهر والنقراشي ، لأنه بينما كان يشغل منصب السكرتير العام للوفد كان الإثنين عضوين في الحزب ، وقد ذكر لورد كيلرن في مذكراته :

« سألت أمين عثمان عن الشخصيات التي تقف في الصف الثاني خلف النحاس في الوفد ، فقال إنه كان يوجد ثلاثة رجال يتنازعون ذلك ، مكرم عبيد ، والنقراشي ، وشقيق على ماهر ، لكن - مما لا شك فيه - أن مكرم عبيد من بين أولئك الثلاثة هو الأكثر ذكاء إلى جانب أنه خطيب متميز ومؤثر »^(٥١) .

(٤٧) المرجع السابق ، ص - ٢٦٩ .

(٤٨) المرجع السابق ، ص - ٢٧٤ .

(49) F.O. 371/ 31572, May 31, 1942, Lampson to Eden.

(٥٠) بطرس غالي سنة ١٩٠٨ ويوسف وهبة سنة ١٩١٩ .

(51) Killearn Private Papers, Friday, May 25, 1934, p. 127. st. Antony's College, Oxford, England.

ومن المحتمل أن عبيد كان قد تلقى وعدا من الملك ، عن طريق أحمد حسنين ، أنه إذا نجح في إحداث انقسام واضح داخل الوفد ، وفي استقطاب مجموعة مناسبة من الأعضاء حوله . فإنه سوف يطلب منه تشكيل الوزارة ، وكان ذلك أيضًا هو نوع العرض الذى قدمه القصر لأحمد ماهر من قبل ، وقبل ذلك وفى سنة ١٩٣٧ ، نظر القصر الملكى باهتمام زائد إلى الاجتماع الحاسم الذى عقدته اللجنة العليا للوفد لمناقشة انشقاق ماهر والنقراشى ، بأمل أن يحدث ذلك انقسامًا كبيرًا فى صفوف الحزب ، وأن يتبعها عدد لا بأس به من أعضاء الوفد القادرين على تأييد أحمد ماهر ، إذا ما أقال الملك النحاس ، وطلب من ماهر تشكيل مجلس وزراء^(٥٢) .

وإذا كانت تلك هى البواعث الأساسية التى أدت إلى الانشقاق داخل الوفد فإنه توجد عوامل مباشرة كانت وراء سلسلة الأحداث المؤدية إلى الانهيار الكامل فى العلاقات بين رفيق الكفاح اللذان عبرا أمواج السياسة فى قارب واحد طوال ربع قرن تقريبًا ، وأهم عامل فى ذلك هو ما عرف بالانتقاد الشديد الذى جاهر به عبيد ضد المحاباة والفساد داخل الحزب وفى الحكومة الوفدية ، وكان من بين الأحداث التى أثارت العامل المباشر وحددت التوقيت للانشقاق الكامل ، أن حرم النحاس قدمت لعبيد - بصفته وزيرًا للمالية والتموين - عدة مطالب ، وكانت تلك المطالب تستلزم إجراء بعض التسهيلات غير القانونية لدعم وتعزيز المشروعات التجارية لعدد من أقاربها ، فقد كانت تريد استغلال منصب النحاس كرئيس للوزراء لتحسين الأوضاع المالية لها ولأسرتها ، كما كان النشاط التجارى لشقيقى حرم النحاس فى مجال التصدير والاستيراد يخضع مباشرة لنظم وقوانين وزارتي المالية والتموين التى كان عبيد يتولى مهامها^(٥٣) ، وقبل إنهاكنا يعملان كوسطاء تجاريين مستغلين علاقتها بالنحاس للحصول على تسهيلات خاصة عن طريق بعض الوزارات ، ثم تقاضى عمولات عن ذلك^(٥٤) .

كما كانت هناك المسألة الحيوية الخاصة « بالاستثناءات والترقيات » ، وتفاصيل ذلك أن

(٥٢) محمد حشيش - مرجع سابق - ص - ١١ .

د. هيكل - مرجع سابق - ص - ٤٩ .

(٥٣) د. هيكل - مرجع سابق - ص - ٢٦٥ .

محمد التابى - مرجع سابق - ص - ٢٦٧ .

محمد حشيش - مرجع سابق - ص - ١٣ .

(٥٤) جلال الدين الحامصى ، حواري وراء الأسوار ، القاهرة - ١٩٧٦ - ص - ٥٢ .

حكومة النحاس أرادت إجراء بعض الترقيات الاستثنائية لموظفي الحكومة من أنصار الوفد الذين عانوا في ظل الحكومات غير الوفدية ، وعارض عبيد الاقتراح وحوله إلى اللجنة المالية الوزارية في أول مايو ١٩٤٢ ، ونشرت جريدة (الأهرام) خبراً عن تلقى وزارة المالية لمذكرات عديدة من أعضاء الوزارة الوفدية يطلبون الموافقة على منح ترقيات استثنائية لعدد من موظفي وزاراتهم ، وكيف تحفظت الوزارة على هذا المطلب بدعوى أن الميزانية لا تجيز مثل تلك الاستثناءات^(٥٥) .

واستطردت جريدة (الأهرام) قائلة :

«إنه قد علم - من مصدر موثوق به - أن مذكرة اللجنة المالية المحولة من وزارة المالية إلى مجلس الوزراء في هذا الشأن قد رفضت من كل الوزراء باستثناء وزير المالية وحده^(٥٦) ! ، كما نشرت صحيفة (المصرى) مذكرة اللجنة المالية في ٢٣ مايو ، وهي المذكرة التي رفضت أيضاً جميع الحالات الاستثنائية^(٥٧) .

وكان النحاس يتوقع أن يستخدم عبيد مسألة الاستثناءات في خلافه معه ومع مجلس الوزراء وذلك يفسر لماذا كانت تلك المسألة بمثابة السهم القاتل الذي أدى إلى القطيعة الكاملة بين عبيد والنحاس^(٥٨) .

وتطورت الأمور بسرعة ، ولم يتطوع أى مسئول في الحزب أو الحكومة للسعى نحو رأب الصدع ، وبدأ عبيد في التعامل مباشرة مع القصر ، متجاهلاً النحاس ، وقدم في تقريره السنوى عن الميزانية الوزارية - في مجلس النواب - وعوداً نيابة عن الحكومة دون أن يستشير الوزراء المختصين مسبقاً ، وكان من أمثلة تلك الوعود بعض تعهدات من الحكومة ، مثل قرار وقف قرار البيع الجبرى للممتلكات التى أشهر إفلاسها ، دون إجراء مشاورات مسبقة مع صبرى أبو علم باشا وزير العدل ، مما تسبب في حدوث نوع من التناقض في سياسة الحكومة ، وفي مايو ١٩٤٢ تم

(٥٥) الأهرام ، ٢١ مايو ١٩٤٢ .

(٥٦) الأهرام ، ٢٢ مايو ١٩٤٢ .

(٥٧) كانت الأسماء الرئيسة الثلاثة التى اقترح الوفد ترقيتها بقرار استثنائى : إبراهيم فرج مسيحه - وتوفيق القاضى - ومحمد عثمان المصرى

F.O. 371/ 31572, May 27, 1942, From Lampson to Eden.

وقد نشر (المصرى) الأسماء نفسها في ٢٣ مايو ١٩٤٢ .

(٥٨) محمد التابى ، مرجع سابق ، ص - ٢٨٩ .

تعيين فؤاد سراج الدين - وزيراً للزراعة ، رغم اعتراض عبيد على ذلك ، وفي اليوم التالي ، استقبل النحاس . أحمد حسنين وعبيد ، كل على حدة ، وفي اليوم الثامن ، زار النحاس مديرية المنوفية مع صبرى أبو علم وفؤاد سراج الدين بدون عبيد ، الذى أرسل إليه النحاس برقية تهنئة بمناسبة عيد القيامة ، وفي محاولة لكبح جماح عبيد ، أعفاه النحاس من وزارة التموين ، مبرراً ذلك أنه نتيجة لسياسة جديدة تم الاتفاق عليها بينه وبين الملك (٥٩) .

وتم تعيين أحمد حمزة وزيراً للتموين فى ١٥ مايو ١٩٤٢ ، وقد ذكر عبيد - فيما بعد - للمستشار التجارى للسفارة البريطانية بأن مهام وزارته المالية والتموين كانتا كثيرة مما لا يمكن لوزير واحد أن يتولاها ، ومما لا شك فيه أن هذه الملاحظة أملت - إلى حد ما - رغبته فى تغطية ما شعره من إهانة (٦٠) ، وفى النصف الثانى من شهر مايو ١٩٤٢ ازدادت المواقف بين النحاس وعبيد تدهوراً ، وسعى كل منهما لعقد اجتماعات مع مؤيديه ليشرح لهم موقفه ويبرر تصرفاته ، وفى تلك المرحلة بدأت بعض المحاولات لإنهاء الخلاف بينهما ، فاقترح فؤاد سراج الدين على عبيد أن يذهب معه إلى قريته للراحة إلى أن تهدأ الأمور ، ولكن عبيد رفض ، مضيقاً أنه لا يرغب فى الابتعاد بينا المعركة السياسية محتدمة (٦١) ، وكانت مواقف عبيد والنحاس متعارضة بحدة ، لدرجة أن أحد زملائها فى الوفد ، وهو عبد القوى أحمد باشا قال : « أعتقد أننى إذا حملت القرآن فى يد ، والإنجيل فى اليد الأخرى ، وتوجهت إلى النحاس ومكرم كى يحلا خلافاتهما لرفض كلاهما ذلك (٦٢) » .

... واستقبل الملك عبيد فى ٢٦ مايو ١٩٤٢ ، والتقى بالنحاس فى وقت لاحق فى اليوم نفسه ، ولم يكن أياً منهما يدرى شيئاً عن مقابلة الآخر ، وقام النحاس بعرض تفاصيل النزاع على الملك ، وكان الملك من جانبه يؤدى دوراً مزدوجاً ، دبره حسنين ليفتن الوفد ، فما أن دعا الملك عبيد كى يسمع وجهة نظره ، حتى دعا النحاس فى اليوم نفسه ، كى يسمع الجانب الآخر من قصة

(٥٩) مضبطة مجلس النواب - جلسة رقم ٢ ، القاهرة - ٣٠ مارس ١٩٤٢ ص - ١٤٩ .

وأعلن النحاس ذلك القرار فى خطاب العرش الذى ألقاه فى البرلمان كما لو كان ذلك بناء على تعليمات الملك .

(60) F.O. 371/ 31572, May 21, 1942, From Lampson to Eden.

(٦١) محمد حشيش - مرجع سابق - ١٤ .

(٦٢) صبحى وحيدة - مرجع سابق - ص - ١٩٣ .

الخلاف ، وقد جاء على لسان محمود سليمان غنام - وهو وزير وفدى - أنه عندما قام النحاس بشرح جذور الخلاف بينه وبين عبيد للملك ، قال الملك للنحاس :
« لقد تحملت كثيراً من عبيد ، وكنت صبوراً عليه » (٦٣) .

وكان نفاق الملك ، وازدواجيته ، واضحاً ، عندما جاء على لسان عبيد وهو يصف استقبال الملك له قوله بأن جلالته كان ودياً للغاية (٦٤) .

وقد طالب النحاس بطرد فوري لعبيد من الوزارة ، لكن الملك رفض ، قائلاً إنه يرى أن يقدم النحاس استقالة حكومته ، ثم يعيد تشكيل مجلس وزرائه بدون عبيد إذا أراد ، وبالفعل استقال النحاس ، وطلب منه الملك إعادة تشكيل حكومته ، وهو ما فعله مع تعيين كامل صدقي باشا - وهو قبلى - في منصب وزير المالية ، بدلاً من مكرم عبيد (٦٥) ، وصدر مرسوم ملكي في اليوم نفسه ، يعلن تعيين النحاس - بصفته رئيس الوزراء ، حاكماً عسكرياً لمصر ، بسبب ظروف الحرب (٦٦) ، وكان عبيد مازال رسمياً السكرتير العام للوفد ، وعضواً في البرلمان ، بالإضافة إلى مواصلة لدوره كنقيب للمحاميين ، وفي منتصف شهر يونيو ١٩٤٢ ، حضر عبيد اجتماعاً للجنة التنفيذية للوفد حيث وافق الطرفان على تجميد النزاع لفترة من الوقت ، والحيلولة دون حدوث تصاعد له إلا أن ذلك الاتفاق لم يدم أكثر من عدة أيام .

وأعلن النحاس في اجتماع اللجنة البرلمانية للوفد أن عبيد لم يعد سكرتيراً عاماً للوفد ، وأن الوفد يعارض ترشيحه لنقابة المحامين (٦٧) . ورد عليه عبيد في خطاب ، ذكر فيه النحاس بأنه قد تم انتخابه سكرتيراً عاماً للوفد ، بنفس الأسلوب ، وفي نفس الوقت الذي تم فيه انتخاب النحاس رئيساً للوفد ، أما فيما يتعلق بانتخابات نقابة المحامين ، فقد ذكر عبيد للنحاس بأنه لاحق للحكومة أن تتدخل فيها .

(٦٣) محمد حشيش ، مرجع سابق ، ص - ١٤ .

(64) F.O. 371/ 31572, May 27, 1942, From Lampson to Eden.

(٦٥) محمد التابى ، مرجع سابق ، ص - ٢٩١ .

ود. هيكل ، مرجع سابق ، ص - ٢٦٤ .

(٦٦) الأهرام ، ٢٧ مايو ١٩٤٢ .

(٦٧) المصري ، ١٩ يونيو ١٩٤٢ .

وعندما تجاهل النحاس خطاب عبيد ، بعث إليه الأخير بخطاب آخر في يوم ٢٧ يونيو ١٩٤٢ ، وقع عليه هو وعشرون آخرون من أعضاء البرلمان الوفديين ، يطلب فيه من النحاس عقد اجتماع للجنة العليا للوفد في ٢٩ يونيو ، لبحث ومناقشة الوضع العسكرى ، والإجراءات الاستثنائية التى اتخذتها الحكومة ، والتصريحات التى منحت لعدد من محاسيها لتصدير بعض المواد الخام ، والمراقبة - غير القانونية - التى فرضتها الحكومة على منزل عبيد ، وتوضيح مركز عبيد فى الحزب بعد أن أعلن النحاس أن عبيدا لم يعد سكرتيرا عاما للوفد ، وبعث النحاس برسالة شفوية عن طريق محمد صلاح الدين إلى عبيد ، يخبره فيها بأنه يرغب فى الالتقاء بأولئك الذين وقعوا على هذه الرسالة ليشرحوا سبب رغبتهم فى عقد ذلك الاجتماع ، كما أنه ليس لديه أى شىء آخر يقوله عن الموقف العام أكثر مما أعلنه فى المجلس ، أما فيما يتعلق بمسألة الاستثناءات والترقيات ، فقد أضاف النحاس أن عبيدا يمكنه إثارة ذلك الموضوع فى جلسة البرلمان يوم ٢٩ يونيو ، ورفض - فى الوقت نفسه - كلا من الاتهامين المتعلقين بالتصريح الخاص بالتصدير ، «الرقابة المزعومة» على منزل عبيد ، ثم عاد النحاس وأكد أن عبيدا لم يعد سكرتيرا عاما للوفد ، ويبدو أن عبيد كان يتوقع مثل ذلك الرد ، لكنه كان يتعين عليه هو ومؤيدوه إرسال خطابهم ليرى مدى تصميم النحاس فى ذلك الشأن .

وقد تابعت السفارة البريطانية فى القاهرة النزاع ، ببعض الحماس لعبيد ، وبعثت السفارة بتقرير إلى وزارة الخارجية البريطانية تقول فيه :

«ترجع جذور المسألة إلى زواج النحاس باشا منذ عدة سنوات مضت ، إذ كان عبيد يستحوذ على النحاس باشا تماما قبل ذلك ، ولم تكن حرم النحاس ، وهى السيدة المستبدة التى تميل إلى السيطرة على زوجها لتلعب دورا من المرتبة الثانية ، وقد ازداد التناحر منذ ذلك الوقت» (٦٨) ، وكان لامبسون يثق فى كفاءة وقدرة عبيد فى مناصبه الوزارية ، وكتب لوزارة الخارجية البريطانية يقول :

«طبقا لما جاء على لسان أمين عثمان ، كان الملك يلح بإصرار على النحاس بأنه يتعين أن تضم الحكومة عضوا أو أكثر من الرجال ذوى المعرفة الحقيقية بالجهاز الحكومى التنفيذى ، والقدرة

(68) F.O. 371/ 31572, May 23, 1942, From Lampson to Eden.

الفنية والإدارية ، وأشار جلالته إلى أن الأمور لا يمكن أن تسير إذا ما كان هناك رجل بلا كفاءة كبيرة على رأس وزارة العموم ، أو رجل غير مؤهل في وزارة المالية ، وقد أخبرت أمين عثمان أنني أرى أن الملك فاروق على حق في ذلك»^(٦٩) ، كما أجرت السفارة - كعادتها الدورية - تقييما لشخصية النحاس ، في الوقت الذي لم يعد فيه عبيد بجانبه سواء في الحزب أو الحكومة ، فذكرت :

« أصبح الوفد الآن بدون منظم حزبي مقتدر ، ويوجد على رأسه زعيم مضطرب غير متوازن تتحكم فيه زوجة عنيدة غير مسئولة ، تعوزه القدرة على الإدارة والتوجيه أو على التنظيم الحزبي ، كما أنه تستبد به وتستحوذ عليه مسألة سيطرته وتحكمه في جماهير الشعب حتى إنه كثيرا ما يخفق في إدراك الشراك والمكائد التي يدبرها له خصومه الأذكياء الماكرين ، وأصبحت وزارة المالية ووزارة العموم - وهما اثنان من أهم الوزارات بالنسبة للشعب خصوصا في وقت الحرب والنقص في المواد التموينية - في يد رجلين قد يثبت إذا واجها أزمات خطيرة أنها غير قادرين على معالجتها»^(٧٠) .

« وقد اعتقد النحاس وسراج الدين وآخرون أن الوقت المناسب قد حان لطرد عبيد من الوفد ، حيث أنهم في السلطة وفي إمكانهم ممارسة الضغط عليه ، ومن الناحية الأخرى ، فإنهم إذا ما أقدموا على التخلص منه ، وهو خارج السلطة ، فإنها ستكون فرصة ذهبية بالنسبة لعبيد لمعارضتهم ، بتأييد من الحكومة المعادية للوفد»^(٧١) . ولهذا أعلن النحاس - رسميا - في مجلس النواب في ٢٩ يونيو ١٩٤٢ ، أن عبيدا لم يعد سكرتيرا عاما للوفد ، وأخيرا عقد الوفد في ٦ يوليو ١٩٤٢ ، اجتماعا طرد فيه عبيدا ، وراغب حنا من عضوية الحزب^(٧٢) .

وقد اتخذ قرار طرد عبيد وأنصاره في غيابهم إذ لم توجه الدعوه لهم للحضور ، وتضمن القرار أيضا أن الوفد سيقدر - فيما بعد - كيفية التعامل مع أولئك الذين شاركوا في التوقيع على رسالة عبيد إلى النحاس ، كما وقع سبعة عشر عضوا من مجلس الشيوخ والنواب خطاب استقالة جماعية

(69) F.O. 371/ 31572, May 26, 1942, From Lampson to Eden.

(70) F.O. 371/ 31572, June 3, 1942, From Lampson to Eden.

(٧١) محمد التامى - مرجع سابق - ص - ٣٢٢ .

(72) F.O. 371/ 31572, July 11, 1942, From Lampson to Eden.

(كان راغب حنا بك محاميا قبطيا ، ونائبا يمثل دائرة انتخابية في مديرية المنيا ، وكان يؤيد عبيد في خلافه مع النحاس ، وتبعه في انفصاله عن الوفد ، وأصبح بعد ذلك وزيرا مع عبيد في حكومتى أحمد ماهر والقراشى ، ١٩٤٤ - ١٩٤٥) .

إلى النحاس ، احتجاجا على تصرفه العنيف وغير العادل الذى اتخذ ضد مكرم عبيد وراغب حنا . وقد كان من بين الأعضاء السبعة عشر ، ثمانية أقباط ، كما كان عدد من الباقين نوابا عن دوائر مديريات الصعيد والى ينتمى إليها عبيد ، وقد أعلنوا فى خطاب استقالتهم بتاريخ ١٢ يوليو ١٩٤٢ أنهم مقتنعون بأن النحاس قد ابتعد عن المبادئ العظيمة للوفد ، كحزب وحكومة على السواء ، لدرجة أن حقوق وطنهم وكرامه شعبهم أصبحت معرضة لخطر حقيقى^(٧٣) ، وقد تجاهل النحاس استقالاتهم وطردهم من الوفد بقرار من الهيئة العليا للوفد ، ووجد عبيد نفسه فى ذلك الوقت معزولا تماما لأن النحاس وأغلبية الوفد كانوا ضده ، وفى الوقت نفسه حالت ظروف

(٧٣) وقع على خطاب الاستقالة كل من .

- | | |
|------------------------|--------------------|
| ١ - السيد سليم | (البوها) |
| ٢ - محمد فريد زعلوك | (صندلا) |
| ٣ - إسماعيل قواز | (عضو مجلس الشيوخ) |
| ٤ - ركنى ميشيل بشارة | (عضو مجلس الشيوخ) |
| ٥ - عبد الله قواز | (أولاد حمرة) |
| ٦ - ميشيل رزق | (عضو مجلس الشيوخ) |
| ٧ - جلال الدين الحامصى | (المصغراء العربية) |
| ٨ - دكتور فهمى سليمان | (محلة روح) |
| ٩ - أبو المجد الناظر | (أرمنت) |
| ١٠ - نجيب ميشيل بشارة | (قوص) |
| ١١ - حسين الهرمل | (محلة مرحوم) |
| ١٢ - لييب جريس | (سابنو) |
| ١٣ - محمد عبد القادر | (أبو حمد) |
| ١٤ - الفريد قسيس | (المصورة) |

- | | |
|-----------------------|------------|
| ١٥ - أبو الفيث الأعور | (أبو جرح) |
| ١٦ - مهنى القرص | (ديروط) |
| ١٧ - جورج مكرم عبيد | (أولاد عس) |
- المصدر . مكرم عبيد : الكتاب الأسود فى العهد الأسود
القاهرة - ١٩٤٢

الحرب دون مواصلة عرضه لآرائه وشرح وجهة نظره من خلال الصحافة لأنها كانت خاضعة للرقابة في ظل حالة الطوارئ التي كان النحاس يوجهها بنفسه بصفته الحاكم العسكري ورئيس وزراء البلاد^(٧٤).

وكان عبيد يواجه نفس الموقف الذي واجهه النقراشي وأحمد ماهر سنة ١٩٣٧ وكانت الغالبية في الجانب الآخر المعادى له ، حتى أولئك الذين يؤمنون بصدقه وبحماسة وبإخلاصه وأمانته ، لم يكن في مقدورهم دعمه ومساندته علانية ، بسبب تهديدات النحاس الانتقامية - وهو الحاكم القوي في ذلك الوقت - ضد مؤيدي عبيد^(٧٥) ، ووصف عبيد وزملاؤه الذين تم طردهم من الوفد أنفسهم « بمجموعة الوفدين المستقلين » ، ورد النحاس على ذلك بسرعة بأن أصدر بياناً أعلن فيه أن هذا اللقب زائف ولا ينطبق عليهم^(٧٦) ، ولعل الخلاف بين قضية عبيد في سنة ١٩٤٢ ، وقضية ماهر والنقراشي سنة ١٩٣٧ هو أن طرد عبيد من الوفد كان له أصداء أكبر ، لأن هجومه على النحاس ، كان أقوى بكثير ، كما أن تشهيره بالمحسوبة والاستثناءات قد جعله يقف على أرض صلبة ، لأن الجماهير تتحمس كثيراً لمن يكشف الانحرافات ، ومع ذلك ، فقد كان عليه - مثل ماهر والنقراشي - أن يقيم تنظيمًا سياسيًا يمكنه من خلاله ممارسة نشاطه ، فأعلن - بعد ذلك - تكوين حزبه الخاص تحت اسم « الكتلة الوفدية المستقلة » والتي تضم مؤيديه الذين كان من بينهم بعض الكتاب والصحفيين مثل أحمد قاسم جودة ، وجلال الدين الحامصي ، وقد واصل عبيد ممارسة نشاطه العام على الرغم من ذلك الموقف الصعب الذي كان يواجهه ، ولم يقصر مجهوده على توجيه النقد لحكومة النحاس وسياسة الوفد بل استمر يتصرف كشخصية سياسية قيادية معتمداً فقط على مكانته وسياسة حزبه الجديد ، واشترك مع د. هيكل (الحزب الدستوري) ، وأحمد ماهر (السعدى) في كتابة عريضة للملك فاروق ، وسلموا - في الوقت نفسه - نسخة منها إلى السكرتير الشرقى للسفارة البريطانية في القاهرة^(٧٧) ، وفيها أعلن الأقطاب الحزبيون الثلاثة

(٧٤) د. محمد حسين هيكل مرجع سابق - ص ٢٦٦ .

(٧٥) مثل ، عبد الحميد عبد الحق ، الذي كان يشعر بالذنب لبقائه وريثاً للشئون الاجتماعية في حكومة النحاس ، على الرغم من صداقته لعبيد وتعاطفه معه .

انظر . التابى ، مرجع سابق ، ص - ٣٥٣ - ٣٥٥ .

(76) F.O. 371/ 31573, July 26, 1942, Lampson to eden .

(77) F.O. 371/ 31575, November 14, 1942, Lampson to eden .

« أن الوزارة القائمة قد اختطت سياسة للمحسوبة والمحاباة لا تستند إلى قواعد في التعيين أو الترقية أو الفصل بالنسبة للموظفين العاملين ، مما أدى إلى إصابة الأداة الحكومية بالفوضى ... إلخ » .

وقد ذكر د. هيكل في كتابه أن عبيدا كان أكثر المعارضين علماء للنحاس ونقلوا لسياسته (٧٨) ، والملاحظ أن عبيدا كان قد بدأ يطعن في إخلاص النحاس وأمانته ونزاهته الشخصية ، وليس في قدرته السياسية - كما كان متبعا من هجوم خصوم النحاس ضده من قبل - إذ أصبح السبيل الوحيد الممكن بالسبب لعبيد كى ينال من الحكومة ويهاجم النحاس أمام الرأي العام هو أن يكشف النقاب عن أمثلة كثيرة من حالات المحسوبة والفساد في حكومة الوفد ، معتمدا في ذلك على مؤيديه في المعارضة ، وعلى كل المعارضين للوفد وحكومته ، وحيث منعت الحرب والقوانين العسكرية عبيدا من النشر في الصحف ، لم يكن هناك بديل آخر أمامه سوى أن يسجل كل تلك الاتهامات في كتاب يتم نشره في الوقت المناسب ، وبهذه الطريقة ولدت فكرة نشر « الكتاب الأسود » كمرضاة للملك ، تتضمن تفاصيل المخالفات وحالات المحسوبة والفساد التي ارتكبتها حكومة الوفد ، وقد بذل عبيد - وفريق صغير من أتباعه وأصدقائه - مجهودا كبيرا بصورة سرية ليتم نشر الكتاب ، إذ أن حكومة الوفد كانت تضيق الخناق على عبيد ومعاونيه وترقب تصرفاتهم ، فضلا عن إخضاع المطابع ودور النشر لرقابة صارمة ، وقد قام جلال الدين الحامصى - الصحفي المؤيد لعبيد ، وكان وثيق الصلة به ، كما أنه من بين أولئك الذين طردوا من الوفد ، بعد توقيع خطاب الاحتجاج والاستقالة إلى النحاس - قام بكتابة معظم نصوص (الكتاب الأسود) وجمع مادته والإشراف على طبعه وتوزيعه ، وبناء على ما ذكره الحامصى نفسه ، فقد استغرقت عملية الإعداد لنشر الكتاب ثمانية أشهر ، عندما رأت الكتلة الوفدية أن ذلك هو السبيل الممكن للعمل ضد النحاس ونظام حكمه ، كما يتذكر الحامصى أنه سأل أحمد حسنين باشا عما إذا كانت هناك وسيلة لوقف الفساد المستشري في حكومة الوفد ، وأن حسنين أجابه أنه لا يمكنه اتخاذ أى إجراء ما لم يتوفر لديه دليل مدعم بالوثائق ، وعندما سأله الحامصى عما إذا كان بإمكان الكتلة الوفدية توفير ذلك ، أجابه حسنين أن الوقت ليس مناسباً ، لأن حكومة النحاس لا تزال في مرحلة شهر العسل مع السفارة البريطانية ، ولكن الوقت المناسب لن يلبث أن يحين قريباً (٧٩) ، وهذا دليل آخر على

(٧٨) د. هيكل مرجع سابق - ص - ٢٧٦ .

(٧٩) الحامصى ، مرجع سابق ، ص - ٣١ .

الصلة بين عبيد والقصر الملكي ، من خلال الدور الذى لعبه حسنين لتشجيع نشر « الكتاب الأسود » ، والأكثر من ذلك ، هو أن الحامصى ذكر فى الكتاب نفسه أن حسنين قد اقترح عليه فى مارس ١٩٤٣ ، أن يحتفظ بالكتاب الأسود والوثائق المدعمة له بالقصر الملكى كى يتفادى تحقيقات البوليس وحملاته التفتيشية التى كانت تزعج أنصار عبيد وتحد من تحركاتهم فى ذلك الوقت ^(٨٠) ، ويواصل الحامصى شرح الصعوبات التى واجهت عملية طبع الكتاب فى مكان سرى ، إذ أنهم كانوا يريدون مفاجأة الحكومة باستلام الملك نسخة الكتاب فى نفس الوقت الذى يتم فيه توزيعه على الجمهور عن طريق أعضاء الحزب « الكتلة الوفدية » فى جميع المديرىات .

وقد كتب « الكتاب الأسود » فى صورة عريضة إلى الملك ، ويحتوى على عدة فصول عن أنواع مختلفة من الفساد والمحسوبية ، وقد صدرت النسخة الكاملة من « الكتاب الأسود » فى ٢٩ مارس ١٩٤٣ ، فى حوالى ٥٠٠ صفحة ، وكان عنوانه الرسمى « الكتاب الأسود فى العهد الأسود » ، فى صورة رسالة إلى الملك ، شارحا ظروف خلافات عبيد الوزارية مع النحاس ، وكيف أنه قدم استقالته ثلاث مرات ، لكن النحاس كان يرفضها فى كل مرة ، واعدأ باتخاذ إجراءات فعلية ضد المحسوبية ، ولكى نتعرف على أسلوب « الكتاب الأسود » ، فلنأخذ نختار بعض الفقرات منه لأنه يحتوى على قصص وأمثلة كثيرة للفساد فى الحياة السياسية والاقتصادية فى ذلك الوقت .

وقد جاء فى الفصل الأول (نظرة عامة) فى أسلوب يخاطب الملك :

« يدفعنا الواجب المرير - وهل من واجب أمر وأقسى من ذلك الذى يضطر الإنسان إلى أن يقطع لصالح المجموع قطعة من نفسه ، ولصالح اليوم والغد بضعة من أمه - يدفعنا ذلك الواجب العام أن نعرض على جلالته مساوى الحكم الحاضر والقائمين به من رجاله ، وما كنا علم الله لنجد من أنفسنا دافعا ضد قوم كانوا منا وكنا منهم لولا أن أداة الحكم فى البلاد قد فسدت على أيديهم إلى مدى بعيد يكاد يبعث على اليأس من إنتاجها ومن علاجها ^(٨١) .

(٨٠) المرجع السابق ، ص - ٣٦ .

المعلومات نفسها تصمها كتاب آخر للحامصى (معركة نزاهة الحكم من فبراير ١٩٤٢ إلى يوليو ١٩٥٢) - القاهرة -

١٩٥٧ - ص - ٣٠ .

(٨١) مكرم عبيد . الكتاب الأسود ، القاهرة ، ١٩٤٣ ، ص - ١

ويضيف في الفصل نفسه :

« ما من واحد من الوزراء يجرؤ أن يتكلم عن شأن من شئون وزارته ، مهما تكن تفاهته ، إلا ويقدم له بمقدمة فحواها أنه لم يفكر أى تفكير ولم يدبر أى تدبير إلا بناء على تعليمات الرئيس الجليل أو إرشاده ، فيذهب البعض فى الملقى الصغير إلى حد القول بأنها أوامر صدرت من رئيس الوزارة إلى معالى الوزير ^(٨٢) ١ .

ثم يشرح عبيد ظروف طرده من الوفد مؤكدا أن الأسباب التى دفعت للنحاس باشا إلى إقالته من الوزارة هى نفسها التى دفعته إلى طرده من الوفد ^(٨٢) .

وفى الجزء الثانى من (الكتاب الأسود) الذى يحمل عنوان «حقائق» كتب عبيد فصلين ، الأول ، عن مسألة المسئولية والسلطة . والثانى عن مسألة الحقوق الدستورية والسياسية . وفى الفصل الأول ، تحدث عبيد عن مسألة نمو المحسوبية والفساد فى جميع المجالات ، والترقيات الاستثنائية ، مع تقديم أمثلة كثيرة وذكر أسماء عديدة .

ويتعين هنا أن نذكر نقطة هامة تؤكد حقيقة أن عبيدا لم يكن مدفوعا فى نقده للنحاس وحكومته بأية دوافع ديدية ، فثلا ، عندما ذكر عبيد أسماء كثيرة لنهاذج المحسوبية والمحاباة . نجد أن معظم الأسماء التى وردت كانت أسماء لأقباط ، كى يتعاضد اتهامه بأنه محاز ديبيا ، وأن للخلاف أية خلفية تتصل بدينه :

« دكتور خلاف حنا ، وثابت رزق الله أفندى ، وإلياس رزق الله أفندى ، ودكتور عبد الملك رزق الله ، وفؤاد رزق الله أفندى . وسليمان بطرس أفندى » ^(٨٤) .

وتحت عنوان «آخر الفضائح الصارخة» ، ذكر عبيد :

« أن برقية بالشفرة قد أرسلت إلى سفيرنا فى لندن ليشتري فراء بثلاثة آلاف جنيه لحرم النحاس باشا » ^(٨٥) .

(٨٢) المرجع السابق ، القاهرة ، ١٩٤٣ ص - ١٥

(٨٣) المرجع السابق ، القاهرة ، ١٩٤٣ ص - ٤٦

(٨٤) المرجع السابق ، ص - ٤٥٥

(٨٥) المرجع السابق ، ص - ٥٠٩

وفي الفصل الثاني يعالج الجزء الثاني الجانب السياسى للفساد الذى اتهم عبيد حكومة الوفد بأنها متورطة فيه ، مع مناقشة بعض الموضوعات الأخرى مثل « الاعتداء على الحريات الفردية ، والتدخل فى الانتخابات العامة ، والحد من حرية الأحزاب السياسية^(٨٦) » .

وفي خاتمة (الكتاب الأسود) قدم عبيد توصياته إلى الملك فيما يتعلق بأوجه العلاج الممكنة ، وطلب من الملك فاروق أن يعيد حكومة الوفد بأسرع ما يمكن كى يصون الدستور ، ويحفظ العدل والكرامة والشرف ، ويقوم بإلغاء الإجراءات الخاطئة المتصلة بالتجاوزات فى قطاع التمويل ، وصور المحسوبة المختلفة .

وطلب أيضا أن يتم تعيين لجنة قضائية خاصة لدراسة جميع الاتهامات المتصلة بالأمانة ونزاهة الحكم ، كى يمكن معاقبة أولئك المسئولين بسرعة ، إذ أن عقابهم سيكون بمثابة عبرة للآخرين ، واقتراح عبيد سن قانون يتم بموجبه سؤال الوزراء والمسئولين بشأن ما اكتسبوه أثناء وجودهم فى السلطة ، وسن قانون آخر يضع حدا لكل الإجراءات التى تتخذ ضد الحريات والأفراد والأحزاب ، وإطلاق سراح المسجونين السياسيين ، ودفع تعويضات لضحايا الحكومة الحالية ، لقاء ما عانوه من مظالم .

وفي التماسه إلى الملك ، أخذ عبيد على عاتقه دعم الحكم البرلمانى وضمان الحريات الدستورية : حرية الصحافة ، حرية الكلام ، والاجتماع ، حتى إذا أصبح من الضرورى إبقاء الأحكام العرفية ، فإن هذا القانون لن يتم استغلاله فى شئون لا تتعلق بمقتضيات الوضع العسكرى ، ويستطرد - فى تقريره - مطالبا برفع الأحكام العرفية وإيقاف العمل بقانون الطوارئ وإطلاق الحريات المختلفة^(٨٧) ، ولم يجد عبيد رد الفعل الذى كان يتوقعه من الملك أو مستشاريه ، خاصه أحمد حسنين ، تجاه كتابه الأسود ، ومن المؤكد أن ظروف الحرب والعلاقات المتوترة بين الملك والسفارة البريطانية - بعد ٤ فبراير ١٩٤٢ - أضعفت القصر لإزاء الوفد ، وهكذا فإنه لم يكن من الممكن لرد فعل كتاب عبيد ، إلا أن يكون رد فعل سلبي ، ولم يكن الملك قادرا أيضا على حماية عبيد من رد فعل النحاس العنيف ، لكن من المؤكد أنه استخدمه كأداة لإرباك النحاس والوفد ، كما أنه ليس من المستبعد أيضا أن يكون النحاس قد حصل على موافقة مسبقة

(٨٦) المرجع السابق ، ص - ٥١٢

(٨٧) المرجع السابق ، ص - ٥٤٩

من القصر ومن البريطانيين ليواصل أسلوبه المتصلب والعنيف في معالجة مسألة مكرم عبيد ، منعا لأي اعتراضات من جانب الملك أو السلطات البريطانية في وقت الحرب .

وكان رد فعل القصر الوحيد على الكتاب الأسود هو تحويله إلى رئيس الوزراء في ١٠ إبريل ١٩٤٣ مع رسالة تفسيرية مرفقة به ، وكانت الرسالة تحتوي على تقرير لايشوبه أى لبس بأن الكتاب يحتوي على بعض التساؤلات والأحداث التي تستحق الإجابة عليها وتبريرها من جانب الحكومة^(٨٨) ، وعلى الرغم من أن رد فعل القصر على الكتاب الأسود كان حذرا ومعتدلا ، فقد قيل إن الملك - سواء بنصيحة من حسنين أو غيره - كان يريد استغلال ما تضمنه الكتاب كي يطرد وزارة النحاس ، لكن حالة الحرب السائدة منعه من اتخاذ ذلك القرار الخطير^(٨٩) .

وكان للكتاب الأسود أصداء كبيرة في أنحاء البلاد ، وعلى الرغم من أن الرقابة الصحفية منعت الصحف من ذكر أى شيء عنه ، فإن أعضاء كل الأحزاب كانوا يحصلون على نسخ منه بأية وسيلة ممكنة^(٩٠) ، ووصلت نسخ منه إلى السفارات الأجنبية ، خاصة البريطانية والأمريكية^(٩١) ، ولقد أحدث إثارة كبيرة ، بسبب الطبيعة الدقيقة للاتهامات التي يثيرها مع إحتوائه على اقتباسات وشواهد مدعمة بالوثائق^(٩٢) .

واعتبر د . هيكل وزعماء المعارضة الآخرون ، أن الحكومة كان لديها اختياران بالنسبة لمعالجة الموقف ، إما أن تقدم عبيلا للقضاء الذي يدرس محتويات الكتاب ويقرر ماهية الإجراءات الممكنة اتخاذها ضد عبيد إذا ثبت عدم صحة محتويات الكتاب ، أو الالتزام بالصمت ، مما يعنى موافقتها على ما جاء فيه^(٩٣) .

وقد فكر بعض النواب في البرلمان في رفع دعوى ضد عبيد في المحكمة ، لكن النحاس رفض ذلك ، قائلاً إن موقف عبيد موقف سياسى ، ومن أجل ذلك لابد من مناقشة المسألة في البرلمان ، وليس في المحاكم^(٩٤) ، وكان هناك بديل آخر أمام النحاس ، أوصى به سير مايلز لامبسون ،

(٨٨) الخاص ، مرجع سابق ص - ٢٩

(٨٩) حشيش ، مرجع سابق ، ص - ١٩

(٩٠) د . هيكل ، مرجع سابق ، ص - ٢٨٣

(91) Colombe, Op. Cit., p. 108

(92) F.O. 371/ 35531, April 4, 1943, Lampson to Eden.

(٩٣) د . هيكل ، مرجع سابق ، ص - ٢٨٣

لأمين عثمان ، في مجال تعليقه على ردود الفعل تجاه (الكتاب الأسود) :

« لست أدرى ما إذا كان النحاس باشا يرغب في الاحتكام للأمة ، لكن يبدو لي أن ذلك التصرف عملية منطقية ، وهو التصرف الطبيعي الوحيد في النظم الديمقراطية إذا ما كان يرغب في تبرة ساحته في نظر الرأي العام . وإذا كان لي أن أنصح الملك فاروق ، فإنه من المهم بمكان ، إجراء انتخابات عادلة تدل على حقيقة الموقف »^(٩٥) .

وكان رد الفعل الرسمي للحكومة هو التزام الصمت لفترة من الوقت باستثناء منع ذكر اسم (الكتاب الأسود) أو الإشارة إليه في الصحف المصرية ، وبعد مرور عدة أسابيع من نشر (الكتاب الأسود) قدم أحد أعضاء مجلس الشيوخ الوفدين سؤالاً في المجلس . عما تعترض الحكومة اتخاذه تجاه (الكتاب الأسود) وعييد . وتأجلت الإجابة لعدة أسابيع عن عمد ، فيما كانت الحكومة تتشاور في الطريقة التي ستتصرف بها ، وبدأ عدد من النواب في إثارة أسئلة برلمانية بشأن محتويات (الكتاب الأسود) ، وقدم الوزراء إجابات مفصلة فيما يتعلق بأسئلة كثيرة بطريقة تعطى الانطباع بأن البيانات الواردة في (الكتاب الأسود) مبالغ فيها بصورة كبيرة ، وأن بعض أجزائه زائفة بصورة يمكن إثباتها ، وتم تجميع إجابات الوزراء على تلك الأسئلة البرلمانية ، بعد ذلك ، في كتيب أصدره الوفد تحت عنوان (الكتاب الأبيض) وهاجمت تلك الإجابات عييداً ، وفندت جميع اتهاماته .

وفي جلسة مجلس النواب في ٢١ أبريل ١٩٤٣ ، وجه النائب عمر عمر سؤالاً إلى النحاس بشأن النصوص الواردة في الكتاب الأسود المتعلقة بحياة الرفاهية التي يعيشها النحاس ، والمتمثلة في السيارات والمنازل ، بصفة خاصة ، وبدأ النحاس برواية تاريخ شراء سيارته ، وكيف استأجر منزله في جاردن سيتي وركز على قصة قطعة الفراء بالقول أن عييداً يدعى في (الكتاب الأسود) أن قيمتها ثلاثة آلاف جنيه ، بينما كان ثمنها ثمانين جنيهاً فقط ، وتبعه وزير المواصلات ليكمل الإجابات من الناحية الفنية والاقتصادية وأعقب الإجابات تصفيق مطول من النواب ، وطلب من السيد سليم - أحد مؤيدي عييد - ترك قاعة مجلس النواب بسبب ما أحدثه من اعتراضات^(٩٦) .

(94) Colombe, op. cit., p. 108.

(95) F.O. 371/ 35533, May 6, 1943, Lampson to Eden.

(٩٦) مضبغة مجلس النواب ، الجلسة ٣٢ القاهرة - ٢١ أبريل ١٩٤٣ - ص - ١٢٩٠ - ١٢٩٧ .

وحدثت في الجلسة التالية مناقشة مستفيضة بين رئيس المجلس (وفدى) وبعض مؤيدى عبيد ، في حضور النحاس ، حول سؤال برلماني ، كان عبيد قد أرسله إلى مجلس النواب ، يستفسر فيه من رئيسه عن كل الموضوعات التي وردت في (الكتاب الأسود) ، ورفض رئيس المجلس - المؤيد من الأغلبية - الموافقة على السؤال البرلماني بدعوى أنه يبدو عامًا وغامضًا . وتلا ذلك مناقشة مطولة حول الاجراءات البرلمانية . وحدود سلطة رئيس مجلس النواب ، وكان واضحًا أن غالبية النواب يؤيدون النحاس وحكومته ضد عبيد ، الذي كان متغيبًا عن الجلسة^(٩٧) ، وفي الاجتماعات الأخرى التي عقدت بعد ذلك ، قدمت أسئلة برلمانية إلى النحاس تتعلق ببعض الاتهامات الواردة في (الكتاب الأسود) وإلى عدد من الوزراء بشأن حوادث معينة .

وحضر النحاس وأعضاء حكومته تلك الجلسات ، لكن عبيد كان متغيبًا ، بينما كان مؤيدوه هناك ، وكان الوفد قد قام بترتيب الأسئلة وتنسيقها مقدمًا ، مع السماح لكل نائب بأن يلقى بتعليقه عقب إجابة كل وزير ، موجّهين المديح للحكومة ومتقدين عبيدًا بصفته كاذبًا ومخادعا ، وقدم عبيد - بصفته الشخصية - سؤالًا برلمانيًا في جلسة مجلس النواب في مايو ١٩٤٣^(٩٨) ، وكان سؤاله حول وقائع الكتاب الأسود وموجها إلى النحاس ، وأحدث صدى عظيمًا ، خاصة بين صفوف المعارضة ، داخل البرلمان وخارجه ، لأنه كان خطوة جريئة من عبيد خصوصًا في ظل سلطات النحاس في وقت الحرب^(٩٩) ، وشرح عبيد سؤاله عن اتهاماته للنحاس وحكومته مثلما وردت في الكتاب الأسود ، وتحدث في ثلاث جلسات متتالية ، بينما كان النحاس ووزراؤه موجودين في قاعة المجلس ، وأوقفه رئيس المجلس عن الكلام عدة مرات ، وكان رئيس المجلس يتخذ خطأ متشددًا من عبيد ، وقد أعدت الغالبية العدة - مسبقًا - لخلق موقف ضد عبيد ، وفي الجلسة الثالثة ، وافق النواب - بناء على اقتراح من رئيس المجلس - على وقف عبيد من مواصلة حديثه ، لأنه كان قد استغرق الوقت المناسب له ، عندئذ ، انسحب عبيد من الجلسة ، متبوعًا بأعضاء المعارضة ، باستثناء أعضاء الحزب الوطني^(١٠٠) ، واتخذ المجلس قرارًا بأغلبية الأصوات

(٩٧) مضبطة مجلس النواب - الجلسة الثالثة والثلاثون القاهرة ٢٧ أبريل ١٩٤٣ ص ١٣٣٦ - ١٣٤٣ .

(٩٨) مضبطة مجلس النواب - الجلسة الأربعون القاهرة - ١٨/١٩ مايو ١٩٤٣ - ص ١٦٩٢ - ١٧٣٣

(٩٩) د . هيكل - مرجع سابق - ص ٢٨٤

(١٠٠) مضبطة مجلس النواب - الجلسة الثانية والأربعون القاهرة ٢٣/٢٢ مايو ١٩٤٣ - ص ١٧٦٠ - ١٨١٥

في نهاية الجلسة بشجب عبيد وكتابه ، وتجديد الثقة في النحاس ومجلس وزرائه ، وفي ١١ يوليو ١٩٤٣ قررت المجموعة البرلمانية الوفدية في اجتماع لها تقديم اقتراح بطرد عبيد من عضوية مجلس النواب ، وفي اليوم التالي بالتحديد ، تقدم مكتب مجلس النواب ، باقتراح بطرد عبيد من عضويته في مجلس النواب .

وأعلن رئيس مجلس النواب ، أن مكتب المجلس قد قرر بالفعل في ٢٣ مايو - تطبيقاً للمادة (١١٢) من الدستور - حرمان عبيد من مقعده ، ولكن الشاذلي باشا (نائب مستقل) أشار أنه يتعين دراسة السوابق البرلمانية الماثلة أولاً ، كما أن فكرى أباطة (نائب حزب وطني) تحدث أيضاً بضرورة تأجيل القرار لهذا الغرض ، إلا أن الأعضاء الوفديين طالبوا بقرار فوري ، وتم استدعاء عبيد كى يدافع عن نفسه ، وتضمن الاقتراح بطرد عبيد وصفه بأنه أسوأ مثل للنائب البرلماني منذ سنة ١٩٢٤ ، وفقد عبيد مقعده بأغلبية ٢٠٨ أصوات ضد ١٧ صوتاً^(١١) .

ولعله مما يثير السخرية أن عبيداً هو صاحب الاقتراح بضرورة أن يكون للوفد ثلاثة أرباع أصوات المجلس على الأقل حتى يمكن للحزب طرد أى نائب وإسقاط عضويته . وكان عبيد نفسه هو أول نائب يتم طرده طبقاً للأغلبية التي نادى بها من قبل^(١٢) ، كما تم طرد جميع مؤيدي عبيد من عضويتهم في مجلس النواب لسبب أو لآخر ، كعقاب لخروجهم على زعيم الوفد ، وقد واصل عبيد نشاطه ضد النحاس وحكومته على الرغم من ذلك الموقف الصعب - بالتعاون مع زعماء المعارضة الآخرين - وأثبتت مجهوداته وجود تأييد قوى لمعارضته ، لأنه كان سكرتير عام الوفد السابق ، كما أصبح له حزبه الخاص « الكتلة الوفدية » ، وجريدته الناطقة باسمه ، ولم تكن « الكتلة » حزباً سياسياً كبيراً لكنه كان حزباً جيد التنظيم ، وقد تمتع بتآلف وتجانس في مواقف أعضائه ، وكان معظمهم أعضاء سابقين في حزب الوفد ، وانتقدوا الاتجاهات والنزعات الجديدة للوفد في السنوات القليلة الأخيرة ، وعارضوا سياسات النحاس واتجاهاته المنفردة .

وكان أعضاء « الكتلة » إما أعضاء سابقين في الوفد تبعوا عبيداً في انقسامه عنه ، أو أعضاء شبان من المديريات المختلفة كانوا يحسون بخيبة أمل تجاه زعامة الوفد ، وكان من بين هؤلاء الآخرين ، ضابط شاب - مطرود من الخدمة - هو محمد أنور السادات ، الذي كان يفكر في ترشيح نفسه عن حزب الكتلة في انتخابات عام ١٩٤٥ عن إحدى الدوائر في مديرية

(١١) مضبطة مجلس النواب - الجلسة ٤٧ القاهرة - ١٢ يوليو ١٩٤٣ - ص - ٢١٣

(١٢) د . هيكل - مرجع سابق - ص - ٢٨٧

المنوفية^(١٠٣) ، وظهرت صحيفة (الكتلة) إلى الوجود في سنة ١٩٤٤ ، وقد حاول عبيد أن يجعلها جريدة رأى في وقت كانت فيه صحافة الخبر هي التي تلعب دورًا مسيطرًا في التأثير على الرأي العام^(١٠٤) ، ورحبت الكتلة بالصحفيين الشباب من الجيل الجديد ، مثل جلال الدين الحامصى ، وطلعت يونان ، وتوقفت عن الصدور سنة ١٩٤٩ ، وكان أحمد قاسم جودة رئيس تحريرها المسئول طوال فترة وجودها .

وأضاف عبيد جزءًا جديدًا إلى الكتاب الأسود في فبراير ١٩٤٤ ، وكان أكثر عنفا هذه المرة في انتقاده وهجومه على النحاس ، لأنه تعلق بالجانب السياسى ، واتهم النحاس بأنه يعرض مصالح البلاد للخطر من أجل السعى لمباركة بريطانيا وطلب رضائها^(١٠٥) ، وبينما كان مشغولا في نشاطاته ضد النحاس ، وانتقاده للوضع العسكرى في مصر أثناء الحرب ، ألقى القبض عليه في ٩ مايو ١٩٤٤ ، وبأمر النحاس الحاكم العسكرى - وقضى الأيام القليلة الأولى من فترة اعتقاله في سجن الأجانب ثم نقل بعد ذلك إلى استراحة الرى في « السرو » إلى أن أطلق سراحه بعد ذلك ، ليصبح وزيرا للمالية في وزارة أحمد ماهر في ٧ أكتوبر ١٩٤٤ عندما أقيمت حكومة النحاس ، وقد أوضح عبيد - فيما بعد - أن إلقاء القبض عليه كان بناء على رغبة البريطانيين ، وبرهن على قوله هذا بأنه كان قد وجه دعوة للشعب المصرى لمواجهة سلطات الاحتلال ، قبل ثمانية أيام فقط من قرار اعتقاله^(١٠٦) ، وأصدرت الحكومة الوفدية بيانًا بعد اعتقاله ، تشرح فيه أنه كان قد أُنذر قبل ذلك بستة أشهر بأن يوقف اجتماعاته التي كان يعقدها ، لأنها كانت غير مشروعة في ظل الأحكام العرفية القائمة^(١٠٧) .

ولنا أن نتساءل الآن ، هل كان انقسام عبيد عن الوفد واستقطابه لمجموعة ضئيلة نسبياً بمثابة خطأ فادح في حياته السياسية ؟ إن الفصل التالى سيناقش نتائج انقسامه على الوفد فيما يتعلق به ، مع محاولة اكتشاف أية جوانب أو آثار لخروج مكرم عبيد - السكرتير العام لحزب الوفد على الوحدة الوطنية المصرية ودور الأقباط داخل ذلك الحزب .

(١٠٣) من لقاء مع الأستاذ - لكرى مكرم عبيد في ١٥ فبراير ١٩٧٥

(١٠٤) عبد اللطيف حمزة - مرجع سابق - ص - ١٥٦ .

(105) Colombe, Op. cit., p. 108.

(١٠٦) من شهادة عبيد في محاكمة سراج الدين الأحبار - ١ يناير ١٩٥٤ .

(107) F.O. 371/ 41329, May 11, 1944, Lord Killearn to Eden.

الفصل الخامس

تحليل وتقييم

تحليل وتقييم

ينظر كثير من المتخصصين في التاريخ السياسى المصرى الحديث إلى خروج عبيد من الوفد ، ونشره « الكتاب الأسود » على أنه الخطأ الرئيسى فى حياته السياسية ، حتى أولئك الذين ساندوا عبيدا وتضامنوا معه فى انفصاله عن الوفد ، وعرفوا بموقفهم المعادى للنحاس ، لاموا عبيدا على خطئته الاستراتيجية ، وبمجموعة القرارات التى اتخذها واتسمت بغياب الحكمة والحكمة السياسية ، فقد انتقد عبد الرحمن الرافعى - المؤرخ المعروف ، والذي كان سكرتير عاما للحزب الوطنى - السلوك المتهور لعبيد ، وإصداره الكتاب الأسود ، على الرغم من أنه يعتقد أن عبيدا كان على حق من جيب المبدأ^(١) ، ويعتبر أحمد بهاء الدين - الكاتب الصحفى المعروف - مكرم عبيد من أكثر الشخصيات شهرة وبروزا فى السياسة المصرية فى الفترة ما بين وفاة زغلول حتى سنة ١٩٥٢ ، لكنه هو أيضا ، يعتبر الكتاب الأسود خطأه الوحيد^(٢) ، كما أن الدكتور فؤاد زكريا - أستاذ الفلسفة - يتمنى لو أن عبيدا لم يكن قد توج تاريخه الوطنى ونشاطه السياسى البارز بنشر الكتاب الأسود^(٣) ، أما الدكتور محمد حسين هيكل - زعيم حزب الأحرار الدستوريين - والذي كان متعاطفا مع عبيد فى خلافاته مع النحاس ، فيعتقد أن عبيدا ارتكب خطأ كبيرا بإقدامه على نشر الكتاب الأسود ، وفضح تلك القائمة الكبيرة من الأسماء والشخصيات ، ويعتقد د. هيكل أن عبيدا كان سيصبح أكثر ذكاء لو أنه كان قد اختار عددا من الأمثلة الصارخة ، وركز على تأثيرها الخطير ، بدلا من تقديم كل هذه الأمثلة ذات الأهمية المتفاوتة ، والتى أثار كل منها نفس الدرجة من الاهتمام^(٤) .

(١) عبد الرحمن الرافعى ، فى أعقاب الثورة المصرية ، المجلد الثالث ، القاهرة ، ١٩٥١ ص - ١٢٠

(٢) أحمد بهاء الدين ، مقال فى صحيفة الوطن ، الكويت ، ٨ فبراير ١٩٧٥ .

(٣) د. فؤاد زكريا ، مقال فى مجلة روز اليوسف القاهرة ، ٢١ أبريل ١٩٧٥ .

(٤) د. هيكل ، مرجع سابق ، ص - ٢٨٥ .

تلك هي بعض أمثلة لرد الفعل من موقف عبيد بين بعض معاصريه الذين كانوا قريبين منه ومن الأحداث وعلى صلة وثيقة بها ، وقد شعر آخرون بأن عبيداً قد بالغ في تصوير حجم المحسوبة أثناء وجوده في السلطة ، وقد تساءل التابعي - بدهشة - عن سبب إقدام عبيداً على مهاجمة حالات الامتيازات الاستثنائية في سنة ١٩٤٢ ، في حين أنه سبق له أن بررها سنة ١٩٣٧ ، أى قبل ذلك بخمسة أعوام^(٥) ، وكان هناك انطباع سائد في الدوائر السياسية بأن عبيداً قد دمر كل الجسور التي كانت تربطه بالنحاس . وأنه عمل على تفاقم الوضع دون أى اعتبار أو مقابل ذي قيمة^(٦) .

وبالإضافة للانتقادات السابقة ، كان هناك وجه آخر معقد للنزاع عندما اتهم النحاس عبيداً ومؤيديه بتورطهم في مؤامرة مع القصر الملكي لتشويه سمعة النحاس - زعيم الأمة والمعروف بالأمانة وطهارة اليد^(٧) - وقد استند الذين أُلصقوا بعبيد تلك التهمة على بعض شائعات حول تورطه في محاربة بعض أقاربه وأصدقائه من أقباط ومسلمين من أبناء قنا^(٨) ، ولا يجب أخذ تلك الاتهامات ضد عبيد بجدية ، لأنها أثبتت ضمن ادعاءات أخرى في إطار الهجوم ضد الوفد والنحاس قبل انشقاق عبيد ، ويشيد كثير من معاصري عبيد بأمانته ونزاهته^(٩) .

وقد احتوى « الكتاب الأبيض » الذي جاء ردًا على « الكتاب الأسود » بعض ادعاءات للنحاس والوفديين تطعن في أمانة عبيد ، وقد كانت تلك الاتهامات لا تستحق الذكر ، مثل قبوله لبعض هدايا صغيرة من بعض رجال الأعمال بمناسبة زفاف شقيقه^(١٠) ، والواقع أن عبيداً كان حريصًا على الاحتفاظ بشعبيته ، ومن ثم كان مستعدًا لتقديم تسهيلات في حدود مناسبة - خاصة أثناء فترة الانتخابات - لكن أمانته المالية ونزاهته الشخصية كانتا فوق الشبهات عمومًا . ويتعين الآن مناقشة نتائج وأصداء انشقاق عبيد عن الوفد ، في محاولة لتقييم تلك الخطوة في حياته السياسية ، ولتقرير ما إذا كانت تكتيكا ناجحا في مجرى حياته ، أو أنها كانت تشكل - طبقًا

(٥) محمد التابعي ، مرجع سابق ، ص - ٢٦٨ .

(٦) صلاح الشاهد ، مرجع سابق ، ص - ٤٠ .

(٧) د. رفعت السيد ، مصطفى النحاس السياسي والزعيم والمنافس ، القاهرة ١٩٧٦ ، ص - ٨٤ .

(٨) حسان أبو رحاب ، الحسوية في عهد النحاس ، القاهرة ، ١٩٣٨ ، ص - ٩٠ - ٩٤ .

(٩) صلاح الشاهد ، مرجع سابق ، ص - ٤٠ .

(١٠) مفضلة مجلس النواب ، جلسة رقم ٤٢ ، القاهرة ٢٣/٢٢ مايو ١٩٤٣ - ص ١٧٧٧ .

للرأى الذى كان سائدًا فى ذلك الوقت - نكسة حقيقية حيث أنه قد قطع طرق التراجع جميعًا على نفسه إلى حد اعتبار خطوته تلك أنها تعنى النهاية الفعلية لدوره السياسى على مسرح الحياة العامة فى مصر ، ولتحديد صحة ذلك الرأى يتعين علينا أن نحقق فى رد فعل مراكز القوى الرئيسية فى الحياة السياسية المصرية ، تجاه انشقاق عبيد عن الوفد ، وما تلا ذلك من نشر الكتاب الأسود ، فكان رد فعل القصر الملكى - بالنسبة لموقف عبيد - متعاطفًا جدًا ، على أمل أن يؤدي ذلك إلى النيل من شعبية النحاس وإلى تفتيت زعامة الوفد ، وبذلك يفقد الوفد عناصر ديناميكية إلا أن القصر كان أكثر حذرًا فى رد فعله تجاه ظهور «الكتاب الأسود» لأن توازن القوى لم يكن فى صالح القصر فى ذلك الوقت ، كما كانت العلاقة الودية والوثيقة بين البريطانيين والوفد ، أثناء الحرب ، وبعد حادث ٤ فبراير بصفة خاصة ، بمثابة مركز ثقل قوى فى مواجهة القصر .

وكان الملك فاروق وحسين مستعدين لتأييد عبيد ومساندته فقط إذا تمكن من استقطاب قطاع كبير من الوفديين والرأى العام يتمكن به من إحداث معارضة قوية ضد النحاس بحيث تؤدي إلى انقسام كبير فى الحزب ، وعندئذ سوف يكون للقصر الملكى أسباب كافية وتبريرات قوية للتحرك علانية ضد النحاس وحكومته بدون الخوف من رد فعل السلطات البريطانية ، طالما أن مطلبهم الأساسى كان هو وجود حكومة مستقرة فى وقت الحرب ، إلا أن مخطط القصر الملكى لم يكن قائمًا على أسباب موضوعية ، ولكن كان قائمًا على المرارة التى تركها حادث ٤ فبراير وآثارها على هيئة القصر ومكانة الملك .

كما أن حسين كان ينظر إلى عبيد لا باعتباره رجل القصر ، ولكن لأنه قد أصبح عدو النحاس ، واتخذ البريطانيون موقفًا وسطًا بين النحاس وعبيد فى البداية ، ولكن عندما اتبع الأخير خطًا معاديا للنحاس ، متها إياه بتلقى التأييد والدعم من البريطانيين ، وأنه كان لا يدخر وسعًا لى بمطالبهم أثناء الحرب ، نظروا إلى هذه الاتهامات بجدية ، بسبب تأثيرها المحتمل على جماهير الشعب فى تلك الفترة الحرجة ، ونجد فى الأوراق الخاصة للورد كيلرن «سيرمايلز لامبسون» قوله :

«لقد كررت القول بأننى أعتقد أنه لم يكن يتعين - لمصلحة الموقف العسكرى - إقصاء مكرم عبيد عن وزارة التموين ، إذ كان طبقًا لتقارير المتعاونين معى يؤدي العمل بصورة طيبة وعلى نحو رائع ، وله فكر واضح وعقل صاف ، كما أنه ذو قدرة على اتخاذ القرارات»^(١١) .

(11) KILLEARN PRIVATE PAPERS, p. 122, TUESDAY, May 5, 1942, CAIRO.

وقد كان من أسباب تعاطف البراطنيين مع عبيد أنه لم يكن يتمتع بسلطة متعادلة مع سلطة النحاس ، زعيم الأغلبية ، ويشير تقرير من (لامبسون) إلى إيدن إلى تفسير خاص لضعف موقف عبيد حين يذكر :

« كان موقف عبيد - بوصفه قبطيا - ضعيفا ، وتردد في البداية في الهجوم على الزعيم المسلم للوفد ، طالما كان النحاس باشا يتفادى الهجوم عليه تفاديا للعداء العلني^(١٢) » .

وقد تأثر رد فعل البريطانيين تجاه انفصال عبيد بظروف الحرب أساسا وقد فضلوا عدم توريط أنفسهم في مسألة سياسية داخلية في ذلك الوقت العصيب ، وكانت المسألة الوحيدة التي أثارت اهتمامهم في الخلاف هي اتهامات عبيد للنحاس المتعلقة بعلاقته مع البريطانيين ، ويذكر لورد كيلرن في أوراقه :

« كنت قلقا للغاية من الموقف الذي كان مكرم يضع نفسه فيه ، فقد كان في مقدوره أن يهاجم النحاس بالقدر الذي يريده منطلقا من دوافع شخصية لا تعنينا ، ولكنه يتقدم حاليا باستجابات سامة وجادة في البرلمان ، متها رئيس الوزراء بأنه باع البلاد لنا ، وكنت أعتقد أنه يتعين على عبيد أن يدرك أنه إذا استمر في ذلك الطريق فإنه لن يمر وقت طويل قبل أن تضطر إلى اعتباره معاديا لنا أو « طابورا خامسا » على الأقل^(١٣) » .

ويمكن أن ندرك رد الفعل الشعبي لانفصال عبيد عن الوفد ، والتأييد المحدود الذي حظى به عند خروجه منه ، إذا أخذنا في الاعتبار عاملا هاما ، وهو أن الوفد كان في عام ١٩٤٢ مختلفا عما كان عليه في العشرينات ، ولعل أبرز شواهد ذلك هو تطور علاقة الحزب بالبريطانيين والتي تبلورت بعد معاهدة ١٩٣٦ ، وتأكدت من أحداث ١٩٤٢ التي جاءت به إلى السلطة ، وفيما يتعلق بالتغيرات في خصائص الوفد وسياساته ، نجد إشارة إلى ذلك في مذكرات الزعيم العالي البريطاني رمزي ماكدونالد :

« إن الخلافات أو الانشقاقات عن الوفد لا يجب - في رأيي - أخذها بجديّة ، خاصة في وقت الأزمة الاقتصادية ، وأن ما يثير دهشتي بالفعل هو أنه لم يحدث منها أكثر مما حدث من قبل ،

(12) F.O. 371/ 31573, June 21, 1942 from LAMPSON TO EDEN.

(13) KILLEARN PRIVATE PAPERS, p. 225, MONDAY JULY 27, 1942, CAIRO.

وأُتذكر أنه عامى ١٩٢١، ١٩٢٢ ، كان المرحوم زغلول باشا يتلقى يوميا خطابات للاستقالة وسحب التأيد^(١٤) .

وقد حدث اختفاء تدريجى - سواء عن طريق الاعتزال والتقاعد أو الوفاة لكثير من الشخصيات المؤثرة ، من مسلمين وأقباط فى تاريخ الوفد ، وبدت معاهدة سنة ١٩٣٦ كمرحلة أخيرة فى النضال الوطنى المصرى ، وبداية عصر جديد للعلاقات بين البريطانيين والوفد ، بصفته حزب الأغلبية المصرية ، الذى وقع المعاهدة ، وفى ٢٤ نوفمبر سنة ١٩٣٦ اقتبس إيدن - وزير خارجية بريطانيا فى مجلس العموم ، الملاحظات التى أوردتها النحاس فى تقديمه المعاهدة لمجلس النواب فى القاهرة بقوله :

«لقد كان وضع الوفد - منذ البداية - كبرنامج له ، توقيع اتفاقية مع بريطانيا العظمى ، لتحقيق الاستقلال للبلاد ، وتصور المصالح البريطانية التى لا تتعارض مع ذلك الاستقلال^(١٥) » . والملاحظ هنا أنه بعد كل تلك التغيرات والتحولات فى الشخصية الوطنية للوفد من حركة النضال الوطنى من أجل الاستقلال ، إلى حزب سياسى له تطلع مستمر إلى تولى الحكم ، الملاحظ أن تلك التغيرات قد أثرت على رد فعل الوفد تجاه انفصال عبيد ونشره «الكتاب الأسود» سنة ١٩٤٢ .

وهكذا ، فإن اختفاء الزعامات المؤسسة للوفد قد أعطى النحاس السلطة الكاملة كزعيم وحيد ، وكانت زعامة الوفد هى فقط التى عاجلت الشقاق الذى أحدثه انفصال عبيد ولم يتم إشراك لجان ومجموعات الحزب فى المدن والقرى وجماهير مؤيديه فى التعرف على أسباب النزاع أو فى اتخاذ القرار بطرد عبيد من الحزب^(١٦) ، ويرى كثير من معاصرى تلك الفترة أن عبيدا كان أقوى سنداً للنحاس داخل الحزب منذ أن ارتبط كل منها بالآخر بزمالة وصداقة لأكثر من عشرين عاماً ، والأكثر من ذلك أن الصحفى الأستاذ «التابعى» الذى كان وثيق الصلة بزعامة الوفد لمدة طويلة ، اعتبر أن عبيدا كان صاحب السيطرة فى الحكومة والحزب ، خاصة عندما

(14) JAMES RAMSAY MACDONALD PRIVATE PAPERS, p.r.o. 30169 (1/ 227), january 1932.

(15) JAMES RAMSAY MACDONALD PRIVATE PAPERS, (1/ 638) (ANGLO-EGYPTAIN TREATY, HAUSARD, DELATES ON NOVEMBER 1936).

(١٦) حشيش ، مرجع سابق ، ص - ١٨ .

أعطى السلطة للتصرف نيابة عن الوفد في ترتيبات تنويع الملك فاروق سنة ١٩٣٧^(١٧) ، وقد كان طرد عبيد - كسياسي له هذه السلطة والثقل الجماهيري - تطوراً عنيفاً في تاريخ الوفد ، وانعكاساً للتغيرات التي حدثت في الحزب عبر السنين ، سواء في زعامته أو في سياسته ، وكان من بين الأسلحة التي تم استخدامها ضد عبيد في خلافاته مع الوفد ، هو أنه نفسه كان مسئولاً عن تكوين صورة النحاس أمام الشعب ووضع حالة حوله ، فقد أغدق المديح على الزعيم في خطبه ومقالاته وأعطاه ألقاباً كثيرة مثل « الزعيم المقدس » ، وتعود أن يتكلم ويكتب عن أمانة النحاس « الزعيم ذو اليد النظيفة » ، لذلك نجد أن د . محمد صلاح الدين . آخر وزير خارجية للوفد - يعتبر أن عبيداً هو أسوأ الشخصيات التي حطت من قدر الحياة السياسية في مصر^(١٨) . وقد استخدمت وجهة نظر عبيد في أحمد ماهر والنقراشي سنة ١٩٣٧ ، ضده هو نفسه سنة ١٩٤٢ ، ذلك أنه شرب من نفس الكأس التي سقى منها زملاءه من قبل ، إذ أنه عندما كان كلا من النحاس وعبيد يتعرضان لاتهامات بالفساد أثناء حكومة الوفد ، كان عبيد يفند تلك الادعاءات ويلحضها ، ثم وجد نفسه أخيراً في الجانب الآخر سنة ١٩٤٢ .

وإذا كانت تلك هي ردود فعل مراكز القوى الرئيسية الثلاثة في سنة ١٩٤٢ : الملك والسلطات البريطانية والوفد ، فإنه من الممكن أن تدخل في الاعتبار بالإضافة إلى ذلك ، مراكز قوى أخرى مثل البرلمان ، وأحزاب الأقلية والرأي العام ، وقد كان البرلمان يظم غالبية وفدية ، لذلك كان رد فعلها تجاه عبيد ونشر الكتاب الأسود امتداداً لرد فعل الوفد نفسه ، ويبدو واضحاً - في مضابط مجلس النواب - أن رئيس المجلس ، عبد السلام فهمي جمعة^(١٩) ، قد اتخذ مواقف معادية لعبيد أثناء المناقشة البرلمانية للكتاب الأسود ، وقد يكون سبب ذلك هو أن جمعة ، الوفدي ، شعر بأن عبيداً قد هاجمه هو شخصياً في الكتاب الأسود ، متهماً إياه بأنه كان منحازاً وغير ديمقراطي في إدارته لجلسات المجلس ، علاوة على ذلك فإن عبيداً نشر « الكتاب الأسود » ، كعريضة للملك ، متجاهلاً البرلمان ، الذي يعتبر السلطة المناسبة لبحث شكواه والنظر فيها ، وقد

(١٧) التالي ، مرجع سابق ، ص - ٧٥ .

(١٨) حشيش ، مرجع سابق ، ص - ١٨ .

(١٩) عبد السلام فهمي جمعة ، كان عضواً وفدياً بمجلس النواب عن طنطا ، وكان وزيراً وفدياً ، ثم أصبح رئيساً لمجلس النواب سنة ١٩٤٢ وهو والد الدكتور عزيز فهمي من أقطاب الطليعة الوفدية (الشباب اليساري بالحزب في أواخر الأربعينات ومطلع الخمسينات) .

أثار هذا الاعتراض عددًا من الأعضاء في البرلمان ، مثل الرافعي ، عضو مجلس الشيوخ ، على أساس أن ذلك يعنى أن البرلمان عاجز عن اتخاذ إجراء تجاه تلك الادعاءات ، بطريقة عادلة ونزيهة^(٢١) .

أما فيما يتعلق بالأحزاب الأخرى ومواقفها من الانقسام في الوفد وصدور الكتاب الأسود ، فمن المتصور أن آراء الأحرار الدستوريين يمكن استخلاصها من كتاب « الدكتور هيكمل » وعلى الرغم من أنه كان متعاطفًا بصورة عامة مع عبيد فقد كان يعتقد بأن قائمة الأمثلة والأسماء الكثيرة في الكتاب الأسود تمثل خطأ في استراتيجيات عبيد ، بينما يرى أعضاء الحزب الوطنى ، من ناحية المبدأ ، تعاطفًا مماثلًا مع عبيد ، في الوقت الذى لا يوافقونه فيه على أساليبه ، وخاصة إقدامه على نشر (الكتاب الأسود) ، وقد قام عبد الرحمن الرافعي بالتعبير عن آرائهم في مجلس الشيوخ ، وفكرى أباطة في مجلس النواب ، ولم يكن الأخير موافقًا إطلاقًا على إسقاط عضوية عبيد في مجلس النواب^(٢٢) ، أما إذا بحثنا في موقف السعديين ، بزعامة أحمد ماهر والنقراشى ، اللذين انفصلا عن الوفد سنة ١٩٣٧ بعد نزاع مع النحاس وعبيد ، فقد كان من المتوقع أن يستغل السعديون الوضع الجديد لمهاجمة عبيد ، الذى كان منافسهم السياسى لمدة طويلة ، إلا أن ذلك لم يحدث لأن النزاع بين عبيد والنحاس نشأ لأسباب ماثلة لتلك الأسباب التى أدت إلى النزاع بين أحمد ماهر والنقراشى من ناحية والنحاس من ناحية أخرى سنة ١٩٣٧ ، وقد حاول عبيد التقارب منها في أوائل عام ١٩٤٢ ، وعلمت « الاجبشيان جازيت » على ذلك قائلة :

« قام مكرم عبيد باشا ومندوب آخر عن النحاس باشا ، بزيارة أحمد ماهر باشا رئيس مجلس النواب وزعيم الحزب السعدى وأعلن بعض المعلقين أنهم يرون في ذلك تخفيفًا لحدة الخلافات بين الزعماء السعديين والوفديين^(٢٣) ، ويمكن أن تعطى هذه الفقرة في الاجبشيان جازيت ، انطباعًا بأن عبيدًا كان يحاول إقامة جسور مع الأحزاب الأخرى ، لأنه كان قد تحسّس دلائل خلافات جوهرية محتملة مع النحاس ، ويتفق الهلالى مع هذه النتيجة بملاحظة قال فيها إنه قد لاحظ روح الخلاف بين النحاس وعبيد من أول جلسة لمجلس وزراء الوفد سنة ١٩٤٢^(٢٤) ، ومن ناحية

(٢٠) الكتب الأبيض - القاهرة - ١٩٤٣ - ص ٥٦٩ .

(٢١) مضبطة مجلس النواب ، جلسة رقم ٤٧ ، القاهرة ، ١٣ / ١٢ يوليو ١٩٤٣ ص - ٢١٣٠ .

(22) EGYPTIAN GAZETTE, CAIRO, FEBRUARY 3, 1942, P. 3.

(٢٣) انظر الفصل الرابع ، هامش ١٩ .

أخرى ، يمكن تناول ذلك الخبر الذى نشرته « الاجبشيان جازيت » من خلال الجو الذى أثاره حادث ٤ فبراير ، كما يظهر من تاريخ الخبر .

وإذا تطرقنا إلى رأى العام المصرى ، لوجدنا أن أصداء تصرف عبيد لم تكن مثلما كان متوقعًا ، لأن الكتاب الأسود وزع فقط على الشخصيات الهامة فى الحكومة والأحزاب السياسية ، ولم يكن ميسورًا الحصول عليه للمواطن العادى ، كما أن الرقابة السائدة على الصحف عملت على تقييد توزيعه والحد من انتشاره ، كما منعت ذكر أى شىء عنه ، أو عن المناقشات التى جرت فى مجلس النواب بشأنه ، وقد أدت تلك العوامل إلى تحويل النزاع بين النحاس وعبيد إلى خلاف فى زعامة الوفد .

ويبدو واضحًا أن معظم ردود فعل مراكز القوى الرئيسية على المسرح السياسى المصرى فى ذلك الوقت كانت انتقادية بالنسبة لموقف عبيد وذلك لأسباب متعددة منها :

أولاً : أن مكرم عبيد لم يكن حكيما فى توقيت نشره الكتاب الأسود ، لأن جميع وسائل الإعلام فى وقت الحرب كانت خاضعة لرقابة مشددة ، وبخاصة الصحف ، وقد منع ذلك عبيدا وبصورة كبيرة من الوصول إلى جميع قطاعات الشعب ، وفى الوقت نفسه كان الشعب يولى - بسبب ظروف الحرب - معظم اهتمامه وانتباهه للمعركة الدائرة فى الصحراء الغربية ، وصرفت هذه الظروف انتباه الرأى العام عن اتهامات عبيد للنحاس وقيادة الوفد .

ثانياً : كان هناك الضعف النسبى لوضع الملك فى مواجهة البريطانيين والوفد بما لم يهين للقصر القوة الكافية لتأييد عبيد ومساندته علنا ، وكان ذلك بمثابة خيبة أمل حقيقية لعبيد لأنه كان يتوقع تأييدًا قويًا من القصر فى معركته السياسية ضد الوفد والنحاس .

ثالثاً : كانت آراء عبيد ومواقفه - داخل البرلمان وخارجه - فى غير صالحه شخصيًا ، واستخدم النحاس تلك الآراء ضده فى الوقت الذى ساعدت فيه ظروف الحرب النحاس فى التضييق على عبيد واستعداد قوى كثيرة ضده مدعيًا أن تصرفاته تناقض بنود معاهدة ١٩٣٦ .

رابعاً : أن النتيجة النهائية لمعارك الصحراء الغربية حرمت عبيدا من مواصلة اتهامه للنحاس بأنه باع البلاد للبريطانيين ، لأن هزيمة الحلفاء فى شمال أفريقيا والتى كانت متوقعة تمامًا ،

قد دفعت عبيدا لمطالبة النحاس باعتبار القاهرة مدينة مفتوحة ، على افتراض أن قوات المحور سوف تصل إلى المدن المصرية ، إلا أنه عندما حقق البريطانيون انتصارهم ، أصبح مركز النحاس أكثر قوة ، بينما أصبح مركز عبيد ضعيفاً لا يعززه تطور الأحداث (٢٤) .

خامساً : كان من العقبات التي واجهت عبيدا في موقفه ضد النحاس عدم وجود ديمقراطية حقيقية في مصر ، فقد امتلك النحاس كل مصادر القوة ، بينما وقف عبيد مجرداً من سلطاته ، وتصرف النحاس كديكتاتور ضده ، حتى تم تجريد عبيد من عضويته في مجلس النواب ، وألقي القبض عليه بعد ذلك .

وقد وصف عبيد ذلك الجو الذي أحاط به في « الكتاب الأسود » بقوله أنه ظل في الوزارة لعدة شهور ينصح ويساعد ، ثم قدم استقالته ثلاثة مرات ، وحاول النحاس إقالاته ، ووضع رقابة على أية إشارة إليه في الصحف ، كذلك على مكاتباته ومراسلاته ، ثم يواصل عبيد الخطوات والإجراءات التي اتخذت ضده ومنها منع مجلس النواب من توجيه الشكر إليه على خدماته ، ثم فصله هو ومجموعته من البرلمان والحزب ، وتقييد حريتهم الشخصية وحرمانهم من حقوقهم السياسية (٢٥) .

وقد استغل النحاس مركزه وشعبيته ، ليدفع بعبيد إلى موقف صعب ، إلى درجة إنه عندما قدم أحد مؤيدي مكرم عبيد في مجلس النواب اقتراحاً في أول يونيو ١٩٤٢ بتوجيه الشكر لعبيد على خدماته التي أداها في وزارة المالية ووزارة التموين ، لم يسمح له رئيس المجلس بذلك (٢٦) ، وعلى الرغم من كل ذلك ، فقد واصل عبيد نشاطه في إطار حزبه ، الكتلة الوفدية ، وواصل إصدار جريدته (الكتلة) ومارس نشاطاته خارج حزب الأغلبية للمرة الأولى في حياته السياسية ، بعد أن كان عنصرًا فعالاً في الوفد لأكثر من عشرين عامًا ، وفي ١٣ مايو ١٩٤٤ ، نشر عبيد بياناً باسم « الكتلة الوفدية المستقلة » ، اتهم فيه بريطانيا بإعادة فرض الحماية على مصر ، متهمًا بذلك لا المعاهدة فقط بل أيضاً جوهر الخطابات المتبادلة بين البلدين في فبراير ١٩٤٢ ، وروح ميثاق الأطلسي ، وأعلن عبيد - في بيان حزبه - احتجاجه الشديد على تلك السلسلة من

(٢٤) من مقابلة مع الأستاذ - سعد فخري عبد النور - المحامي ، ١٣ سبتمبر ١٩٧٤ .

(٢٥) الكتاب الأسود ، ص ٦٢ .

(26) F.O. 371/ 31572, JUNE 3, 1942, LAMPSON TO EDEN.

الاعتداءات على الحريات العامة ، وختم بيانه بقوله إنه يوجه ذلك النداء إلى صاحب الجلالة الملك ، ويرسل صوراً منه إلى السفارة البريطانية ، ويمثلى الدول الديمقراطية ، والدول العربية الشقيقة^(٢٧) ، ويعتبر ذلك البيان نموذجاً لآراء وتصرفات عبيد في الفترة ما بين طرده من الوفد وإلقاء القبض عليه ، وقد تعاون عبيد مع السعديين والأحرار الدستوريين ، وقيادات الحزب الوطني في تقديم عدة احتجاجات ضد المحاولات التي اتخذت للإبقاء على حكومة النحاس في السلطة ، ومواصلة السياسة البريطانية في مصر ، والواقع أن عبيداً قد اتخذ خطأ أكثر تشدداً ضد البريطانيين بعد خروجه من الوفد أكثر مما كان عليه حين كان عضواً فيه ، وكان سبب ذلك هو مزايده على النحاس ورغبته في الظهور أكثر وطنية من زعيم الوفد ذاته .

وقد أمضى عبيد خمسة شهور في السجن إلى أن أطلق سراحه في ٨ أكتوبر ١٩٤٤ ، ليعين وزيراً للمالية في حكومة جديدة يرأسها أحمد ماهر ، بالإضافة إلى زملاء آخرين من حزبه ، كما أعيد تعيينه بعد اغتيال أحمد ماهر في فبراير ١٩٤٥ ، في منصبه نفسه في حكومة النقراشي ، ولم يكن عبيد راضياً تماماً بالعمل في حكومة يرأسها أحمد ماهر أو النقراشي ، وكان يشعر بأنه يستحق تولى رئاسة الحكومة أكثر منها^(٢٨) .

وفشل عبيد في تحقيق حلمه في أن يصبح رئيس وزراء لمصر فقد أنزله انفصاله عن الوفد إلى مرتبة ثانية حتى بالنسبة لأحمد ماهر والنقراشي وقد كان عبيد على علاقة فاترة مع الأخير عندما كان رئيساً للحكومة ، ومع الدكتور عبد الحميد بدوى زميله في الوزارة كذلك ، وأصبح النزاع بين النقراشي ومكرم أكثر حدة في مارس وإبريل ١٩٤٥ ، مما يرجع بصورة جزئية إلى تشجيع مكرم للعمال ، كما يرجع - إلى حد ما أيضاً - إلى الخلاف حول الإجراء المتعلق بتقرير لجنة التحقيق في أخطاء النحاس باشا ووزرائه وأصبح النزاع بين مكرم وبدوى - فيما يتعلق بأسبقيتهما - أكثر حدة بسبب المأدبة التي أقيمت في القصر الملكي لمؤتمر اقتصادي ، وهو الحفل الذي وضع فيه القصر بدوى قبل عبيد ، والملاحظ أن عبيداً في ذلك الوقت كان يتودد إلى العمال ، ويبدى نزعة اشتراكية بصورة عامة^(٢٩) .

(27) F.O. 371/ 41328, MAY 12, 1944, LORD KITTEARN TO EDEN.

ولزيد من التفاصيل عن أنشطة حزب الكتلة ، انظر تقرير البوليس السياسى المصرى رقم ٢٢٤٨ و ٢٠ أكتوبر ١٩٤٣ .
(٢٨) انظر الفصل الرابع ، هامش ٥٠ .

(29) F.O. 371/45930, APRIL 8, 1945, LORD KILLEARN TO EDEN.

وقد هدا الخلاف بين النقراشى وعبيد ولو مؤقتا بسبب تدخل القصر الذى كان يواصل تأييده ومساندته للإبقاء على عبيد فى مجلس الوزراء ، ويبدو أن عبيدا تلقى توجيهها ملكيا ليحد من تشجيعه « الديماجوجى » للعمال والحد منه ، كما يبدو أن محاولة محاكمة النحاس كانت قد بدأت تنسى وتختفى^(٣٠) . وقد واصل عبيد فى الوقت نفسه هجاته على النحاس الذى كان خارج السلطة وأعلن أن :

«لجنة التحقيق قد توصلت إلى أن النحاس باشا وزملاء له فى الوزارة مدينون بارتكاب جرائم تستحق العقاب طبقا لقانون العقوبات القائم ، وأضاف أن التهم سوف يتم تحويلها إلى مجلس الوزراء فى وقت قريب »^(٣١) .

وعلى الرغم من أن عبيدا شارك فى كل الأحداث الوطنية ، وكان مستغرقا فى كل القضايا السياسية الهامة فى ذلك الوقت ، إلا أنه - ومنذ انفصل عن الوفد - فقد جانيا كبيرا من رصيده الشعبى ، لأنه لم يعد زعيما فى حزب الأغلبية كما كان لسنوات طويلة مضت ، وقد اختير عضوا فى وفد مفاوضات صدق - بيفن سنة ١٩٤٦ ، لكنه رفض هو وستة من زملائه مسودة الاتفاقية الجديدة ، حتى تفكك وفد المفاوضات وانقسم على نفسه^(٣٢) وقد تعود مكرم عبيد - منذ ترك الوفد - أن يكتب كلمة يومية فى صحيفة « الكتلة » ، تحت اسم مستعار هو « حكيم » عاكسا بذلك خبراته فى المسائل الاجتماعية والقضايا السياسية ، ولكن وفى الجانب الآخر كان لانشقاق عبيد تأثير كبير فى حزب الوفد لأن أحد زعمائه الكبار قد اتخذ موقفا عنيفا بصورة علنية ضد النحاس ، ووجه انتقاده واتهاماته إلى رئيس الوفد الذى كان يعتبر - إلى حد كبير - رمز الوطنية وزعيم حزب الأغلبية ، ولقد وصف بعض المعاصرين مؤخرًا حملة عبيد ضد النحاس والوفد سنة ١٩٤٢ ، ومحتويات الكتاب الأسود والفصائح التى كشف عنها بأنها « ووتر جيت الوفد »^(٣٣) . وأكدت تلك الحالة المتدهورة فى الوفد الفكرة التى كانت قائمة على نطاق كبير والقائلة بأن النحاس ترك مقاليد أمور الحزب بعد سنة ١٩٣٦ لنبذة ملاك الأراضى والسياسيين المحترفين من ذوى المصالح

(30) F O 371/45930, April 15, 1945 Lord Killeam to Eden.

(٣١) الكتلة ، القاهرة ، ١٧ فبراير ١٩٤٥

(٣٢) سنية قراءة نمر السياسة المصرية ، القاهرة (بلا تاريخ) ص - ٥٥٧

(٣٣) استخدم هذا التعبير الأستاذ سعد هجرى عبد النور فى اللقاء معه فى سبتمبر ١٩٧٤ .

حتى تحول الحزب عن شخصيته الأصلية وفلسفته التاريخية^(٣٤) .

... وقد هيا انشقاق عبيد عن الوفد عصرا مثيرا للأحزاب الأخرى التي عللت ترجيحها بعبيد ، على الرغم من خلافاتها السابقة معه حيث كان معروفا بأنه المؤيد الرئيسى والمساعد الأول للنحاس ، وصانع القرار فى الحزب ، وكان القصر الملكى أكثر الأطراف بهجة للتطورات كلها ، فقد اعتبر الملك «الكتاب الأسود» سلاحه الملائم الذى يمكنه به مهاجمة الوفد والتضييق عليه^(٣٥) ، وأنه لمن الصعب تقييم تأثير انشقاق عبيد على التأيد الشعبى العام للوفد ، فبصورة عامة ، ظل خلاف عبيد - النحاس أزمة على مستوى الزعامة فقط دون أن تصل إلى جماهير الشعب من الفلاحين والعمال أو أبناء الطبقة الوسطى التى كانت تشكل الجزء الرئيسى للمؤيدى للوفد تحت زعامة نخبة ملاك الأراضى المصرين وفى أحد تقاريره إلى وزارة الخارجية ، علق لامبسون على هذه المسألة بقوله :

«إنه لمن الصعب تقدير إلى أى حد فقد الوفد التأيد فى البلاد ، ومع ذلك فقد وفرت الانتخابات الأخيرة لرئاسة نقابة المحامين دلالة فى هذا المجال ، إذ أنه دائما ما يتم تعليق أهمية كبيرة على تلك الانتخابات فى ضوء الدور البارز الذى يلعبه المحامون فى الميدان السياسى ، وقد كانوا دائما مصدر متاعب لحكومات الأقلية ، التى كانت تلجأ إلى التحايل للحيلولة دون انتخاب نقيب وفدى ، فقد كانت نقابة المحامين ، ولا تزال معقلا وفديا ، فكان على حكومة الوفد - فى انتخابات النقابة التى جاءت بعد خروج مكرم عبيد من الحزب - استخدام كل الأساليب كى تحول دون انتخاب مكرم عبيد باشا نقيبا ، وعلى الرغم من الجهود الضخمة التى بذلها الوفديون فى انتخابات النقابة ، فقد تم انتخاب محمود بسيوفى بك ، المرشح الوفدى ، بأغلبية ضئيلة ، وهى نتيجة أمكن اعتبارها انعكاسا لتحول هام ضد الوفد بين الطبقات المثقفة ذات الاهتمامات السياسية ، ومع ذلك لم يتمكن معارضو الحكومة من استغلال ذلك التحول بطريقة مؤثرة^(٣٦) » .

ولعل أكثر العوامل تعقيدا فى تحديد تأثير خلاف عبيد - النحاس ، على أنصار الحزب هو

(٣٤) من لقاء مع الأستاذ محمد حسين هيكل ، ٣٠ سبتمبر ١٩٧٥ .

(٣٥) طارق البشرى - الحركة السياسية فى مصر (١٩٤٥-١٩٥٢) القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص-٢١

(36) F.O. 371/35529, January 31, 1943, LAMPSON TO EDEN .

حقيقة أن الوفد كان قد بنى جزءا من مكانته السياسية وشعبيته على أساس أنه حزب الطائفتين الرئيسيتين في الأمة المصرية المسلمين والأقباط ، وقد كان معروفا أن الوفد يجمع شمل المصريين سواء كبار ملاك الأراضي أو الفلاحين أو المثقفين وحتى أولئك المتخصصين في إثارة مشاعر الجماهير ، إلى جانب المسلمين المتدينين والمسيحيين من كل طوائفهم والعلمانيين ، وقد دار الصراع السياسي الكبير في مصر بين أولئك الذين كانوا يتمنون يوما إلى الوفد وأولئك الذين ظلوا على ولائهم له ولا نكاد نجد من السياسيين المصريين من لم ينضم يوما للوفد^(٣٧) .

كما أن وزارتي الخارجية والمالية ، في بعض الحكومات الوفدية ، كان يتولاهما قبطيان هما : واصف بطرس ، ومكرم عبيد ، على التوالي ، مما جعل بعض أعداء الوفد يتهمون الحزب بأنه « وفد الأقباط المتعصبين » الذين يحاولون تحقيق تفرقهم على المسلمين ، وقد أظهر الوفد مهارة وسعوا في تجاهل الخلافات الدينية ، ومن الممكن أيضا تفسير تأثير الأقباط ونفوذهم في الوفد - الذي كان في ذلك الوقت حزب محامين وملاك أراض - عن طريق مواهبهم المهنية وتزايد الثروة لدى الوجهاء الأقباط^(٣٨) ، وقد كان الوفد - لهذا السبب - حركة سياسية على درجة عالية من الأهمية ، أمكن للأقباط في نطاقها وللمرة الأولى منذ القرن السابع ، أن يمارسوا مشاعرهم الوطنية ويلعبوا دورا حاسما في الكفاح الوطني من أجل الحرية والاستقلال^(٣٩) ، « فلقد تشابكت أيدي المسلمين والأقباط في الوفد ، وعلى الرغم من أن الوحدة الوطنية كانت تمر بحالات صحوة أحيانا وفتور أحيانا أخرى ، فإن تلك الوحدة ظلت ذات طابع خاص حتى سنة ١٩٤٢ ، عندما اهترت أثر نزاع علني بين زعيم الوفد المسلم وساعده الأمين القبطي »^(٤٠) .

ومها يكن الأمر فإن انفصال عبيد - القبطي البارز - من الحزب قد غير إلى حد ما من الصورة التي عرف بها الحزب منذ أيام زغلول كحزب للوحدة الوطنية ، فقد كان وجود قبطي على مستوى القمة في زعامة الوفد رمزا له معناه ومغزاه ، وكان يعطى دائما الحزب شخصية متميزة ، وقد كان خروج عبيد من الحزب نهاية لجيل المؤسسين من الأقباط في الوفد من أولئك الذين بدأوا مع زغلول ، مثل واصف ويصا ، وسينوت حنا ، وواصف غالي ثم مكرم عبيد ، وكان فصلا أخيرا في المشاركة الواقعية للأقباط في الحياة السياسية من خلال حزب الوفد قد بدأ ، وهي المشاركة التي

(37) J & S. LACOUTURE, op. c.t., p. 91 .

(38) Ibid., p. 95 .

(39) P.F. MEINARDUS op. c.t., p. 14 .

(40) E. WAKIN, op. c.t., p. 14 .

بدأت في وقت كانت فيه الحركة الوطنية المصرية لا تزال في ريعها ، وفي وقت كان فيه الأقباط – كما أكدت وقتها صحفهم – يتزعون إلى التعاطف مع الرأي المعارض للاحتلال^(٤١) ، وقد كان النحاس نفسه ، يضع في اعتباره هذه المسألة عندما عين كامل صدق باشا – وهو قبطي – وزيرا للمالية خلفا لعبيد ، وكان مدركا للأصدقاء ذات الصبغة الدينية المحتملة لانفصال عبيد ، وقد أبرق «لامبسون» إلى الخارجية البريطانية بأنه «من سوء الحظ ، أن كامل صدق باشا وزير المالية ، غير كفء لمعالجة المشكلات الراهنة ، لكن النحاس باشا كان ينجش التخلص من الوزير القبطي الوحيد المتبقي ، مما يزيد من دعم المعارضة القبطية التي يدبرها مكرم ضد حكومته»^(٤٢) ، ولقد كان النحاس مهتما بضرورة الحفاظ على شعبية الوفد بين الأقباط بعد انفصال عبيد لإحلال أحدهم محل عبيد ، وركز النحاس على إبراهيم فرج محاولا أن تكون علاقته به ماثلة لتلك التي قامت بين زغلول وعبيد^(٤٣) .

يبقى بعد ذلك أن نبحث في ما إذا كانت هناك دوافع دينية تكن خلف الخطوات التي اتخذها النحاس والوفد ضد عبيد ، الواقع أنه لا يوجد هناك دليل مقنع لتأييد ذلك الاعتقاد ، فإذا قارنا بين انفصال عبيد في سنة ١٩٤٢ . وانفصال أحمد ماهر والنقراشي ، فإنه يصعب العثور على أى رد فعل شعبي مختلف ، فقد كان الاختلاف فقط في رد فعل النحاس ، الذي كان أكثر عنفا مع عبيد لأن معارضته الأخير لسياسة النحاس كانت أقوى ، ولأن طبيعة الانفصالين وظروفها كانت مختلفة .

والنقطة الوحيدة ذات المغزى هي حجم التأييد الذي ارتبط بالانشقاقين إذ كان التأييد لعبيد بين الوفديين أقل إلى حد ما مما كان عليه في حالة أحمد ماهر والنقراشي ، لكن هذا يمكن تبريره بحقيقة أن النحاس كان أكثر قوة في سنة ١٩٤٢ مدعما في ذلك الوقت من البريطانيين الذين كانوا يسعون إلى إقرار الاستقرار السياسي في مصر في وقت الحرب ، كما لا يوجد أى دليل على أن عبيد ، كقبطي ، كان عاجزا عن استقطاب عدد كبير من مؤيديه من بين المسلمين ، ومع ذلك ، فإن الواقع يؤكد أن أكثر من نصف مؤيدي عبيد الرئيسيين كانوا من الوفديين الأقباط في

(41) S.M. SEIKALY, op. cit., p. 345.

(42) F.O. 371/35529, January 31, 1943, LAMPSON TO EDEN.

(٤٣) إبراهيم فرج مسيحه ، قبطي من سمود ، بلدة النحاس باشا ، كان وزيرا للشئون البلدية والقروية في آخر حكومة وفدية سنة ١٩٥٢

البرلمان^(٤٤) ، وأنه لمن الطبيعي أن بعض الأقباط فرغوا من طرد العضو القبطي القيادي في حزب الأغلبية ، ولكن من ناحية أخرى كان هناك كثير من الأقباط في الوفد لم يكونوا مؤيدين لعبيد . وبقوا على ولائهم للنحاس ، مثل كامل صدقي ، وإبراهيم فرج ، اللذين أصبح كل منهما وزيرا في الحكومات الوفدية بعد ذلك ، بينما تبع مسلمون وفديون آخرون عبيدا ، وعارضوا النحاس بقوة ، مثل سيد سليم ، وطه السباعي ، اللذين أصبح كل منهما وزيرا مع عبيد في حكومات أحمد ماهر ، والنقراشي ، في ١٩٤٤ - ١٩٤٥ ، وبينما كان النحاس مهتما بشعبية الوفد بين الأقباط ، كان عبيد - من ناحية أخرى - شديد الاهتمام بإظهار احترامه للمسلمين ، وذلك عن طريق إبراز أمثلة للتصرفات الجائزة للوفد تجاه الأزهر والإخوان المسلمين ، وقد كتب عن ذلك في الكتاب الأسود ، فذكر :

«لقد أغلقت الحكومة فرع جمعية الإخوان المسلمين في قنا بأمر عسكري ، فقلت لعل النحاس باشا قصر أمره على قنا لأنها قنا (بلد مكرم عبيد) ، ولكنني علمت أن الحاكم العبد - قد أصدر أمره - والأمر لله - بإغلاق عدد كبير من فروع الجمعية وهي تربو على الخمسين في شتى بلاد المملكة المصرية ، ويتحدث الناس جميعا عن حوادث الأزهر الشريف ، وعن التكنيل بطلبته الأبرياء حينما كانوا يهتفون للملك البلاد في طريقهم إلى القصر العامر ، بينما يسمح النحاس باشا بالمظاهرات الصاخبة لمصلحة حكمه»^(٤٥) .

وفي بريقة بعث بها إلى شيخ الأزهر سنة ١٩٤٣ يهنئه فيها بالذكرى الألفية للأزهر ، كتب عبيد :

«لعل أصلق ما يهنا به الأزهر الشريف في عيده الألفي ، أن رسالته التي صمدت للزمان ألف سنة ، إن هي إلا رسالة حق لن يطويها بل سينميها تعاقب آلاف أخرى من السنين ، وإذا كان لي - كمصري له عقيدته الوطنية - أن أفخر بالأزهر الشريف معهدا مصرياً ، فإن لي كرجل له عقيدته الروحية أن أشيد به معهدا دينيا ، ذلك لأن الله - الذي شاء للناس أن يختلفوا على الأديان - لن يسمح لهم بالاختلاف على الدين ، ولقد أدى الأزهر رسالة للدين والدنيا معا ، مدركا قبل غيره أن العلم البشري لن يكتب له البقاء إلا إذا اقترنت فيه المادة الخادمة بالروح الخالدة ...»^(٤٦) .

(٤٤) انظر الفصل الرابع ، هامش ٧٣ .

(٤٥) الكتاب الأسود ، ص - ٢٦٣ .

(٤٦) أحمد قاسم جودة - مرجع سابق - ص ١٦١ - ١٦٢ .

وعندما أطلق سراحه من السجن ، فى أكتوبر ١٩٤٤ ، وعين وزيراً للمالية فى حكومة أحمد ماهر ، ألقى عبيد خطبة رائعة فى قاعة الوزارة ، بأسلوب فيه ابتهاج ، مخلص لله ، تحدث فيه عن الوحدة الوطنية بين المسلمين والأقباط ، وأعاد تأكيدها ، وكان الشيخ المراغى موجوداً هناك ، وعلق على ما اتسم به خطاب عبيد من بلاغة ، بأنه «حديث شبيه بكلام المتصوفة»^(٤٧) .

وعلى أية حال ، فقد كان عبيد حريصاً دائماً على تأكيد احترامه للإسلام ، وكان دائماً ما يولى اهتمامه السياسى للأعياد الإسلامية ، ومشاركة الأغلبية مشاعرها فى المناسبات الدينية من منطلق الانصهار القومى والوحدة الوطنية ، وكان مكرم عبيد - فى علاقته مع طائفته - يحجم متعمداً عن القيام بدور زعيم طائفى على نطاق محدود ، وكان بعكس رجل مثل بطرس غالى باشا ، الذى كان يعتبر زعيماً للطائفة القبطية قبل أى صفة أخرى ، وكان عبيد شخصية عامة من نوع مختلف ، كانت تتحدث وتسلك وتتصرف كمصرى ، فى المرتبة الأولى ، وكقبطى ، فى المرتبة الثانية .

وفى ضوء ما حققه عبيد من نجاح يمكن القول أنه كان يعكس (روح زغلول الوطنية) ويمكن تفسير ذلك بأنه كان يتفادى دائماً أن يعتبر زعيماً طائفياً ، وهى مفتاح معرفة طبيعة علاقاته مع الطائفة القبطية ، لم يكن عضواً نشطاً فى الهيئات أو الجمعيات القبطية ، ولم يشترك قط فى النزاع المتصل داخل الطائفة القبطية بين المجلس الملى والكنيسة فقد كان البعض يعتبر المجلس الملى كهيئة تابعة للبطريركية ، ومعاونة لها ، ولا تتنازع - بالضرورة - مع القانون الروحى للكنيسة القبطية ، بينما كان آخرون يبنون هذه الفكرة ، ويتمسكون بأن مثل هذا المجلس يشكل تدخلاً من العامة فى السلطة المخولة لرجال الدين أو البطريركية^(٤٨) .

ولم يبرز عبيد وسط دعاة أى من الرايين ولم يشترك فى هذه المناقشات ، مما يفسر السبب الذى من أجله اعتبر كثير من الأقباط عبيد أنه متفرج فقط على شئون الطائفة ، واعتبروه مجرد قبطى طموح فى الميدان السياسى المصرى ، وليس ممثلاً لمصالحهم فى السياسة الوطنية ، وفى الوقت نفسه ، كان عبيد يعتقد دائماً أن الوفد والنحاس كانوا يعتبرونه - بطريقة ما - ممثلاً للأقباط فى حزب الأغلبية ، ولم يهين عبيد - ربما بسبب هذا التصور - أية فرصة لأى سياسى قبطى آخر بأن

(٤٧) المرجع السابق - وذكر ذلك أيضاً الأستاذ سعد فخرى عبد النور فى لقاءنا معه (يمكن أن تعتبر العلاقة العدائية بين المراغى الذى كان شيخاً للأزهر من جانب والنحاس والوفد من جانب آخر دافعاً وراء قوله الذى امتدح فيه مكرم عبيد) .

(48) F.O. MEINARDUS, op. cit., p. 21 .

يتولى مركزا بارزا في الوفد وأبقى فقط على فهمي وبصا وهو قبطي آخر في اللجنة الوفدية ، لأنه لم يكن شخصا مرموقا ، ومن ثم لم يكن يشكل تهديدا لمركزه القيادي في الحزب^(٤٩)

وسجل لورد كيلرن - في أوراقه الخاصة - محادثة دارت بينه وبين الدكتور نجيب محفوظ^(٥٠) في أغسطس ١٩٤٢ تبين رأى كثيرين من الأقباط في عبيد ونزاعه مع النحاس ، قال كيلرن : «أخبرت محفوظ أن عبيدا بكراهيته للنحاس وهجته العنيفة عليه في البرلمان ، سوف يصبح موقف حرج ، إذا تم استدراجه إلى سؤال خاص بالمعاهدة ومدى التزام النحاس بها ، وكنت أرجو من محفوظ أن يحذر مكرم بجدي ، لأنني سأكون - شخصيا - غير سعيد ، إذا ما أصبح علينا اتخاذ اجراء ضد رجل أعتقد أنه ما يزال - في قرارة نفسه - مؤيدا لبريطانيا ، وقال محفوظ أنه يوافق كلية على أن عبيدا كان أحقا للغاية ، وتحدث محفوظ أيضا عن التأثير المدمر لحماقة عبيد على الأقباط عامة ، إذ كان الأقباط ينظرون إلى الإنجليز دائما بوصفهم المدافعين عنهم ، وتأسف محفوظ على حماقة عبيد ، ووعد بالتحدث معه في غضون اليومين القادمين ، وإنني لأرجو - مخلصا - أن يكون لهذا التحذير تأثير ما فكمكرم فرد عنيف وليس من السهل توجيهه والتعامل معه^(٥١) .

ويبقى تحذير كيلرن الجاد بعض الضوء على دور البريطانيين في القرار الذي اتخذته النحاس بعد ذلك بإلقاء القبض على عبيدا سنة ١٩٤٤ ، والطريف أن عبيد قد غومل - بصفته عضوا بارزا من مجتمع الأقلية - ببعض التحفظات والشكوك من ناحية المنافسين السياسيين المسلمين ، كما أنه من ناحية أخرى ، كان محل اتهامات من الأقباط بأنه كان منافقا للأغلبية المسلمة . وأنه نقل على لسانه قوله إنه إذا كان «قبطيا بالدين فإنه مسلم بالوطن»^(٥٢) .

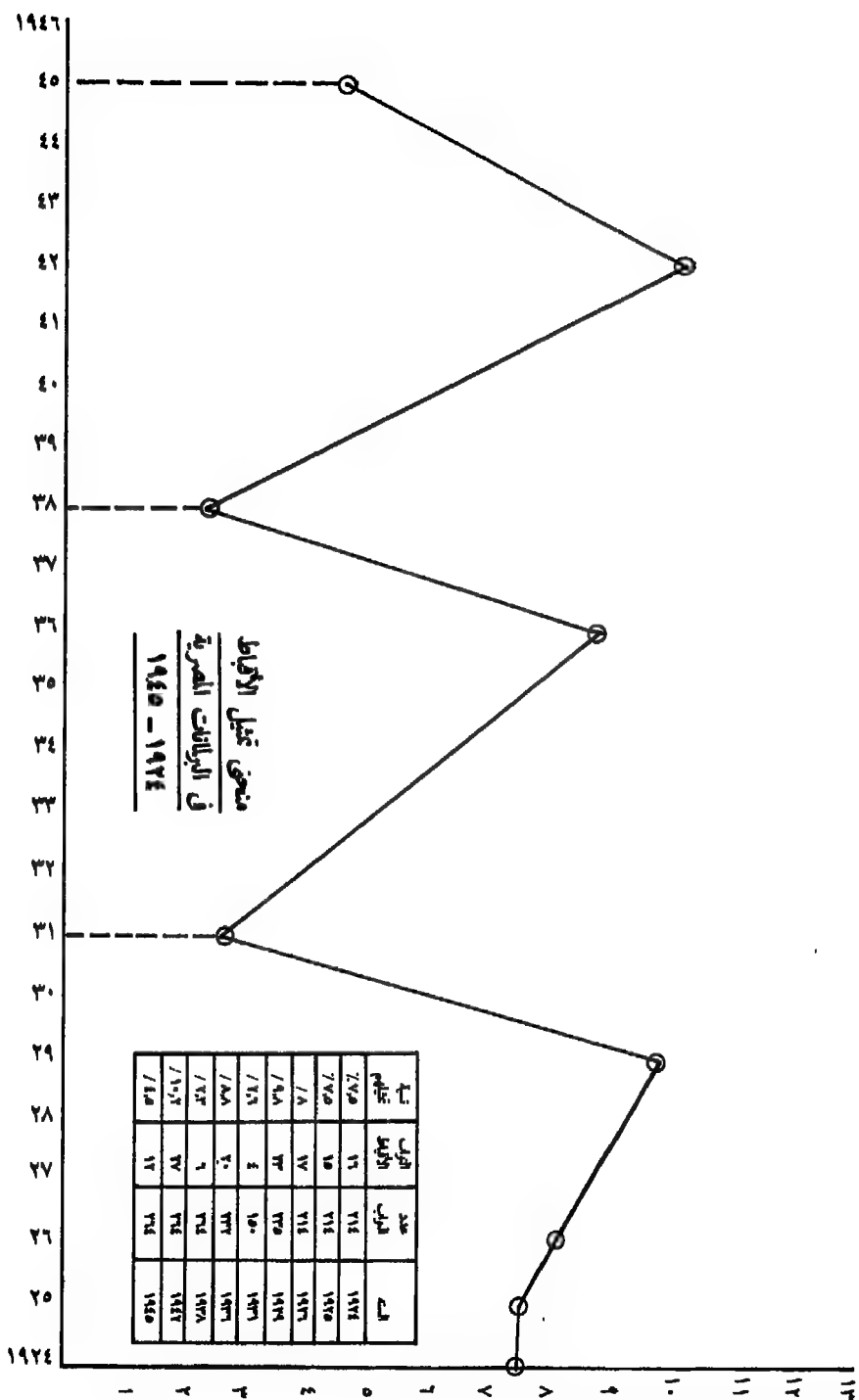
ولا يوجد دليل واضح يبرهن على أن شعبية عبيد المتناقضة بعد انفصاله كانت ترجع إلى

(٤٩) عبد العظيم رمضان - تطور الحركة الوطنية في مصر - المجلد الثالث - بيروت ١٩٧٣ - ص - ٢٥٩ .

(٥٠) د . نجيب محفوظ باشا بعد من الرواد في الطب المصري الحديث وهو ألب طب أمراض النساء والتوليد في مصر . وهو قريب لمكرم باشا عبيد بالمصاهرة .

(51) Killean Private Papers, p.225 (Cairo, Monday July 27, 1942)

(٥٢) من مقابلة مع الأستاذ فكري مكرم عبيد ، الذي أصاب أن النحاس ، وأحمد ماهر ، والقائد كانوا من بين معارضي عبيد ، في فترات مختلفة من حياته ، ولكنهم لم يستخدموا أسلوب الطعن في دين عبيد أو عقيدته سواء في خطبهم أو في كتاباتهم ضده .



عوامل دينية ، بل إن تدهور شعبية عبيد من الممكن أن نرجعه إلى معارضته لحزب الأغلبية وللزعيم الشعبي للبلاد ، ويلاحظ أن نسبة تمثيل الأقباط في البرلمان المصرى كانت مد أيام زغلول ، مرتبطة مباشرة بتمثيل الوفد ككل^(٥٣) ، أى أن نسبتهم كانت تعتمد على القوة الانتخابية لحزب الوفد .

ويوضح الجدول السابق منحى التمثيل القبطى فى البرلمانات المصرية والعلاقة الطردية بين نسبة الأقباط ومستوى تمثيل الوفد ، فى انتخابات عامى ١٩٣١ و ١٩٤٥ كانت نسبة الأقباط فى البرلمان منخفضة لأن الوفد قاطع تلك الانتخابات ، كما كانت النسبة فى انتخابات سنة ١٩٣٨ منخفضة أيضا ، لأن الوفد هبطت شعبيته نسبيا فى أعقاب انفصال أحمد ماهر ، والنقراشى ، ويرى الأستاذ طارق البشرى أن انفصال عبيد من الوفد أثبت أنه لم يكن يتمتع بفوذ أو تأثير خاص على الأقباط فى الوفد لأنه كان يمثل مركز ثقل على المسرح السياسى وليس فى المجال الدينى^(٥٤) .

.. وفى الجانب الآخر نجد كاتبا مثل "WAKIN" يصل فى كتابه إلى استنتاج مختلف عندما يقول :

«... فى الأربعينات حدث انفصال بين النحاس المسلم ومكرم عبيد القبطى وترك على أثره معظم الأقباط الوفد»^(٥٥) ، ولكن الدلائل تشير إلى أن تأييد الوفديين الأقباط لم يتأثر بانفصال عبيد ، ومن الممكن أن يكون قد تأثر إلى حد ما بما يمكن أن نطلق عليه بعصية الصعيد ، إذ أن معظم أعضاء مجلس الشيوخ وأعضاء مجلس النواب الأقباط والمسلمين ، الذين تبعوا عبيدا قد جاءوا من مديريات الوجه القبلى وقد كان النحاس نفسه يقظا بشأن هذه المسألة ، وحدد سياسته - فى معالجة الخلاف - طبقا لذلك .

ونلاحظ أيضا أن انفصال عبيد من الوفد لم يؤثر - فى الوقت ذاته - على تأييده وشعبيته بين المسلمين الذين وقف كثيرون منهم إلى جانبه ضد النحاس ، ويدكر WAKIN أيضا أن «مكرم عبيد ربما كان سيصبح رئيسا للوزارة إذا لم يكن قبطيا»^(٥٦) . والواقع أن القصر الملكى هو الذى اهتم بهذه المسألة فى وقت كان الملك فيه مهتما بمركزه الدينى ، وربما كانت هذه النقطة عاملا مؤثرا

(٥٣) طارق البشرى - الكاتب - عدد ١٢١ - القاهرة - ١٩٧١ .

(٥٤) طارق البشرى - المرجع السابق .

(٥٥) E. WAKIN, op. cit., p 17.

(٥٦) المرجع السابق - ص - ١٧ .

في اختيار أحمد ماهر ، لرئاسة الوزارة بعد النحاس في ١٩٤٤ وليس مكرم عبيد الذي كان يمكن أن يكون اختيارا طبيعيا في تلك الظروف ، إذ كان منطقيا أن يختار عبيد في ذلك الوقت كرئيس للوزراء ، خاصة بعد معارضة للنحاس ، وهجومه القوي ضد حكومته والتي كان الملك قد اضطر إلى قبولها سنة ١٩٤٢ ، والواقع أن كفاءات عبيد الشخصية كانت تؤهله لرئاسة الوزارة ربما قبل أحمد ماهر والنقراشي ، بالإضافة إلى أنه لم يكن يشعر بأن ديانتَه يمكن أن تكون حائلا بينه وبين ذلك المنصب الرفيع بمنطق السوابق من ناحية ولشعبيته وكفاءته من ناحية أخرى ، لذلك كان عبيد يشعر بمرارة تجاه القصر الذي تخطاه ، وقد شارك هو وزعماء الأحزاب الأخرى في توقيع بيان سنة ١٩٥٠ ، ينتقدون فيه فساد الحياة السياسية بصفة عامة ، وانحرافات حاشية القصر ومستشاري الملك بصفة خاصة ، ويعبر البيان عن الأسف للتصرفات والإجراءات التي تشكل نقضا للدستور^(٥٧) .

ورغم نشاط عبيد السياسي - بعد خروجه من الوفد - فإنه أصبح واضحا أن نفوذه السياسي قد تضاعف ، ولم يعد ذلك السياسي المرموق مثلما كان لسنوات يحتل منصبا كبيرا في حزب الأغلبية ، ويعتبر انشقاقه عن الحزب بداية مرحلة انحسار أهميته السياسية ورصيده الشعبي عموما ، وعلى الرغم من أنه كان زعيم حزب سياسي له جريدته الخاصة به ، لكنه كان حزبا صغيرا ومحدودا بمقارنته بالوفد ، كما كان معظم أولئك الذين صوتوا لصالح «الكتلة» في سنة ١٩٤٥ من بين المثقفين الذين كانت لهم تحفظات على سياسة النحاس والوفد عموما^(٥٨) .

وهناك روايات كثيرة عن أن مكرم عبيد قد عبر عن أسفه لانفصاله عن الوفد والأحداث التي أحاطت بذلك ، وقد شوهد عبيد وهو يعانق النحاس في جنازة محمد صبري أبو علم باشا في أبريل سنة ١٩٤٧ ، وقد كان أبو علم هو الذي خلف عبيد كسكرتير عام للوفد ، ويرى الذين شهدوا عناق عبيد للنحاس بأنه بدا كنوع من الاعتذار من جانبه وأمل جديد في استعادة علاقاته الطيبة مع النحاس ، وربما مركزه القديم في الوفد كذلك^(٥٩) ، ويذكر صلاح الشاهد في كتابه أن عبيدا

(٥٧) د. هيكمل - مرجع سابق - ص - ٣٥٨ - ٣٦٠ .

(٥٨) كان لحزب الكتلة الوفدية ٢٩ عضوا فقط من بين أعضاء مجلس النواب في البرلمان وكان عددهم ٢٦٤ عضوا سنة ١٩٤٥ .

(٥٩) من لقاء مع الأستاذ الدكتور رفعت المحجوب في ١٨ يوليو ١٩٧٤ ، وقد كان من بين الذين حضروا جنازة أبو علم ، وقد أكد الأستاذ فكري عبيد المعلومه ذاتها ، وأضاف أن الحامصي استقال من الكتلة الوفدية احتجاجا على ذلك التصرف من عبيد .

قال - بعد انتخابات سنة ١٩٤٥ ، التي لم يحصل فيها حزبه إلا على مقاعد قليلة بالمقارنة بالسعديين والأحرار الدستوريين الذين كانوا حلفاءه في الانتخابات - « لقد صنعت هذا الوضع ، وعلى أن أحطمه^(٦١) » ، ولقد كان من بين نتائج انفصال عبيد عن الوفد أن تضاعف دوره كممثل للأقباط في الحركة الوطنية ، ونسوق هنا مثالا لغياب دوره ، فقد وقع في يناير ١٩٥٢ حادث خطير في مدينة السويس ، شكل تهديدا للوحدة الوطنية في ذلك الوقت إذ اشتعلت النيران في كنيسة بالسويس ، ولقى خمسة من الأقباط مصرعهم على يد بعض المتطرفين ممن لا يتصفون بالمسؤولية وتقدير المواقف ، فقد كانوا خاضعين لانطباع خاطئ بأن ضحاياهم كانوا جواسيس للانجليز في منطقة قناة السويس في تلك الفترة العصبية من العلاقات البريطانية - المصرية . وقد كان لذلك الحادث أصداء عنيفة بين الأقباط ، خصوصا أبناء مدينة السويس وبعض مدن الوجه القبلي ، ويتصور الدكتور محمد أنيس - المؤرخ المعاصر - أن هذا النزاع الطائفي العارض كان يمكن أن يؤدي إلى انسحاب الأقباط من الحركة الوطنية المصرية^(٦٢) ، وقد كانت خطورة رد الفعل القبطي واضحة في برقياتهم إلى رئيس الوزراء النحاس باشا وإلى بطريرك الأقباط (يوساب الثاني) وإلى جميع الصحف اليومية ، إلا أن أهم برقية هي تلك التي أرسلها بعض الأقباط إلى إبراهيم فرج باشا - الوزير القبطي في الحكومة الوفدية - وطالبوه فيها بتقديم استقالته فورا من الحكومة .

وإلا وقع تحت طائلة العقاب بالحرمان من بركات الكنيسة القبطية ، وطلبوا علاوة على ذلك من جميع السياسيين الأقباط الامتناع عن المشاركة في أية حكومة حتى تتم الموافقة على مطالبهم ، وكان من بين أعنف الاحتجاجات وأكثرها صخباً احتجاج باسيليوس إسحاق - القسيس القبطي لمنطقة غبريال بالاسكندرية - والذي بعث برقيات نيابة عن طائفته إلى رئيس الديوان الملكي ورئيس الوزراء ووزير الداخلية والصحف القبطية ، يطالبهم فيها بأن تقوم لجنة حكومية بتحقيق فوري في الحرمة بحضور ممثلين للأقباط كما كان من أعنف ردود الفعل القبطية للحادث ما حدث في مديرية سوهاج عندما عقد الأقباط اجتماعاً في الكنيسة الرئيسية بالمدينة حيث أُلقت بعض الشخصيات القبطية البارزة خطاب احتجاج غاضبة ، وبعثوا برقيات إلى النحاس باشا . وإبراهيم فرج باشا ، والبطريرك القبطي ، وجميع الصحف المصرية ، يطالبونهم فيها بالمساواة الكاملة بين الأقباط والمسلمين ، وأعلنوا رفضهم لأية مساعدة حكومية لأسر الضحايا ، أو أية مساعدة حكومية في

(٦٠) الشاهد - مرجع سابق - ص - ٤٠ .

(٦١) د . محمد أنيس ، حرق القاهرة ٢٦ يناير ١٩٥٢ ، بيروت ١٩٧٢ ص ٢٢ - ٢٥ . ص ١٤٥ - ١٤٧

لإعادة بناء كنيسة السويس ، وطالبوا أيضا باستقالة إبراهيم فرج باشا من منصبه كوزير قبطى ، وطالبوا - علاوة على ذلك - جميع الشخصيات القيادية القبطية البارزة برفض تعيينهم فى المناصب الوزارية ، ووقع على البرقيات عدد من كبار الأعيان والمحامين الأقباط ، مثل فايز عبد النور ، وفؤاد نجيب ، وكامل زكى ، ورياض بشاى ، وعزيز عازر ... إلخ^(٦٢) .

وتعكس تلك الحادثة فى سنة ١٩٥٢ - قبل حريق القاهرة الشهير فى ٢٦ يناير بعدة أسابيع - الفتور الذى أصاب الزعامة الوفدية بعد انفصال عبيد ، واختفاء دوره الفعّال كممثل رئيسى للأقباط فى الحزب وفى الحركة الوطنية ، ولنا أن نتصور لو كانت حادثة السويس قد وقعت بينما كان عبيد ما يزال الرجل الثانى فى الوفد ، ومهندس الوحدة الوطنية ، لكان قد لعب أكثر الأدوار فعالية وديناميكية ، ربما فى حياته السياسية كلها ، لأنه كان بصفته - سياسيا قبطيا وزعما وفديا - سوف يستخدم مكانته وشعبيته لدى المسلمين والأقباط لتفادى ردود الفعل الغاضبة واحتواء آثار الحوادث المريب .

وفى الجانب الآخر نجد أن الوفد قد فقد قدرا من الثقة التى تمتع بها ، واهتز مركزه كحزب الوحدة الوطنية بانفصال عبيد واختفاء الشخصيات القبطية ذات الفعالية من زعامة الحزب ، وقد كتبت صحيفة (مصر) تعلق على وضع حزب الوفد قبيل تجديد عضوية مجلس الشيوخ بقولها : « يبدو أن حزب الوفد قد نسي أن هناك أقباطا يصلحون للتزشيح^(٦٣) ، وأن الأمة مكونة من عنصرين : المسلمون والأقباط ، إذ أن ثلاثة ملايين قبطى لا يجب أن يمرروا على قوائم التزشيح فى صمت وهدوء »^(٦٤) .

ولقد كان المسرح السياسى فى مصر - فى نهاية الأربعينات - مهيثا لجوالات من العنف التى تعيد إلى الأذهان الوضع فى ١٩١٩ ومطلع العشرينات حيث كان المزاج العام متوترا إلى جانب المظاهرات الضخمة وأعمال العنف ضد قوات الاحتلال البريطانى ، وقد بدأت المظاهرات ضد البريطانيين هذه المرة ، كرد فعل لمفاوضات صدق - ييفن فى سنة ١٩٤٦ ، وأرغمت المظاهرات وأعمال العنف الحكومة على التخلّى عن الاتفاقية المقترحة ثم الاستقالة ، لكن السخط الشعبى كان

(٦٢) مصر - القاهرة ، ١١ / ١٠ يناير ١٩٥٢ .

(٦٣) التزشيح لمجلس الشيوخ المصرى .

(٦٤) مصر ، القاهرة ٢٣ مارس ١٩٥١ .

قد بلغ ذورته إلى حد أن سلسلة أعمال القتل والعنف تعاقبت في الأعوام القليلة التالية ، ويمكن تفسير جانب من الإحباط العام ، بالتدهور الذي طرأ على شخصية حزب الوفد وشعبيته .

وقد كان الوفد يمر في سنوات أفوله بسلسلة من الانتقادات وكثير من اللوم والمرارة ففي سنة ١٩٣٦ خسر الوفد تأييد الجماعات الوطنية المتطرفة عندما وقع معاهدة ١٩٣٦ ، وبعد ذلك في سنة ١٩٤٢ خسر قطاعًا ضخمًا من مؤيديه بسبب تأثير دعاية القصر وأحزاب الأقلية الذين قدموا حادث ٤ فبراير للجهاير بصورة تهبط بشعبية الوفد بحيث أصبح هذان التاريخان ١٩٣٦ ، ١٩٤٢ ، علامتين أساسيتين في منحى تدهور شعبية الوفد ، كما كان لخسارة شخصيات مثل أحمد ماهر ، والنقراشي ثم عبيد بعد ذلك ، رد فعلها على بنية وشعبية الحزب (٦٥) .

وقد كان الوفد بوصفه تنظيمًا جماهيريًا - وليس حزبًا بالمفهوم الغربي للتعبير - في حاجة إلى نموذج من الزعامة التي تكون لديها القدرة دائما على تبسيط التفسيرات للمواقف السياسية ، والقيام بالدعاية ذات التأثير ، وقد كان اختفاء عبيد - خطيب الوفد - ذا تأثير ضار على الحزب ، لأن الخطابة السياسية كانت إحدى وسائل التأثير الرئيسية المستخدمة ، كما كانت ذات شأن عظيم في الحياة السياسية المصرية في ذلك الوقت .

وكان هناك سبب رئيسي لانحدار الوفد وأفوله فيما بين ١٩٤٢ - ١٩٥٢ ، إذ أن العناصر الجديدة في الحزب من ملاك الأراضي كانت عاجزة عن استيعاب التغيرات الاجتماعية التي حدثت في بنية المجتمع المصري (٦٦) ، وكرد فعل لذلك ، برز اتجاه إصلاحى اشتراكى بين الشباب من الجيل الجديد للحزب ، وأطلقوا على أنفسهم « الطليعة الوفدية » ، وأعلنوا برنامجهم الخاص بالتغيرات الاجتماعية ، كما قدموا بعض الأفكار التقدمية . في إطار إصلاحى لا يخلو من نزعة اشتراكية ، وكان من زعمائهم أسماء مثل : دكتور عزيز فهمى - المحامى (٦٧) ودكتور محمد مندور - الكاتب ، وإبراهيم طلعت - النائب بمجلس النواب عن دائرة بالإسكندرية ، وقد أبدى بعض الصحفيين الوفديين تعاطفا مع المجموعة ، مثل أحمد أبو الفتوح - رئيس تحرير المصرى .

(٦٥) محمد زكى عبد القادر ، مرجع سابق ، ص ١٣٢ - ١٣٥ .

(٦٦) طارق البشرى - الحركة السياسية في مصر ١٩٤٥ - ١٩٥٢ ص - ٣٢٦ .

(٦٧) عزيز فهمى بك هو ابن عبد السلام فهمى جمعة باشا رئيس مجلس النواب وسكرتير عام الوفد قبل سراج الدين ، وقد كان للدكتور عزيز فهمى المحامى شعبية كبيرة في أوساط المثقفين المصريين في بداية الخمسينيات ، وقد توفى في حادث سيارة غامض عام ١٩٥٢ .

وفي ٨ أكتوبر ١٩٥١ ، ألغت حكومة الوفد معاهدة سنة ١٩٣٦ ، التي كانت تفاخر قبل ذلك بسنوات بتوقيعها وبلغت موجة العنف ذروتها في مظاهرات ٢٦ يناير ١٩٥٢ التي اقترن بها إحراق كثير من المباني الهامة والفنادق والمحال التجارية في العاصمة في جو متوتر ومكفهر للغاية ، مما أدى إلى إقالة آخر حكومة وفدية ، اعتمادا على أن الحزب كان منقسما على نفسه ، كما لم تكن له سيطرة فعالة على الجيش أو البوليس ، إلا أن الرغبة الشعبية في إصلاحات داخلية ، ورفع مستويات المعيشة قد أحبطت عندما تركت الشئون الداخلية للبلاد لشخصيات محافظة مثل فؤاد سراج الدين الذي كان في وقت واحد سكرتير الحزب ، ووزير الداخلية ، كما كانت له مصالح واهتمامات ملاك الأراضي^(٦٨) .

وكان هناك - علاوة على ذلك - عامل جديد برز في الميدان السياسي المصري - وهو مسألة الوجود الصهيوني في فلسطين ، والذي حوّل اهتمام الشعب من المظالم الداخلية إلى المشكلات الخارجية التي كانت قد صنعت منذ سنة ١٩٤٨ شعورا بالمرارة داخل صفوف الجيش المصري^(٦٩) .

وقد استغل حزب « الكتلة » بزعامة عبيد حالة الانقسام داخل الوفد ، وانضم إلى الحملة المعادية له ، موجها لومه - في الأساس - إلى النحاس وسراج الدين لفشلها في زعامة حزبهم القديم والذي كان من قبل المعبر الحقيقي عن الحركة الوطنية ورغم أن « الكتلة » كان حزبا صغيرا ، إلا أنه كان حسن التنظيم ، وكان يدّعي دائما أنه يعبر عن الخط الأصلي للوفد بدون التورط في أخطائه .

وبقيام ثورة يوليو ١٩٥٢ . انتهى - فعليا - الدور السياسي للزعامات التقليدية ، واقتصر دور عبيد على القيام بمجهود محدودة بعد سنة ١٩٥٢ ، كما تم اختياره عضوا في لجنة محدودة لوضع دستور جديد في سنة ١٩٥٣^(٧٠) ، والواقع أن مكرم عبيد يمثل الشخصية المصرية العامة ، فقد كان نابضا بالحياة الفكرية متمتعا بقدرات سياسية متنوعة ، إلى جانب اهتماماته بالدراسات النظرية كذلك . ولا زال البعض يذكرون له إسهامه في إقامة جسور فقهية بين الشريعة الإسلامية والقانون الفرنسي^(٧١) .

(68) J M. LANDAU, op. cit., pp. 189 - 190

(٦٩) طارق الشربى - مرجع سابق - ص - ٣٢٨ .

(٧٠) روز اليوسف - القاهرة ، ٢٩ نوفمبر ١٩٧٦ ص - ٢٧ .

(٧١) الأهرام - القاهرة - ١٥ ديسمبر ١٩٧٥ (من حديث للرئيس الفرنسي جيسكار ديستان في جامعة القاهرة) .

ويرسم - WAKIN في كتابه خطوط صورة كنيية لنهاية دور الأقباط في الحركة الوطنية المصرية بقوله :

« يجسد القسيس سرجيوس^(٧٢) العجوز ، والسياسي القديم مكرم عبيد الخبرة القبطية في هذا القرن ، ويبرزان داخل المحيط القبطي كشخصيتين بطوليتين أحدهما زعيم للطائفة ، والآخر وطني كانت له شعبية واسعة ، وتوفى السياسي القديم مغمورا وأهملت إنجازات حياته ، وظل القسيس حيا ، وبقيت روحه حيسة جسد ضعيف^(٧٣) » .

وقد توفى مكرم عبيد في ٥ يونيو سنة ١٩٦١ . وألقى أبور السادات - الذي كان رئيسا لمجلس الأمة في ذلك الوقت - خطابا في تأيينه بالكنيسة المرقسية مشيدا بالنضال الوطني لعبيد من أجل الاستقلال منذ سنة ١٩١٩ . ومصيفا أن أبطال ٥٢ يعدون أبطال ١٩ ، أن يمشوا على طريق النضال ، الذي بدأه أبطال ١٩١٩ وصحوا من أجله^(٧٤) .

(٧٢) القمص سرجيوس قسيس ، له دور بارز في النضال المصري من أجل الاستقلال وكان له نشاط فعال في ترسيخ الوحدة الوطنية في أيام زغلول ، وصعد مرصع الأهرام كتمير عن الأحوة الإسلامية - القبطية وحطبه فيه ، وتوفى سنة ١٩٦٤

(73) E. WAKIN, op. cit., p. 20.

(٧٤) الأهرام - القاهرة - ٧ يونيو ١٩٦١

خاتمة

الأقباط في مصر طائفة فريدة إذا قورنت بالأقليات الأخرى في العالم إذ أن جذورهم العميقة وأصولهم الواضحة في دولة لها تاريخ طويل معروف جعلتهم جزءا لا يتجزأ من نسيج الشعب المصري - بأغليته المسلمة - إجتماعيا وديموغرافيا - ويوضح استقراء التاريخ أن أوضاعهم تأثرت تاريخيا بالسياسات التي ينتهجها الحكام وفقا لأسلوب كل منهم خصوصا وأن الأقباط كانوا مصدر دخل لخزينة الولاة في بعض الأحيان عن طريق الجزية أو الضرائب التي كانت تثقل كاهل السكان أقباطا ومسلمين ، وقد ظل الأقباط لعدة قرون بمنأى عن الحياة العامة في مصر ، لكن مشاركتهم بدأت تتزايد تدريجيا في قطاعات معينة بالإدارة الحكومية مع ميلاد مصر الحديثة ، فقد أصبح الأقباط - منذ الحملة الفرنسية وحكم محمد علي - عنصرا فعالا وهاما في الحكومة خاصة في الشئون المالية والإدارية .

وقد مرت العلاقة بين المسلمين والأقباط بمرحلة عصيبة بعد وفاة مصطفى كامل بفترة قصيرة ، إذ أن الحزب الوطني الذي أسسه قد شهد تحولا ذا طابع ديني بعد رحيله ، وكان حادث اغتيال بطرس غالى - رئيس الوزراء القبطي - السبب المباشر لبدء تلك الفترة العصيبة ، إذ عقد مؤتمر قبطي ليقدم مطالب الطائفة إلى الخديوى والحكومة ، ولم يلق المؤتمر تشجيعا من السلطات البريطانية ، كما لم يتحمس له كثير من الأقباط ، وتلا ذلك عقد مؤتمر إسلامي - كرد فعل للمؤتمر الأول - ولكن العناصر الأكثر اتزاناً من المسلمين والأقباط لمجحت في الحيلولة دون تدهور أكثر في الموقف .

وقد مرت الحركة الوطنية المصرية بعد ذلك بفترة هدوء نسبي لتأتى بعدها أحداث ملتهبة تمثل ريعان الحركة الوطنية بزعامة سعد زغلول ، حيث بلغت مشاركة الأقباط في الحركة الوطنية والحياة السياسية المصرية أعلى درجاتها .

ويرتبط دور الأقباط في الميدان السياسى بالحركة الوطنية المصرية قبيل عشرينيات هذا

القرن ، إذ هيأت الشخصية العلمانية لثورة ١٩١٩ . ومزاجها المصرى الخالص للأقباط فرصة حقيقية للإسهام بقوة فى المواقف الوطنية ، وتبديد أية شكوك كانت تردد حول شعورهم الحقيقى تجاه الحكم البريطانى . وشجعت السياسة الزغلولية التى ترفض التفرقة الدينية العنصر القبطى على أن يصبح أكثر فعالية فى الحركة الوطنية المصرية ، وواصل حزب الوفد بعد ذلك اتباع الاستراتيجية الزغلولية لاحتواء الأقباط حتى صار الحزب - لفترة غير قصيرة - تعبيرا عن الوحدة الوطنية المصرية فى الوقت الذى اعتبره فيه الأقباط بوتقة الحياة السياسية ، ويمكن هنا مقارنة وضع حزب الوفد فى تلك الفترة بحزب المؤتمر الهندى وهو حزب كان يضم كل طوائف واتجاهات الهند الحديثة فى سعيها نحو الاستقلال ، والملاحظ أن كلا من حزب الوفد المصرى ، وحزب المؤتمر الهندى ، قد بدأ نشاطها السياسى فى وقت واحد تقريبا ، وكان الولاء للحزب يعلو على كل الولاءات الطائفية ، وتلك كانت فلسفة الحزب فى احتواء الطوائف وتمثيل الأقليات .

وليس من شك فى أن مكرم عبيد هو الوحيد من بين السياسيين الأقباط الذى عبر حاجز الأقلية ، ليصبح شخصية عامة ، متمتعاً بشعبية واسعة بين المسلمين قبل الأقباط ، كما كان أول قبطى يتولى مسئولية رئيسية فى حزب الأغلبية ، وقد نجح عبيد فى أن يصنع جسورا قوية مع الرأى العام المصرى لسنوات طويلة ، وعلى الرغم من أن عبيدا لم يصبح رئيسا لوزراء مصر ، فإن إسهامه فى السياسة المصرية الرسمية أعظم من إسهام كثيرين تولوا مسئولية ذلك المنصب . وقد ركز عبيد على دوره الديناميكى فى الوفد ، وانهمك فى الحياة السياسية داخليا وخارجيا ، فقد كان يمثل الوفد ومبعوثه إلى الخارج ، والمتحدث الرسمى الناطق باسم الحزب فى المناسبات الوطنية والأحداث الهامة ، وتمثل شخصية عبيد مزيجا متميزا من المشاعر والطموحات التى دفعت به طوال حياته السياسية للسعى نحو اكتساب الشعبية واستقطاب الرأى العام .

ويلاحظ المهتمون بدراسة «سيكولوجية» الأقليات عموما أن هناك بعض الخصائص المشتركة بين أفرادها من بينها القلق والخوف من المستقبل ، إلى جانب نظرة متحفظة تجاه الشئون العامة ، وحساسية مفرطة تجاه الأغلبية فى بعض الأحيان ، ومما يلفت النظر أنه يصعب اكتشاف تلك الخصائص النفسية فى شخصية مكرم عبيد ، إذ يمثل دوره فى الحياة العامة درجة عالية من الإيجابية ، فلم يركن إلى المزاج السلبي العزوف عن المشاركة السياسية ، بل كان عنصرا فعالا ومؤثرا فى الحياة من حوله ، كما لم يكن عبيد زعيما طائفيا متعصبا ، بل كان دائما ما يتفادى الانغماس الشديد فى شئون الطائفة القبطية ، سواء المرتبطة منها بالكنيسة أو تلك المرتبطة «بالمجلس الملى

العام، بل كان يحاول - بوعى تام - التغلب على السمات المرتبطة بابن الأقلية ، فكان الدين بالنسبة له نسقا ثقافيا وليس مبررا للانزعال أو التوقع ، ولذلك لم يكن قبطيا متعصبا . بل كان مصرياً بالدرجة الأولى ، ولاشك أن سيرة عبيد ودوره في الحياة السياسية المصرية تقدم نموذجاً رائعاً يثبت صحة الافتراض بأن الانتماء لإحدى الأقليات - مع التسليم بأن الأقباط أقلية بالمفهوم العددي للكلمة فقط - لا يحول دون المشاركة الواسعة والتأثير الإيجابي في الحياة العامة بجوانبها المتعددة .

وإذا تأملنا آراء ومواقف مكرم عبيد تجاه القضايا التي تمم الأغلبية في مصر كقضايا العروبة والإسلام ، لوجدنا أنه قد اختار مسلكاً إيجابياً في التعامل معها بحيث أوجد له أرضية مشتركة مع الجماهير من أبناء مصر، ولاشك أن الذي ساعد عبيد في ذلك هو المناخ العام الذي تجسد في قدر معقول من الديمقراطية الليبرالية التي تقوم على أسس علمانية تفصل بين القرار السياسي والموقف الديني في فترة كان حزب الوفد فيها أفضل تعبير عن ذلك الفكر بما مكن لسياسي قبطي مرموق أن يبلغ من الشعبية ما بلغه مكرم عبيد وذلك استناداً إلى عدة أسباب هي :

- أولاً : أن الوفد ذاته كان حزب الأغلبية لأسباب تاريخية معروفة .
- ثانياً : فلسفة الحزب كانت مصرية خالصة دون ارتباطات تتعارض مع ذلك .
- ثالثاً : لم يكن الحزب تعبيراً عن فكر ديني ولم تحط به ظلال يمكن أن تخشاه الأقليات .
- رابعاً : أن مشاركة الأقباط في دور الحزب بدأت مع ميلاد الحزب ذاته .

وقد شهد مكرم عبيد أكثر أيامه فعالية ونشاطاً ، كما عاش أروع فترات حياته حين كان سكرتيراً عاماً لحزب الوفد حيث كان هو رسمياً الرجل الثاني في حزب الأغلبية ، بالإضافة إلى ما تمتع به من نفوذ عظيم وشعبية كبيرة لأنه كان يمثل القوة المؤثرة خلف النحاس الزعيم الشعبي للمصريين لأكثر من خمسة وعشرين عاماً ، كما كان عبيد هو العنصر الفعال في اتصالات الوفد بالقصر الملكي والبريطانيين والأحزاب السياسية الأخرى .

لذلك فإننا نتفق مع الآراء التي تعتبر انفصال عبيد عن الوفد واحدة من الخطوات التي تدهور بها الحزب والتي يتحدد بها بدء مرحلة أقول لنجم عبيد سياسياً في الوقت ذاته ، إلا أنه يبدو واضحاً ، أنه لم يكن هناك أمام عبيد أى اختيار آخر ، لأن البديل كان هو السكوت عما لا يقبله من مظاهر المحسوبية والفساد ، ولكن الملاحظ أن عبيداً قد بنى موقفه في نزاعه من النحاس ، وفي

انفصاله عن الحزب ، على افتراضات خاطئة وغير دقيقة لذلك لم يحقق النتائج التي كان يتوقعها ، كما أن القول بأن القصر هو الذى شجّع عبيدا على الانفصال عن الحزب ، وفي نشر الكتاب الأسود محاولا استخدامه كأداة لفتيت الوفد خصوصا بعد لطمة ٤ فبراير ١٩٤٢ ، قول مقبول مع تحفظ مؤداه أن عبيدا شعر أن في إمكانه استغلال موقف القصر لخدمة أهدافه وتحقيق طموحاته ، ولم يكن يتوقع ردود فعل الحساس التي كانت عفيفة للغاية ، وليس من شك في أن عبيدا كان مثالا للزعيم الواضح الصريح الذى نجد له نماذج مشابهة في بعض السياسيين من العالم الثالث حيث يتميزون بما يمكن تسميته «بالديماجوجية» والقدرة على إثارة الحساس وتحريك الجماهير ، كما أن طموح عبيد لأن يكون رئيس وزراء مصر كان طموحا ملموسا وله ما يبرره ، فقد كان ويكل تأكيد أكثر قدرة من آخرين شغلوا ذلك المنصب في عصره ، ويعكس عبيد بطموحه ذلك ، آمال الأقلية في أن تلعب دورا مؤثرا وفعالا بين الأغلبية من بنى وطنهم .

لقد حرر عبيد نفسه من القلق والإحساس بافتقار الأمان ، ونزل إلى معترك الحياة السياسية كمواطن مصرى يسعى إلى ممارسة دور فعال في رسم مستقبل بلاده ، وكان الخط المتطرف الذى انتهجه في حياته السياسية وانتقاده الشديد للسياسة البريطانية في مناسبات كثيرة انعكاسا لشعوره بأنه لا ينتمى لدين الأغلبية ، فقد كانت الأقباط متهمين - من بعض المتطرفين - بالتعاطف المستتر مع الاحتلال البريطانى . ويدوأن الذى ينتمى إلى أقلية قد يضطر إلى اتخاذ مواقف أكثر تطرفا من مواقف الأغلبية ذاتها خصوصا إذا كان يتطلع إلى ممارسة دور سياسى فعال .

ان تدقيق النظر في دور الأقباط في التاريخ السياسى لمصر الحديثة يوضح أنهم قد لعبوا دورا محسوسا في المجتمع ، واهتموا بالتجانس السياسى والانصهار الكامل في الحياة السياسية ، ولم تختلف أفكارهم وآمالهم عن أفكار وآمال بقية المصريين . فلم يكن للأقباط أحياء خاصة بهم طوال تاريخ مصر . كما كانت ظروفهم الاجتماعية تتحدد وفقا للترعة الحاكم وميوله ، فعندما كان الحكام يحسنون معاملتهم ويتميزون بالسماحة تجاه معتقداتهم كان الأقباط يقومون بدور فعال اجتماعيا وسياسيا ، ولكن حين كان الحكام غير ذلك - في بعض مراحل تاريخ مصر الإسلامية - كان الأقباط ينسحبون من الحياة العامة ، ويتحولون إلى طائفة منكشة . ويصبحون سلبيين على الصعيدين الاجتماعى والسياسى .

وتمثل الثورة الشعبية عام ١٩١٩ بداية العصر الذهبي للمشاركة القبطية في الحياة السياسية تحت رايات الوحدة الوطنية ، ولعله لا يغيب عن الذهن أنه من الممكن لنموذج عبيد أن يتكرر إذا ما أمكن توفير مناخ ديمقراطى وليبرالى مماثل لذلك الذى شهدته مصر عبر سنوات طويلة هذا القرن حين أدرك المصريون أن الدين لله وأن الوطن للجميع .

الفهرس

صفحة	
٥	تقديم.....
١١	مقدمة الطبعة الثانية.....
١٣	مقدمة.....
١٧	الفصل الأول : الأقباط : نظرة عبر التاريخ.....
٤٥	الفصل الثاني : مكرم عبيد والمخل إلى الحركة الوطنية.....
٧٥	الفصل الثالث : الزعيم المرموق في حزب الأغلبية.....
٩٩	الفصل الرابع : مكرم عبيد والانشقاق عن الوفد.....
١٣٣	الفصل الخامس : تحليل وتقييم.....
١٦١	خاتمة :.....

رقم الإيداع ٨٨٣٠٥١
التقديم الدولي . ٠ - ٢١٣ - ١٤٨ - ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة: ١٩٦٨ شارع حجاز، خ. - هاتف: ٧٧٤٨١ - ٧٧٤٥٧٨ - برقية: فريديت - تلغراف: SHOROK UN
بغداد: ص.ب. ٨٠٦٤ - هاتف: ٣٥٨٥٩ - ٨١٧٣٦٥ - ٨١٧٢١٣ - برقية: دافريك - تلغراف: SHOROK UN

